نصوص بغدادية نادرة

الحياة الاجتماعية والاقتصادية لبغداد في المجلات العراقية والعربية

جمع ودراسة

الدكتور طارق نافع الحمداني

أستاذ التاريخ الحديث

نصوص بغدادية نادرة

تأليف : د. طارق نافع الحمداني

الطبعة الأولى 2013

عدد الطبع 2000

عدد الصفحات 120

طبع الكتاب على نفقة وزارة الثقافة

بمناسبة بغداد عاصمة الثقافة العربية لعام 2013



رقم الإيداع الكتب والوثائق في بغداد

2853 لسنة 2013

تنفيذ وإخراج دار صفحات دمشق - سورية



دار ميزوبوتاميا

للطباعة والنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي

موبايل: 07905139941

Mazin24@ymail.com

mazinboox@yahoo.com

mazin774@gmail.com

أولاً- المجلات مصدر لدراسة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بغداد

رافق بناء بغداد، ذات الموقع الجغرافي المهم، تطورات اجتماعية واقتصادية مهمة، ساهمت جميعاً في تكوين هذه المدينة التي احتلت مكاناً بارزاً في التاريخ لعدة قرون، في العصور الإسلامية والحديثة.

وتأتي هذه الدراسة في مجموعة من البحوث كتبها كُتّاب ومؤرخون عراقيون في المجلات العراقية والعربية، قسم منها تناول مواضيع اجتماعية وأخرى اقتصادية، مع تحليل لطبيعة تلك المجلات ومادتها التاريخية.

لم تكن المعلومات الواردة في المجلات العراقية والعربية إبان القرن العشرين أقل أهمية من المعلومات الموجودة في الكتب الصادرة آنذاك، بخاصة وأن عدد الكتب المتداولة في العراق كانت قليلة جداً، قياساً لما هو موجود منها في بلاد الشام ومصر. وعليه فإن كثيراً من الكُتّاب والمؤرخين العراقيين عولوا كثيراً على نشر بحوثهم ومقالاتهم في المجلات العراقية والعربية تنفيساً لما كانوا يكتبونه. ولعل هذا الأمر بالذات قد كان موضع انتقاد من لدن كُتّاب عراقيين آخرين، الذين إعتبروه قصوراً، لاقتصارهم في الكتابة والنشر على المجلات لا على الكتب، مع العلم ان من بينهم عدداً غير قليل ممن يملك من القابليات والمواهب ما لا يقل عن نظرائه في بلاد الشام ومصر، وفي هذا الصدد يتساءل أحد الباحثين بقوله:

"ترى لماذا يتكاسل أدباء العراق عن التأليف وعند بعضهم شهادات تضارع شهادات طه حسين وزكي مبارك وعلي عبد الواحد وافي وعبد الوهاب عزام. اليس الدكتور مصطفى جواد والدكتور محمد مهدي البصير والدكتور جواد علي والدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور سليم النعيمي وغيرهم من أبناء وطننا يحملون الشهادات الراقية في الأدب والتاريخ من جامعات أوربا العالية؟ فبلادنا يوجد فيها أدباء ولكن ليس هناك نهضة أدبية، وسبب ذلك ألقيه على الأدباء، فقد انصرفوا إلى كتابة المقالات القصيرة في بعض المجلات التي ما تلبث ان تغلق وينساها الجمهور، ولم يطرقوا باب التأليف [أي تأليف الكُتب]"[1].

ومع ان هناك بعض الآراء السائدة في الأوساط الثقافية العراقية، التي تخشى من إهمال أو نسيان البحوث والدراسات المنشورة في المجلات،

---

(1) عبد الباسط يونس رجب، إلى أدباء العراق: هذا أوان العمل، مجلة البطحاء، العددان 13 و14، السنة الأولى، الناصرية (العراق)، الجمعة 17 محرم الحرام- 14 كانون الأول، 1946، ص296.

فقد شهدت الساحة العربية والعراقية صدور أعداد كبيرة منها طوال القرن العشرين، ومنها ما لم تعمر مدة طويلة، والبعض الآخر استمرت بالصدور لعقود طويلة مثل مجلة "المقتطف" و"الرسالة" و"الهلال" في مصر، و"المقتبس" و"الأديب" و"الآداب" في بلاد الشام، و"المعلم الجديد"، و"سومر" و"مجلة المجمع العلمي العراقي" العراقية وغيرها.

المجلات مجال رحب للكتابة والتأليف، وقد انتبه الأوربيون إلى ذلك وأصدروا المجلات العلمية والثقافية في شتى فروع المعرفة، في وقت أسبق بكثير مما نحن عليه. صحيح ان بلاد الشام ومصر قد سبقت غيرها من البلاد العربية في هذا المجال، وأصدرت المجلات الثقافية والعلمية منذ منتصف القرن التاسع عشر، إلا أنها مع ذلك فهي مدينة في نهضتها الأدبية والعلمية المبكرة لتلك التي حدثت في البلدان الأوربية. أما نحن في العراق، إذا كان قد نبغ مَن بين أبنائه من الأدباء والكتاب ممن لا يقلون شأوا عن نظرائهم في بلاد الشام ومصر، من أمثال الأب انستاس ماري الكرملي ونابليون ماريني والمعلم داود صليوا والقس سليمان الصائغ والعلامة محمود شكري الآلوسي ويوسف رزق الله غنيمة والشيخ جعفر محبوبة والشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ محمد السماوي وجعفر الخليلي ومير بصري وغيرهم كثير، إلا أن معظمهم لم ينالوا من السمعة ما نالها الكتاب والأدباء المصريون والشاميون في البحث والتأليف، أو في النشر في المجلات الثقافية والعلمية[1].

وحري بالقول، أن المجلة بمفهومها العام، تختلف عن الجريدة والكتاب وتقف وسطاً بينهما، فطبيعة المجلة هي نشر الأخبار اليومية على

---

(1) رجب، المصدر نفسه.

صفحاتها، في حين أن المجلة تمثل مزيجاً من المقالات والبحوث والقصص والشعر وغيرها، وان القارئ لا يقرأها كما يقرأ الكتاب من بدايته إلى نهايته، وإنما هو يختار منها بحرية وحسب حاجاته وذوقه ومزاجه[1].

فالمجلة إذن الميدان الذي يلتقي فيه الأديب والمؤرخ والمثقف، ليدلي بدلوه في البحث والتنقيب، لذا فأن الحديث عن دور المجلة في نشاط الحركة الثقافية والعلمية في أي بلد مما لا يمكن نكرانه. وفي هذا السياق، بدأ العراق نهضته الأدبية والصحفية في وقت مبكر من القرن العشرين، وبالذات بعد قيام الثورة الدستورية العثمانية عام1908، وما ترتب على ذلك من صدور عشرات الصحف والمجلات، التي تبنت الآراء الحرة المطروحة آنذاك.

وقد أحصت (جريدة العرب)، التي أصدرتها سلطات الاحتلال البريطاني في العراق، خمساً وخمسين جريدة ومجلة ظهرت خلال ما يقرب الأربع سنوات (تموز- يوليو-5/1908 آذار – مارس- 1911)[2]. ولعل مما شجع على زيادة هذا العدد من الصحف والمجلات، ان الباب العالي كان قد أوصى الولاة بإصدار صحيفة في كل ولاية، لذا حفلت تلك المدة بظهور عدة صحف في عواصم الولايات العثمانية، التي لم تكن قد صدرت فيها صحف من قبل[3].

---

(1) عبد الجبار داود البصري، واقع المجلات الثقافية والأدبية في العراق ومشاكلها، مجلة الآداب (البيروتية)، العدد الثاني عشر، السنة22، كانون الأول (ديسمبر)، 1974، ص38.

(2) هادي طعمة، الاحتلال البريطاني والصحافة العراقية1914-1921، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1984، ص92.

(3) المصدر نفسه، ص90؛ ينظر أيضاً: عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1387-1968، ص385.

لم تكن العقود التالية من القرن العشرين ببعيدة عن هذا المسار، فقد شهد كل عقد من العقود ظهور واختفاء مجلات أدبية راقية كتب على صفحاتها أعلام الكُتّاب والمؤرخين العراقيين، سواء أكان ذلك في بغداد أو في المدن العراقية الأخرى مثل النجف والموصل، فضلاً عن مساهماتهم المبكرة في الصحف والمجلات العربية.

على أن قسماً من هذه المجلات لم يكن يقل قوة أو نجاحاً عن المجلات الأدبية الصادرة في لبنان أو مصر، ولكن لماذا كانت تختفي بعض هذه الصحف والمجلات، الم تكن تلقى الدعم الكافي لها، أم أن الذين تولوا الكتابة فيها رجال ليسوا من أرباب الأقلام، ولا يُحفَل بهم، أو أن بروزها كان ضمن ما يمكن تسميته بـ(فورة صحفية)، إذ لم تقم على أساس من التخطيط والحاجة الضرورية لصدورها؟

على أن نوعاً من هذا الاستفتاء قد أجرته مجلة "المرشد" البغدادية عام 1926 تحت عنوان "لم لا تعيش مجلة في العراق"؟

لقد أجاب كثير من القراء والباحثين على هذا السؤال، واتفقوا على ان الصحافي الناجح، سواء كان صاحب "صحيفة" أو "مجلة" يجب أن يكون في سوية علمية أرقى من متوسط مستوى قراء صحيفته أو مجلته، فإذا وجد هذا الشرط في الصحافي لابد له من شرط ثانٍ وثالثٍ، وهما توفر المال والإلمام بإدارة الصحف والمجلات، هذا فضلاً عن حداثة الحركة الأدبية والعلمية في العراق، وقلة القراء وكثرة نسبة الأميين فيه، وتعدد المجلات في المدينة الواحدة، بينما في وسع مجلة واحدة ان تسد احتياج عدد منها[1].

---

(1) خلف شوقي أمين الداودي، لم لا تعيش مجلة في العراق، مجلة المرشد، الجزء3، السنة 1، رجب الفرد سنة1344، الموافق شباط1926، ص89-90.

لم تقف الدراسات عن أسباب فشل المجلات العراقية، وعدم استمرارها على الصدور لمدد طويلة على ما ذكرناه، وإنما كان هناك من يرصد هذه الحركة في أوقات مختلفة، وهذا ما فعله السيد محمد علي البلاغي، رئيس تحرير مجلة "الاعتدال" النجفية، إذ يقول في ذلك:

"لو فتشنا عن أسباب فشل هذه المجلات لوجدنا ذلك من قلة المشجعين من القراء، وندرة المؤازرين من الكتاب والأدباء..."[1].

وبعد أكثر من ثلاثين سنة على صدور الاستفتاء الذي أجرته مجلة "المرشد" البغدادية، طرح الدكتور علي الوردي سؤالاً مماثلاً بعنوان "لماذا تموت المجلات العراقية؟"[2]. وقد علل الوردي ذلك بالتفاوت ما بين طبيعة المجلة والفئة التي تتوجه إليها، فالمجلة الاختصاصية تعتمد في نجاحها على المقالات التي يكتبها المختصون في موضوع معين، وكذا هو الشأن بالنسبة للمجلة العامة، إذ يجب أن تتخذ لها منهجاً آخر، وذلك بأن تكون البحوث التي تصدرها مما يتناسب مع قرائها، وعكس ذلك لا يكتب لهذه المجلة أو تلك البقاء[3].

ومهما يكن من أمر، فإن إغلاق بعض الصحف والمجلات، أو عدم استمراريتها في الصدور- وفقاً لما ذكرناه من أسباب- لا يعني نهاية

---

(1) محمد علي البلاغي، لمحات: المجلات، مجلة الاعتدال، العدد الأول، السنة الثالثة، النجف: ربيع الأول1354هـ، حزيران1935م، ص7.

(2) مجلة الفكر، العدد الثاني، السنة الأولى، آب 1958، المصادف محرم 1378، ص14-17.

(3) الوردي، المصدر السابق، ص14-17.

المطاف في هذا المضمار. فقد شهدت ثلاثينيات القرن العشرين صدور عدد مهم من المجلات العراقية سواء في بغداد أو في المدن العراقية الأخرى، كان من أبرزها مجلة "المؤرخ"، التي صدرت عام1932، ثم أغلقت وعادت للصدور عام1938، وهي حافلة بالمقالات التاريخية بشكل خاص[1]. ومثلها كان ظهور "المعلم الجديد" التي صدرت عام 1935، وما زالت تصدر إلى يومنا هذا[2]. والمهم في الأمر، أن مجموعة كبيرة من رواد الثقافة والفكر في العراق قد كتبوا على صفحات هذه المجلة، قبل أن ينال قسم منها شهاداته العليا من الجامعات الأوربية مثل محمد بهجت الاثري والأب أنستاس ماري الكرملي ومحمد مهدي البصير ومصطفى جواد وجواد علي ومتي عقراوي ومحمد فاضل الجمالي وغيرهم كثير[3].

أما في المدن العراقية، فقد تصدرت مدينة النجف على غيرها من المدن، في إصدار عدد كبير من المجلات الثقافية الأدبية في ثلاثينات القرن العشرين كان في طليعتها مجلة "الاعتدال" عام 1933، و"المصباح" عام1934، و"الغري" عام1939[4]. وفي هذا الوقت بالذات صدرت مجلة

---

(1) يمكن للباحث الكريم متابعة أعداد هذه المجلة للوقوف على موضوعاتها، ينظر أيضاً: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، مطبعة الزهراء، بغداد، ط2، 1376هـ-1957م، ج1، ص46.

(2) ماجد أحمد العزي، في عيد الصحافة العراقية العاشر بعد المائة: "المعلم الجديد" أقدم مجلة عراقية ما زالت تصدر إلى يومنا هذا، مجلة ألف باء، العدد 559، السنة الثانية عشرة، 13 حزيران، 1979، ص56-57.

(3) المصدر نفسه، ص57، حيث عدد كاتب هذه المقالة عدد البحوث والدراسات التي كتبها الباحثون على صفحات مجلة "المعلم الجديد".

(4) عبد الرزاق الحسني، المصدر السابق، ص46؛ محمد عباس الدراجي، صحافة النجف: تاريخ وإبداع، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989، ص22-24.

"المجلة" عام 1938 في مدينة الموصل، التي وصفها فائق بطي[1] بأنها "من المجلات الفكرية الناجحة في تلك الفترة".

أما في أربعينيات القرن العشرين، ورغم ظروف الحرب العالمية الثانية (1939-1945) فقد صدرت مجلات عراقية ذات شأن، ومن بينها مجلة "عالم الغد"، التي صدرت عام1944، وهي مجلة ثقافية فكرية، وقد اهتمت كثيراً بالموضوعات الاجتماعية والاقتصادية، وهو ما يمكن ملاحظته من تصفح أعداد هذه المجلة، التي استمرت لمدى ثلاث سنوات وعشرة أشهر (1944-1948)[2].

على أن من المجلات التي صدرت في حقبة الأربعينيات أيضاً وكانت أكثر دواماً هي مجلة "سومر"، التي صدرت عام 1945، واستمرت حتى الوقت الحاضر[3]، وكتب على صفحاتها أبرز الباحثين والآثاريين والمؤرخين العراقيين وغيرهم كما سنرى.

لم تكن مدينة النجف بعيدة عن النشاط الثقافي في العراق في أربعينيات القرن العشرين، فقد صدر فيها كل من مجلة "البيان" عام1946، ومجلة "الدليل" عام1946، ومجلة "الشعاع" عام 1948،

---

(1) الموسوعة الصحفية العراقية، مطبعة الأديب البغدادية، 1976، ص139؛ ينظر أيضاً: فيصل حسون، صحافة العراق ما بين عامي 1945-1970، القاهرة، 1973، ص39.

(2) للتفاصيل تلاحظ مجلة "عالم الغد" حول القضايا الاجتماعية، والاقتصادية، ينظر أيضاً: هالة محمد أحمد السامرائي، مجلة "عالم الغد" (دراسة فكرية سياسية)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الحديث والمعاصر، مقدمة إلى مجلس معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، بغداد، 2000م.

(3) عامرة عاصم الضاحي، كشاف مجلة "سومر" من المجلد 1-50، 1945-2001، منشورات الهيئة العامة للآثار والتراث، بغداد، ط1، 2006، ص7.

ومجلة "العقيدة" في العام نفسه[1]، وكانت هذه المجلات منبراً لكثير من أقلام الكُتّاب والباحثين والمؤرخين العراقيين والعرب، الذين يرد أسماء بعضهم في هذه الدراسة.

لقد إتضح خلال الجيل الماضي أهمية المجلات في الأوساط الثقافية والعلمية في العراق، لذا صدرت في مفتتح خمسينيات القرن العشرين، "مجلة المجمع العلمي العراقي"، التي صدرت عام 1950 واستمرت حتى الوقت الحاضر[2]، وضمت بين جنباتها العديد من البحوث والدراسات الأدبية والتاريخية، الثقافية والمتخصصة. كما صدرت مجلة "الثقافة الجديدة" في أوقات مختلفة من الخمسينيات مثل عام 1954، وعام 1958، وهي تمثل لسان حال الكُتّاب والأدباء الشيوعيين واليساريين في العراق، وغيرها من البلدان الأخرى، وعالجت موضوعات اقتصادية واجتماعية عديدة[3].

على أن حقبة ستينات القرن العشرين كانت من أخصب الحقب في الإنتاج الثقافي والفكري في العراق، ويعود السبب في ذلك لظهور مجلات أكاديمية في هذا الميدان، وكانت تصدرها معاهد وكليات عراقية آنذاك. فمن المجلات الثقافية هناك مجلة "الاقتصادي" التي تابعت إصدارها طويلاً جمعية الاقتصاديين العراقيين في الستينيات[4]، كما

(1) الدراجي، المصدر السابق، ص25-26؛ فيصل حسون، المصدر السابق، ص53.
(2) زاهدة إبراهيم، دليل الجرائد والمجلات العراقية 1869-1978، دار النشر والمطبوعات الكويتية، الكويت، ط2، 1982، ص493.
(3) فائق بطي، الموسوعة الصحفية العراقية، ص294، 378؛ ينظر أيضاً: فيصل حسون، المصدر السابق، ص78.
(4) فيصل حسون، المصدر السابق، ص82.

صدرت مجلة "المكتبة" عام1961، التي تابعت أخبار التأليف والكتب في العراق والبلاد العربية[1]، ومجلة "الكتاب"التي أصدرتها جمعية الكُتّاب والمؤلفين العراقيين عام1961، وساهم في الكتابة بها عدد من الأدباء والكتاب وأساتذة الجامعة العراقيين والعرب[2]، ومجلة "المعرفة" عام1961، وكانت تشرف على إصدارها وزارة المعارف العراقية[3]، ومجلة "المناهل"، التي صدرت عام1963، ونشرت عدداً غير قليل من بحوث ومقالات أساتذة معروفين[4].

على أن أبرز مجلتين ثقافيتين صدرتا في الستينيات هما مجلة "التراث الشعبي" التي صدرت عام 1963، ومجلة "الأقلام" التي صدرت عام1964، وكانتا بإشراف وزارة الثقافة والإرشاد[5]؛ إلى جانب مجلة "الثقافة الجديدة" التي عاودت الصدور عام1969، لصاحبها الدكتور خالص ورئيس تحريرها الدكتور صفاء الحافظ[6]، وهذه المجلات الثلاثة الأخيرة كانت ذات اهتمامات اجتماعية واقتصادية واضحة.

وللمجلات الأكاديمية العراقية نصيب واسع في نشر البحوث المتخصصة في الأدب والتاريخ، ومنها مجلة "كلية الآداب"، وذلك بعد أن

---

(1) فائق بطي، الموسوعة الصحفية العراقية، ص304؛ رفعة عبد الرزاق محمد، مجلة "المكتبة" : سيرة رائد ومكتبة ذائعة، جريدة المدى، ذاكرة عراقية، العدد 1866، السنة السابعة، (الاثنين)، آب 2010، ص8.

(2) المصدر نفسه.

(3) زاهدة إبراهيم، المصدر السابق، ص505.

(4) المصدر نفسه، ص510.

(5) فيصل حسون، المصدر السابق، ص88، 92.

(6) فائق بطي، الموسوعة الصحفية العراقية، ص378.

انفصلت كلية الآداب عن كلية العلوم وأصدرت العدد الأول من مجلتها عام 1959[1]. وهناك "مجلة الأستاذ"، التي أصدرتها "كلية التربية" وريثة (دار المعلمين العالية)، وهي الأخرى نشأت في نهاية الخمسينيات إلا أنهما انتظمتا في الستينيات وما بعدها في نشر ما كان يكتبه الأساتذة الجامعيون من بحوث.

وما أن حلت سبعينيات القرن العشرين الا ونجد استقراراً في صدور عدد من المجلات العراقية البارزة مثل مجلة "سومر" و"مجلة المجمع العلمي العراقي"، والمجلات الأكاديمية الصادرة عن الكليات والمعاهد التابعة لجامعة بغداد والموصل والبصرة والسليمانية، والكليات التي نشأت بعد ذلك. ومع ذلك فقد شهدت هذه المدة ظهور مجلتين مهمتين على مستوى التراث والثقافة وهما مجلة "المورد" عام1971[2]، ومجلة "آفاق عربية" عام1975[3]، وكلاهما كانت برعاية وزارة الإعلام آنذاك. واستمر صدور هاتين المجلتين حتى الوقت الحاضر، وكانتا رافداً مهماً لنشر البحوث والمقالات التراثية والثقافية، المتخصصة منها والعامة[4].

وصدر في هذه المدة أيضاً مجلة مهمة في ميدان الدراسات التاريخية، وتلك هي مجلة "المؤرخ العربي"، التي أصدرها اتحاد المؤرخين العرب ببغداد عام1975، وما تزال المجلة مستمرة في الصدور حتى هذا

---

(1) جامعة بغداد، دليل كلية الآداب (1966-1967-1968)، مطبعة الحكومة، بغداد، 1968، ص70.

(2) زاهدة إبراهيم، المصدر السابق، ص514.

(3) المصدر نفسه، ص298.

(4) المصدر نفسه، ص514.

الوقت. ومعلوم أنها مختصة بالبحوث والدراسات التاريخية، في العصور المختلفة، بقلم أساتذة مختصين من العراق والبلاد العربية الأخرى.

وبعد هذه الجولة الواسعة في المجلات العراقية لابد من القول بأن هذه المجلات لا تقل نجاحاً وقوة عن المجلات الأدبية الصادرة في لبنان ومصر، ولهذا أليس من الأحرى أن تعطى المجلات العراقية حقها من الرعاية والدعم، وان ترى البحوث والدراسات الواردة فيها النور بدلاً من أن تبقى في طي النسيان، لتكون أساساً لنهضة أدبية وفكرية جديدة لأبناء هذه البلاد في الحاضر والمستقبل؟.

ثانياً- الحياة الاجتماعية في بغداد في ضوء المجلات العراقية والعربية

ليس غريباً ان تنال دراسة الحياة الاجتماعية في بغداد عناية الباحثين العراقيين والعرب وغيرهم، إذ كتبوا في قضايا اجتماعية متعددة، وقد نُشرت دراساتهم في مجلات عراقية وعربية، إلا أن نظرنا قد وقع على عدد من هذه الدراسات الخاصة بالحياة الاجتماعية في بغداد، وهي الدراسات التي تقرب صورة المجتمع البغدادي في عصوره الإسلامية بواقعه الحديث والمعاصر، وإليها استند الباحث في كتابه هذا.

1- بغداد منذ تأسيسها حتى الغزو المغولي: دراسة في التغيرات السكانية[1]

---

(1) خضر جاسم محمد، بغداد منذ تأسيسها حتى الغزو المغولي: دراسة في التغيرات السكانية، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، العدد الأول، شباط، 1979، ص123-159. ومؤلف هذه الدراسة هو خضر جاسم محمد الدوري (1938-1995)، ولد في بغداد وأكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والإعدادية فيها، وحصل على شهادة البكلوريوس في كلية الآداب، جامعة بغداد. نال شهادة الماجستير في جامعة بنسلفانيا عام1968، والدكتوراه في الجامعة نفسها عن أطروحته المعنونة (الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للعراق في العصر السلجوقي) عام 1970، وله كثير من البحوث والدراسات في مجال اختصاصه. علي نشمي حميدي، الدكتور خضر جاسم محمد الدوري، (1938-1995)، مجلة المؤرخ العربي، (بغداد)، العدد56، 1418هـ/1998م، ص254؛ وله ترجمة موسعة كتبها: إبراهيم خليل أحمد، موسوعة المؤرخين العراقيين المعاصرين، الجزء الأول، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ط1، 1432هـ/ 2011م، ص89-93.

أولاً: ان دراسة التغيرات السكانية لأي قطر أو مدينة تشكل خطوة هامة من أجل تقييم علمي للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لذلك القطر أو تلكم المدينة. وبشكل خاص لفهم الدور الذي يلعبه المواطنون منتجين ومستهلكين. والبحث الحالي محاولة لدراسة التغيرات التي طرأت على سكان بغداد وفق ترتيب زمني مع توضيح العوامل التي كانت وراء تلك التغيرات.

وفي الوقت الذي يفتقد الباحث في تاريخ العصور الوسطى الإسلامية أي نوع من المعلومات الإحصائية أو شبه الإحصائية عن سكان المدينة، سيضطر للاعتماد على تخمينات أو جملة معلومات متناثرة لها علاقة من قريب أو بعيد بالسكان مما توردها المصادر عرضاً. وعلى الرغم من أن بعض الأرقام التي توردها المصادر عرضة للشك القوي فإن الباحث يضطر للأخذ بها، إذ أنها الشيء الوحيد

وغني عن البيان، أن دراسة الأوضاع السكانية في بغداد من الموضوعات الجديرة بالدراسة، لقلة ما كتب عنها، وعدم وجود معلومات إحصائية أو شبه إحصائية عن هذه المدينة، فاضطر الباحث الاعتماد –على حد قوله– على التخمينات أو المعلومات المتناثرة لكتابة بحثه هذا، الدوري، ص125.

ولم تكن مسألة نقص المعلومات عن السكان محصورة بالعهود الإسلامية، وإنما نجد ذلك في فترة السيطرة العثمانية على العراق (1534–1917)، إذ كانت الدولة العثمانية تواجه صعوبات في التوصل إلى أرقام دقيقة لعدد السكان، لأن معظم الناس كانوا يمتنعون عن تسجيل أسمائهم في سجلات الحكومة تهرباً من الضريبة، أو فراراً من الجندية، ومع ذلك فأن السالنامات العثمانية كانت تعطينا أرقاماً بعدد السكان في كل ولاية من ولاياتها العربية. فهي على سبيل المثال، حينما أوردت إحصائية بعدد نفوس (قضاء بغداد) حسب الطوائف الدينية لسنة 1314هـ/ 1896م، أشارت إلى أن عدد السكان المسلمين هو 54880، واليهود 11962 والمسيحيين بأعداد مختلفة حسب طوائفهم ما بين كلدان وأرمن وارمن كاثوليك وغيرهم. ينظر: فاضل بيات، بغداد من خلال وثائق الأرشيف العثماني، استانبول، 2008م، ص98.

المذكور ومع ذلك كله، فإن المعلومات المتفرقة الأخرى التي توردها المصادر تجعل الباحث مطمئناً بعض الشيء في ركونه لتلك الأرقام. وهنا، لابد لي من أن أشير بإيجاز إلى بعض المعلومات التي تفيد الباحث كمؤشرات تكشف عن واقع التغيرات السكانية لمدينة بغداد، وهي:

1- اتساع رقعة مدينة بغداد وتطور تخطيطها الطوبوغرافي: فالأخبار عن اتساع وزيادة عدد المحلات السكنية، وازدياد أعداد أو مساحات المساجد خصوصاً الجامعة منها إضافة إلى المنشآت الأخرى كالمدارس والربط والحمامات والمستشفيات كل ذلك مؤشرات واضحة لنمو السكان وكثافتهم بينما تقلص مساحاتها أو أعدادها مؤشر عكسي يوضح تدهور السكان.

وهنا، لابد من ان نضيف ان ظاهرة تعدد الربط وانتشارها داخل بغداد أو خارجها يعكس تزايداً في نسبة أعداد غير المتزوجين، وذلك بسبب الميل إلى الزهد وترك الزواج. ولكن في نفس الوقت علينا أن نتذكر أيضاً أن هذه الربط قد نافست المساجد الجامعة في صلاة الجمع حيث انفصل عدد ممن كان يصلي الجمع في تلك المساجد ليصليها في الربط، ولذلك علينا أن نكون حذرين من أن نعتبر -بشكل مطلق ودائم- ظاهرة قلة عدد من يحضر صلاة الجمعة في المساجد الجامعة دليلاً على قلة السكان.

2- الانشطار الإدارية في المدينة الذي يمكن ان يلمس من خلال ملاحظة انشطار دواوين الخلافة أو من خلال تعدد القضاة الحاكمين في المدينة، ان رصد هذه الظواهر يمكن ان يعكس لنا نمواً سكانياً والعكس صحيح أيضاً.

3- ان المعلومات التي تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية العامة كسوء المواسم الزراعية وفداحة الضرائب وسوء جبايتها أو تحول مجاري الأنهار وجفاف الأرض أو هجمات القبائل البدوية أو الاضطرابات السياسية العامة والحروب، كلها عوامل تشير إلى إمكان قيام هجرة من الريف إلى المدينة مما يسبب زيادة مفاجئة غير طبيعية في سكان بغداد، هذه الزيادة غالباً ما تكون مؤقتة إذ يعود بعد ذلك معظم القادمين من الريف إلى مناطقهم رغبة أو رهبة. هذا، وفي نفس الوقت ان هذه الظاهرة (انتقال سكان الريف إلى المدن) وفي الظروف الاعتيادية كانت مستمرة بسبب ارتفاع نسبة الخصوبة السكانية في الريف العراقي.

4- لو توفرت لنا أشجار النسب وسجلات القضاة والقسام الشرعي وبعض الوثائق الخاصة بالوفيات وسجلات ديوان المواريث الحشرية لكنا في وضع يساعدنا في رسم صورة أدق ليس فقط عن معدلات الزيادة في السكان، بل كذلك عن معدل ما تحتويه العائلة الواحدة من أفراد، بالإضافة إلى الحالة الزوجية وتعدد الزوجات ونسبة الخصوبة.

5- ان بعض الوثائق المالية والعسكرية مهمة في كشف واقع التغيرات السكانية ونخص بالذكر منها جباية الضرائب (الجزية، الخراج، المكوس). إذ ان الأولى تعطينا تقديراً عن أعداد أهل الذمة. بينما الأخيرتان تتناولان قطاعات معينة من سكان المدينة، كالصناع والتجار.

الا أن المعلومات المستنتجة من هذه الوثائق تقريبية، فنحن لا نعلم، مثلاً، عدد من أعفى من أهل الذمة أو المسلمين من تلك الضرائب كالشيوخ والأطفال والنساء. كما لا نعلم مدى صدق ودقة وفاعلية موظفي الضرائب بحيث لم يغفل أو يتغافل عن أحد، أما عن الوثائق العسكرية فإن تعداد الجيوش (عرض الجند) تكون مفيدة في معرفة

أعداد السكان إذا ما استطعنا ان نحدد مقدار نسبة المجندين إلى مجموع السكان، إضافة إلى ضرورة معرفة مدى فاعلية مؤسسات التجنيد آنذاك.

6- يمكن أن نستفيد من بعض الإشارات حول ارتفاع أسعار الأراضي السكنية في المدينة إذ ان ارتفاعها يعكس ازدياد عدد السكان وكثافتهم خصوصاً، إذا رافق ذلك الارتفاع انخفاض في مستوى أجور الأيدي العاملة. هذا، وعلينا ان لا ننسى ان ارتفاع أجور الأيدي العاملة خصوصاً بعد وباء أو مجاعة يشير إلى انخفاض في السكان.

7- ان ارتفاع أسعار المواد الغذائية في ظروف طبيعية، أعني في مواسم زراعية، يشير إلى زيادة في السكان والعكس صحيح، أيضاً.

ثانياً: لقد وردت في القرآن الكريم إشارات متعددة عن الإحصاء والعد[1] بل أننا نجد أن الرسول (ص) أمر بعض أصحابه أن يكتبوا له ((من تلفظ بالإسلام من الناس)) في المدينة، فكتبوا له ((الفا وخمس مئة رجل))[2]. وعلى الرغم من هذه المحاولة الإحصائية المبكرة فإن مصادرنا التاريخية لا تزودنا بمعلومات جيدة لفهم طبيعة التغيرات السكانية، خصوصاً لبغداد مركز الخلافة. ويبدو أنه بات من المستحيل علينا ان نعثر على إحصاءات سكانية لبغداد في عصورها الوسطى، بل حتى على شبه إحصاءات[3]، لذلك لم استطع خلال بحثي في المصادر

---

(1) القرآن، سورة الجن: 28، الكهف: 49، مريم: 84، 94، النبأ: 29، الطلاق: 1.

(2) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج2، ص35؛ صبحي الصالح: علوم الحديث، ص17-18..

(3) يجدر بنا ان نشير إلى أن العثور على سجلات نقابة العلويين والعباسيين وسجلات القضاة سيساعد كثيراً في رسم صورة أوضح لسكان بغداد.

المختلفة ان أجمع أكثر من عدد من الأرقام تعود لشتى المواضيع التي ذكرت عرضاً من قبل المؤرخين والتي تخضع للشك. فابن خلدون مثلاً يأخذ على المؤرخين المسلمين وقوعهم في الوهم ((والغلط في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات، إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولابد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد))[1] إضافة إلى ذلك نجد ان ما يذكر من أرقام حتى مطلع القرن العشرين يتناول، عادة، اعداد الذكور بالدرجة الأولى. ففي عام **1904** مثلاً أراد والي بغداد عبد الوهاب باشا ان يسجل عدد النسوة في العراق ويعطي لكل واحدة منهن تذكرة عثمانية (دفتر نفوس) لاسيما مدينة بغداد والبصرة والموصل... ولما شاع الأمر بين جموع أهالي بغداد قامت قيامتهم..(لأنهم اعتبروا أن) الأمر الذي أقدم عليه الوالي يمس شرفهم ويحط من قدرهم وكرامتهم فخرج الرجال من أهالي باب الشيخ والصدرية ورأس الساقية وفضوة عرب يتقدمهم السيد أحمد أفندي (ابن علي الكيلاني) النقيب بجموع محتشدة.. كما خرج أهل محلات بني سعد وقنبر علي والفضل يتقدمهم رؤساء تلك المحلات معلنين السخط والاستياء تتقدمهم الطبول والدمامات والأبواق مسلحين بالسيوف والقامات والخناجر والبنادق والمسدسات بأهازيج شعبية وهوسات بغدادية حتى جر الأمر إلى الاصطدام بين جموع الأهلين والجاندرمة.(ثم شارك) أهالي جانب الكرخ بطبولهم ودماماتهم وأهازيجهم يتقدمهم رؤساء محلاتهم كما ان بعض النسوة من جميع تلك المحلات خرجن بمظاهرة أيضاً. فقصد الجميع سراي الوالي ولم يخرجوا إلا بعد أن قرر الوالي تأجيل النظر في أمر التسجيل[2].

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، ط2، ج1، ص362-363.

(2) الدروبي: البغداديون، ص15-16.

ثالثاً: كانت بغداد قبل اختيار المنصور لها مستوطناً يقطنه زراع المنطقة، وقبل البدء بالبناء تذكر الروايات ان المنصور واحضر ((المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين. وأحضر البنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين. وكتب إلى كل بلد في حمل من فيه يفهم شيئاً من البناء فحضره مائة ألف من اصناف المهن والصناعات[1]، وقد أقطع المنصور ((مواليه وقواده القطائع داخل المدينة وأخذهم بالبناء واقطع آخرين على أبواب المدينة واقطع الجند أرياض المدينة، واقطع أهل بيته الأطراف، واقطع ابنه المهدي وجماعة من أهل بيته ومواليه وقواده))[2]. ولو أخذنا بنظر الاعتبار عدد جيوش المنصور التي دخلت بغداد واقطعها ارياض المدينة واضفنا اليهم أفراد الجهاز الإداري مع المئة الف من أصحاب المهن الذين اشتركوا بالبناء، لو أخذنا بكل ذلك فلن نكون مبالغين كثيراً إذا ما قدرنا سكان بغداد عقب استقرار المنصور بها بنصف مليون نسمة[3].

من المؤكد ان سكان بغداد تزايدوا بشكل سريع بحيث اكتضت بهم المدينة الأمر الذي دفع المنصور إلى الشروع في وقت مبكر جداً ببناء جزء متمم لمدينته على الضفة اليسرى من دجلة أعني الرصافة، ويبدو أن الشروع ببناء هذا الجزء كان في عام 151هـ وأكمل في عام 770/154 أو 775/159[4].

---

(1) اليعقوبي: البلدان، ص238.

(2) اليعقوبي: التاريخ، ج2، ص374.

(3) أنظر: وصف اليعقوبي لربض حرب بن عبد الله البلخي، البلدان، ص248.

(4) الخطيب: تاريخ بغداد، ج1، ص82.

لقد أصبح هذا الجزء المتمم معسكراً للمهدي بن المنصور ولعساكره من الخراسانية ونما بسرعة إذ تنافس الناس في النزول على المهدي لمحبتهم له ولاتساعه عليهم بالأموال والعطايا[1]. إلا أن ضيق مدينة المنصور دفع بمؤسسها ومن أعقبه إلى الخروج بشكل مؤقت أو دائم خارج أسوارها فبنيت لذلك القصور الجديدة كقصر الخلد وقصر القرار على شاطيء دجلة[2].

ويمكننا أن نتصور مقدار النمو العظيم والسريع لسكان بغداد إذا علمنا أن إنشاء مثل هذه الحاضرة كان كفيلاً بامتصاص سكان المدن المجاورة كالمدائن والأنبار والكوفة والبصرة[3] فقد سكنها عدد ((من أصناف الناس وأهل الأمصار والكور وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم فليس من أهل بلد إلا ولهم فيها محلة ومتجر ومتصرف فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا))[4]. من أجل تخفيف شدة الازدحام أو لإبعاد ما قد ينجم عن تجمع العمال وأصحاب المهن من أخطار، أمر الخليفة المنصور في عام 773/157 بنقل ((الأسواق من مدينة السلام إلى باب الكرخ وباب المحول))[5]، ويبدو أن الازدحام استمر في بغداد خصوصاً أيام الجمع حيث يدخل الصناع. ولهذا فقد أمر المنصور ((أن يبني لأهل الأسواق

---

(1) اليعقوبي: البلدان، ص251.

(2) الخطيب: تاريخ بغداد، ج1، ص75.

(3) يقول اليعقوبي: عندما بنيت بغداد انتقل إليها من الكوفة والبصرة "وجوههم وجلتهم ومياسير تجارهم"، البلدان، ص235؛ وأنظر: نفس المصدر، ص251.

(4) نفس المصدر: ص233-234.

(5) المطهر بن طاهر المقدسي: البدء والتاريخ، ج6، ص87؛ الخطيب: تاريخ بغداد، ج1، ص79.

مسـجداً يجتمعـون فيـه يـوم الجمعـة ولا يـدخلون المدينـة ويفـرد لهم ذلك))[1].

وواضـح أن هـذا النمـو لم يكـن طبيعيـاً بـل جـاء نتيجـة لهجـرة اختيارية أو قسرية قام بها، كما رأينا، أهل المهن والحرف والتجارات إضافة إلى الجند الذين كانوا يردون بأعداد كبيرة مع قوادهم.

رابعاً: ان السياسة العامة التي انتهجها الخليفة المهدي، والرخاء الاقتصادي الذي شهدته بغداد آنذاك إضافة إلى ما تركه المنصور من خزائن الأموال العظيمة لابنه المهدي سهل على السلطة تنفيذ بعض المشاريع العامة وتقديم خدمات صحية جيدة مما رفع المستوى المادي والصحي للسكان[2]. وهـذا بـدوره أثـر بالتأكيد في نمـوهم وزيـادة أعدادهم، ويمكن ان نبين أثر العوامل السياسية في زيادة سكان بغداد- ولم بشكل غير طبيعي- إذا ما علمنا بأن المهدي في سنة 776/160 استقدم خمسمائة من الأنصار ليكونوا حرساً له في العراق[3] وكذلك الأمر بالنسبة لبقية الخلفاء وموقفهم من الأجناس الأخرى كالفرس والأتراك والخراسانيين.

ولو استثنينا وباء عام 785/169 الذي انتهى بموت كثير[4] فإن سكان بغداد استمروا في نموهم الطبيعي ويمكن أن نلمس درجة هذا النمو من خلال مظاهر التقدم الحضاري العام الذي شهدته بغداد في

---

(1) الخطيب: تاريخ بغداد، ج1، ص81.
(2) ان المهدي بنى "دوراً للمرضى وأجرى على العميان والمجذومين والضعفى المظهر بن طاهر المقدسي: البدء والتاريخ، ج6، ص96.
(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص49.
(4) اليعقوبي: التاريخ، ج2، ص401.

عهد هارون الرشيد (170-193/786-808) وخصوصاً من خلال التوسع الخططي لهذه المدينة، حيث نمت أحياء سكنية كبيرة في جانبي بغداد وزاد معها عدد المساجد الجامعة والحمامات. ان الازدحام الشديد لسكان بغداد كان يدفع الخليفة للخروج خارج بغداد للتنزه والاستجمام فكان ((إذا ضجر من المقام ببغداد)) يذهب للتنزه ((بالقاطول، وقد بنى هناك مدينة))[1] وفي نفس الوقت نجد أن البرامكة، بدافع الترف والابتعاد عن ازدحام مدينة المنصور وجوها الخانق، بنوا القصور في الجانب الشرقي من بغداد، كالقصر الذي بناه جعفر البرمكي أصبح يعرف فيما بعد بالقصر الحسني والذي اعتبر المركز الأساس لدار الخلافة أو ما أطلق عليه فيما بعد بغداد الشرقية[2]، وإذا كان ازدحام بغداد الشديد قد أثر في استقرار الخليفة، فإن الاضطرابات السياسية كنكبة البرامكة، وانتفاضات أهل الشام هي الأخرى أثرت في استقراره أيضاً فبعد أن تخلص من البرامكة لم يبق ببغداد بل ((مضى من فوره إلى الرقة)) ويبرر الرشيد فراقه لبغداد أيضاً برغبته في ضرب بقايا بني أمية في الشام وضرب المتلصصة ومخيفي السبيل ((ولولا ذلك) يقول الرشيد ((ما فارقت بغداد))[3].

خامساً: ان هذا النمو السكاني الذي شهدته بغداد أصيب بضربة قوية من جراء الصراع بين الأمين والمأمون حيث احرقت بسبب الحروب

---

(1) اطبري: ج9، ص17.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان، الطبعة الأوربية (1866-1887)، ج10، ص806-809.

(3) الأثير: الكامل، ج6، ص192، ويذكر اليعقوبي ان الرشيد أقام بالرقة حتى بناها وكان مقامه بها سنة 186، راجع اليعقوبي: التاريخ، ج2، ص415.

محال عديدة من بغداد ففي عام 812/197 أمر الأمين ((باحراق الحربية، فرميب بالنفط والنيران وقتل بها خلق كثير)) والح الأمين واتباعه ((في إحراق الدور والدروب والرمي بالمجانيق، وفعل طاهر (بن الحسين) مثل ذلك فأرسل إلى أهل الأرباض من طريق الأنبار وباب الكوفة وما يليها، فكلما أجابه أهل ناحية خندق عليهم ومن أبى أجابته قاتله وأحرق منزله، ووحشت بغداد وخربت... وسمي طاهر الأرباض التي خالفه أهلها، ومدينة المنصور، وأسواق الكرخ والخلد، دار النكث... (وبعد حروب أمر طاهر) بالهدم والإحراق، فهدم دور من خالفه من بين دجلة ودار الرقيق، وباب الشام، وباب الكوفة إلى الصراة وربض حميد، ونهر كرخايا. فكان أصحابه إذا هدموا داراً أخذ أصحاب الأمين أبوابها وسقوفها فيكونوا أشد على أهلها))[1].

ان موت كثير من أهالي بغداد بسبب تلك الحروب لابد أن قلل من تعدادهم بل ان هذه الحروب والحصار الذي فرضه طاهر بن الحسين على بغداد دفع بالكثير من السكان إلى هجرة بغداد حيث ((كان أحدهم إذا خرج أمّن على ماله ونفسه))[2] فالاضطراب السياسي والاقتصادي لابد أن سبّب المجاعات والأمراض التي ربما عصفت بجزء آخر من السكان.

سادساً: هدأت الحالة بدخول المأمون مدينة السلام في شهر ربيع الأول سنة 819/204[3] فعاد إلى بغداد نشاطها الاقتصادي والثقافي فذكر عن المأمون أنه ((جالس المتكلمين والفقهاء والأدباء، وأقدمهم من

---

(1) الأثير: الكامل، ج6، ص271-275، الطبري (دار المعارف)، ج8، ص446-448.
(2) الأثير: الكامل، ج6، ص272.
(3) اليعقوبي: التاريخ، ج2، ص453.

البلدان وأجرى لهم الأرزاق[1] وهذا دليل على حدوث هجرة مؤقتة أو دائمية من بين رجال العلم وطلابه إلى بغداد. ومما يشير إلى الزيادة في السكان هي القصور العديدة التي بنيت في هذه الفترة خارج بغداد للابتعاد عن المناطق المزدحمة والخربة وعن الأجواء الخانقة ببغداد[2] فقد ذكر أن المأمون كان يخرج إلى موضع الشماسية ((فيقم به الأيام والشهور))[3] كذلك ((كان الحسن ابن سهل والفضل قبله لا ينزلان من المنازل الا أطراف البلدان فقيل للحسن بن سهل في ذلك، فقال: الأطراف منازل الأشراف))[4].

ان النمو الاقتصادي الذي شهده العراق وخصوصاً العاصمة بغداد شجع أصحاب الأموال من التجار وكبار الملاكين ان يستثمروا رؤوس أموالهم في مشاريع اقتصادية كبيرة مستفيدين من الاعداد الهائلة من العبيد خصوصاً في أحياء الأراضي في جنوب العراق أو للخدمة في القصور. ان مجيء هؤلاء العبيد كان عاملاً مساعداً في ازدياد سكان العراق فيذكر لنا الطبري ان عدد الأسرى من الزط في سنة 834/219 كان سبعة وعشرين ألفاً بين رجل وامرأة وصبي يدخل بغداد عام 835/220 ومن ثم نقلوا إلى الثغور[5]. كما ان الخليفة المعتصم نفسه كان قد أولع باستخدام الأتراك في جيشه وبلاطه ويروى أنه كان له منهم في

---

(1) اليعقوبي: مشاكلة الناس زمانهم، ص28.

(2) لقد أورد الجاحظ ان أهل بغداد كانوا ((يسجرون تنانيرهم بالكساحات التي فيها من كل شيء وبالابعاز والاخثاء وكذلك مواقد الكيران))، صالح أحمد العلي: الجاحظ وكتابه في البلدان، مجلة كلية الآداب، بغداد (العدد12، 1979)، ص502.

(3) اليعقوبي: البلدان، ص256.

(4) أحمد بن طاهر طيفور، ذيل تاريخ بغداد، (المثنى، 1978)، ص117.

(5) الطبري، ج6، ص10؛ الأثير، الكامل، ج6، ص446.

أيام المأمون ((زهاء ثلاثة آلاف غلام.. فلما أفضت إليه الخلافة الح في طلبهم واشترى من كان في بغداد من رقيق الناس))[1]، وهذا يعني ان هناك نمواً جديداً - ولو غير طبيعي- طرأ على سكان بغداد.

سابعاً: ان هذا النمو لم يستمر بل كان الأتراك كارثة على سكان بغداد ومثاراً للفتن مما اضطر المعتصم لترك بغداد نهائياً إلى سامراء في سنة 837/223 وعقب ذلك ((هم الناس بالانتقال عن بغداد وان تخرب))[2] ويؤكد اليعقوبي ذلك قائلاً: ((وانتقل الوجوه والجلة والقواد وأهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم إلى سر من رأى))[3] وبهذا تغيرت بغداد فعلاً بذهاب الخلافة عنها إذ وصفها الشاعر المعاصر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي قائلاً:

لقد أقام على بغداد ناعيها	فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة	والنار تطفأ حسنا في نواحيها
ترجى لها عودة في الدهر صالحة	فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التي ولت شبيبتها	وبان عنها جمال كان يحضيها[4]

(1) اليعقوبي: البلدان، ص255-256، وتذكر المصادر ان المتوكل ((ضم إلى وزيره عبد الله بن يحيى بن خاقان نحوا من اثني عشر الفاً من العرب والصعاليك وغيرهم برسم المعتز)). عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص48.

(2) التوخي: نشوار المحاضرة، ج1، ص101-102.

(3) اليعقوبي: البلدان، ص254.

(4) ابن بطوطة: الرحلة، ج2، ص100-101.

لقد تدهورت بغداد أكثر عند دخول الخليفة المستعين إليها سنة 865/251 حيث دار صراع بين أهل بغداد والجند التركي أثناء الفتنة بين المستعين والمعتز أودت بحياة الكثير من السكان قتلاً أو موتاً جوعاً، بسبب ارتفاع الأسعار[1]. ففي أحدى الصدامات عام 868/255 تشير المصادر إلى أن العامة من أهل بغداد وكانوا ((أكثر من مائة ألف نفس))[2] عبروا من الجانب الشرقي إلى الغربي وحاربوا الأتراك. فلو أخذنا بذلك وافترضنا ان كل شخص من هؤلاء ينتمي إلى عائلة مكونة من خمسة أفراد -وهو متوسط عدد أفراد العائلة الواحدة- لبلغ سكان بغداد وهي في ظروف حالكة أكثر من نصف مليون نسمة.

في مثل تلك الظروف المضطربة تبرز ثورة الزنج ومن ثم ثورة القرامطة فتجهز الجيوش من بغداد وسامراء إلى جهات جنوب العراق موطن الثورة، وهذا معناه حدوث تناقص مؤقت في أعداد السكان قابله تزايد غير طبيعي، إذ ان هذه الثورات أدت إلى هجرة عدد من سكان المناطق التي وقعت تحت سيطرة الثوار كالنعمانية وجرجرايا وبقية أراضي السواد إلى بغداد[3].

على أية حال فأن المصادر تشير إلى أن عدد من قتل في هذه الحروب التي استمرت ما بين 255-270/868-883 كان مليوناً وخمسمائة ألف رجل[4] هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد رافق تلك

---

(1) اليعقوبي: التاريخ، ج2، ص497.

(2) الطبري: ج9، ص402؛ ابن الأثير: الكامل، ج7، ص202.

(3) الأثير: الكامل، ج7، ص237، 252، 322؛ الجوزي: المنتظم، ج5، ص49-50. ومما تجدر ملاحظته هنا ان أبا أحمد الموفق أمر هؤلاء المهاجرين ((بالرجوع إلى أوطانهم)) بعد أن قضى على صاحب الزنج سنة 270، أنظر: المنتظم، ج5، ص70.

(4) نفس المصدر، ج5، ص75.

الحروب أوبئة وطواعين كالذي حدث عام 258/ 871 ((فهلك... خلق كثير ببغداد، وواسط وسامراء وغيرها))[1] ((وكان الرجل يخرج من منزله فيموت قبل أن ينصرف، فيقال: أنه مات ببغداد في يوم واحد أثنا عشر ألف إنسان))[2]. وعلى حد قول ابن الجوزي فإن الوباء كان قد ظهر بالأهواز ثم انتشر في العراق ((وكان كل يوم يموت ببغداد خمسمائة إلى ستمائة))[3] إلا أن المصدر لا يشير إلى المدة التي استمر فيها الوباء يعصف بأهل بغداد.

وعلى الرغم من أن الظروف السابقة لم تكن مواتية لنمو طبيعي في السكان فإننا، مع ذلك، نستطيع ان نتلمس كثافة سكان بعض إحياء بغداد، ففي سنة 270/ 883 انبثق نهر عيسى عند منطقة الياسرية فاغرق محلتين من محال بغداد هما: ((الدباغين وأصحاب الساج)) ويكشف لنا التقرير عن أن الدور التي غرقت في هاتين المحلتين كانت ((سبعة آلاف دار ونحوها))[4] ترى كيف كان الأمر بالنسبة لعدد دور بقية محال بغداد؟ هذا، ومن المحتمل ان الغرق لم يشمل جميع دور هاتين المحلتين.

ويشير الطبري إلى أن مرتزقة أبي أحمد الموفق أحصوا في عام 278/ 891 فكانوا ((مائة ألف))[5]، وبعد عودة الخليفة المعتمد من سامراء إلى بغداد سنة 279 انتقل معه الكثير من الجند والحاشية والموظفين مما زاد في عدد سكان بغداد، ويمكن أن نتبين أيضاً مدى

---

(1) الأثير: الكامل، ج7، ص256؛ الطبري: التاريخ، (دار المعارف)، ج9، ص495-501.
(2) اليعقوبي: التاريخ، ج2، ص510.
(3) الجوزي: المنتظم، ج5، ص8.
(4) الطبري: (دار المعأرف)، ج9، ص667.
(5) نفس المصدر، ج1، ص20.

اكتظاظ سكان بغداد من خلال الزيادة التي استحدثها الخليفة المعتضد في جامع المنصور، ففي سنة 893/280 ازدادت مساحته إلى الضعف تقريباً وذلك بسبب ضيق المسجد بالمصلين[1]. هذا، وان نزول الخليفة في القصر الحسني بعد تعميره دفع بالكثير من الناس للبناء هناك فكثرت العمارات في الجانب الشرقي من بغداد[2].

ولذلك، احتيج لبناء مسجد جامع آخر حيث ((كان الناس يصلون الجمعة في الدار وليس هناك رسم للمسجد إنما يؤذن للناس في الدخول وقت الصلاة ويخرجون عند انقضائها. فلما استخلف المستكفي (في سنة 289) نزل القصر وأمر بهدم المطامير (التي في الدار) وان يجعل موضعها مسجداً جامعاً فاستقرت الصلاة في الجوامع الثلاثة (جامع المنصور، جامع المهدي، جامع القصر) إلى وقت خلافة المقتفي))[3].

ثامناً: يبدو ان النمو السكاني استمر طبيعياً حتى أواخر القرن الثالث الهجري إذ لا تذكر لنا المصادر أي حدث ذا أثر على السكان. إلا أن التبدل بدأ في عام 912/300 حيث ((كثرت الأمراض والعلل والعفن ببغداد في الناس))[4] ثم عادت الأوبئة في عام 301، ووصفت على أنها كانت طاعوناً قتالاً وأمراضاً دموية ففشا الموت في أهل بغداد وكان أكثر

---

(1) الجوزي، المنتظم، ج5، ص143.

(2) الجوزي، مناقب بغداد، ص17.

(3) المصدر السابق، ج6، ص33؛ جمال الدين الأزدي، أخبار الدول، مخطوطة المتحف البريطاني، ورقة 132ب.

(4) الطبري، (دار المعارف)، ج10، ص146؛ الجوزي، المنتظم، ج6، ص115؛ الأثير، الكامل، ج8، ص74.

ذلك في أهل محلة الحربية حيث أغلقت بها دور كثيرة لفناء أهلها، كذلك فشا المرض بين أهل الأرباض[1].

ويظهر أن الخسائر كانت فادحة مما دفعت الوزير علي بن عيسى إلى أن يبني في سنة 302 مستشفى (مارستانا) في محلة الحربية تلك المحلة التي أصيبت بأضرار أكثر من غيرها[2]. وهذا يجعل عدد المارستانات ببغداد في سنة 916/304 خمسة[3]. ثم تلا ذلك في عام 908/603 بناء مارستانين آخرين: أحدهما بسوق يحيى على دجلة، والآخر بباب الشام. وتولى أمر الإشراف عليهما الطبيب المشهور سنان بن ثابت[4]. كما نجد ذكراً لمارستان جديد ينشأ سنة 923/311[5]، ومن المؤكد ان هذه المارستانات لعبت دوراً في رفع المستوى الصحي لسكان بغداد ومن ثم تقليل عدد الوفيات ورافق ذلك فترة استقرار نسبي خصوصاً منذ خلافة المقتدر الثانية مما أحدث أثراً في النمو السكاني، وكدليل على ذلك الإشارات الكثيرة إلى تعداد جيوش الخلافة من فرسان ورجالة[6] كذلك اتساع رقعة بغداد، ففي هذا الوقت ترك لنا الاصطخري وصفاً جيداً لبغداد خصوصاً الجزء الشرقي منها الذي

---

(1) الطبري، (دار المعارف)، ج10، ص147، 148؛ الجوزي، المنتظم، ج6، ص121، 123؛ الأثير، الكامل، ج8، ص85.

(2) الجوزي، المنتظم، ج6، ص128.

(3) نفس المصدر، ج6، ص139.

(4) نفس المصدر، ج6، ص146؛ الأثير، الكامل، ج8، ص115.

(5) الجوزي، المنتظم، ج6، ص174.

(6) ابن الساعي، مختصر أخبار الخلفاء، ص75؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج1، ص180؛ التنوخي، نشوار المحاضرة، ج8، ص183؛ الجوزي، المنتظم، ج6، ص222 كذلك ص70.

كان يمتد من الشماسية شمالاً حتى كلواذا جنوباً، أما عن امتداد بغداد بجانبيها عرضاً فقد كانت خمسة أميال[1] وعلى الرغم من اتساع رقعة بغداد فأن كثافة السكان في هذا الوقت أدت إلى ارتفاع أسعار الأراضي، فيذكر أنه في حدود هذا الوقت ((كانت الذراع على دجلة في المواضع الرذلة تباع بدينار عيناً))[2].

تاسعاً: ان هذا النمو انتهى بنهاية العقد الثاني من القرن الرابع الهجري إذ تعرض سكان بغداد منذ عام **932/320** لمختلف الشدائد التي عصفت باعداد كبيرة منهم. ففي ربيع ذلك العام ((كثرت الأمراض الحادة منذ شباط وكثر الموت وعرض لأكثر الناس ذرب))[3]، ثم جاء طاعون عام **935/324** وكان نتيجة لغلاء السعر ((فجاع الناس وعدم الخبز خمسة أيام ووقع الطاعون واقترب بذلك الموت وخص ذلك الضعفاء وكان يجعل على النعش اثنان وربما كان بينهما صبي وربما بقي الموتى على الطريق على حالهم...))[4] فأفنى هذا أهل بغداد وما سواها[5]. ويفهم من نص أورده الجوزي ان ثلثي الناس قد ماتوا في حدود ذلك العام[6] ثم تلا في عام **325** أوبئة أخرى أصابت البقر والناس[7] ويزداد الأمر سوءاً بسبب فيضان عام **839/328** الذي دمر

---

(1) الاصطخري، مسالك الممالك، تحقيق دي خوي، ص83.
(2) الصابي، الوزراء، ص312.
(3) الجوزي، المنتظم، ج6، ص240.
(4) نفس المصدر، ج6، ص283.
(5) الصولي، أخبار الراضي والمتقي، ص83.
(6) الجوزي، المنتظم، ج6، ص287.
(7) نفس المصدر، ج6، ص293.

البيوت والمزارع والحيوانات[1] أعقبه في عام 329 تأخر شديد في سقوط الأمطار مما سبب شدة في ((الغلاء والوباء، وكثر الموت حتى كان يدفن الجماعة في القبر الواحد))[2]. في هذه الظروف كان البريدي وجيوشه من الديلم يتجه صوب بغداد مما دفع أرباب النعم والأموال ((إلى أن يهموا)) بالانتقال من بغداد خوفاً من البريدي وظلمه وتهوره))[3] وعند دخولهم بغداد في سنة 840/329 نزلوا في دور الناس مما كان مثاراً للفتن والقتل بين الطرفين[4] ان هذه الأوضاع دفعت بالمزيد من الناس إلى الخروج من بغداد، ففي عام 942/331 ((خرج خلق كثير من تجار بغداد مع الحاج للانتقال إلى الشام ومصر لاتصال الفتن ببغداد وتواتر المحن عليهم من السلطان))[5]. وعلى الرغم من أن طرق المواصلات كانت منقطعة بسبب الاضطرابات فلقد ((خرج الناس عن بغداد هاربين إلى كل وجه... ولو امنوا لخرج أضعاف من خرج))[6]. ان هذه الهجرة والأوضاع العامة المضطربة قد شلت الوضع الاقتصادي فارتفعت الأسعار ارتفاعاً شديداً ((ومات الناس جوعاً ووقع فيهم الوباء فكانوا يبقون على الطريق أياماً لا يدفنون حتى أكلت الكلاب بعضهم))[7] ويزداد الأمر سوءاً بسبب سقوط الأمطار الشديد لعام

---

(1) نفس المصدر، ج6، ص300.

(2) نفس المصدر، ج6، ص318؛ الأثير، الكامل، ج8، ص377.

(3) الأثير، الكامل، ج8، ص373.

(4) الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ج1، ص124؛ الجوزي، المنظم، ج6، ص318؛ الأثير، الكامل، ج8، ص375.

(5) الجوزي، المنتظم، ج6، ص331؛ الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ج1، ص135.

(6) الصولي، أخبار الراضي، ص234.

(7) نفس المصدر، ص236.

943/332 حيث ((..تساقطت منازل الناس ومات خلق كثير تحت الهدم)) ورافق ذلك سقوط ((الجليد الذي أحرق أكثر الزرع)) مما رفع الأسعار أكثر[1]. ان قلة السكان قد تتضح من خلال توقف الكثير من المصالح حيث ((تعطل كثير من الحمامات والمساجد والأسواق لقلة الناس، وتعطل كثير من أتانين الاجر لقلة البناء، ومن يضطر إليه اجتزأ بالانقاض))[2].

في مثل هذه الأوضاع المتردية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً كان من المعتاد ان يعوض الأمراء وقواد الجيش خسائرهم عن طريق المصادرات والاستيفاءات اللاشرعية. ففي عام 332هـ طالب أبو جعفر بن شيرازاد ((التجار بأموال فاستتر أكثرهم))[3] ويظهر ان الاستقصاء والملاحقة استمرا على ((العمال والكتاب والتجار وغيرهم))[4] لذلك ((تهارب الناس وخرج عن بغداد جماعة من مياسير اليهود والمجوس إلى الشام))[5]. ان استمرار الأوضاع المضطربة والمصادرات زادت من شدة الضائقة المالية مما دفع السلطات سنة 945/334 إلى زيادة الضرائب أكثر، وأدى إلى مزيد من الهجرة ((حتى تهارب التجار عن بغداد))[6] ومن المحتمل ان هذه الأوضاع كانت قد شجعت البويهيين لأن يدخلوا بغداد في عام334 وربما كان للتجار والأفراد العاديين والرسميين

---

(1) الجوزي، المنتظم، ج6، ص335.
(2) الأثير، الكامل، ج8، ص416.
(3) الصولي، أخبار الراضي، ص250.
(4) الأثير، الكامل، ج8، ص448-449.
(5) المصدر السابق، ص251.
(6) مكسويه، تجارب الأمم، ج2، ص83؛ الأثير، الكامل، ج8، ص448-449.

الفارين من بغداد دور في دفع معز الدولة البويهي لدخول بغداد أملاً في إنقاذ الوضع المتردي.

عاشراً: ان عام دخول البويهيين لبغداد وما رافقه وأعقبه من اضطرابات يمثل أقصى التدهور في وضع السكان لهذه المدينة، فعندما استولى معز الدولة على الجانب الشرقي من بغداد ((نهب الديلم باب الطاق وسوق يحيى وقتل من العامة جماعة وخرج نساء وصبيان من بغداد هاربين في طريق عكبرا ... وتلف في طريق عكبرا من الحر والعطش خلق كثير لأنهم خرجوا مشاة حفاة)) وذكر أن عدد الموتى (لا يحصون)) كما هرب من بغداد جماعة أخرى مع ناصر الدولة بن حمدان إلى الموصل[1]. هذا، ولا ننسى ان الاعداد الغفيرة من الجند البويهي المكونين من (الديلم والجيل والأتراك))[2] سبب زيادة مفاجئة في السكان كمستهلكين مما أدى إلى قلة المواد الغذائية وارتفاع أسعارها ومن ثم المجاعة فالموت بالأوبئة، ففي سنة دخولهم بغداد (334) يقول ابن مسكويه: ((افرط الغلاء حتى عدم الخبز البتة وأكل الناس الموتى والحشيش والميتة والجيف... ومات أكثرهم ومن بقي كان في صورة الموتى. وكان الرجل والمرأة والصبي يقف على ظهر الطريق وهو تالف ضرا فيصيح: الجوع الجوع، إلى أن يسقط ويموت وكان الإنسان إذا وجد اليسير من الخبز ستره تحت ثيابه والا استلب منه. ولكثرة الموتى وانه لم يكن يلحق دفنهم كانت الكلاب تأكل لحومهم، وخرج الضعفى إلى البصرة خروجاً مفرطاً متتابعين لأكل التمر فتلف أكثرهم في الطريق ومن وصل منهم مات بعد مدة ووجدت عدة نساء كانت الواحدة تقتل

---

(1) الجوزي، المنتظم، ج6، ص349.

(2) مسكويه، تجارب، ج2، ص85؛ الجوزي، المنتظم، ج6، ص340.

الطفل وتأكله فقتلن))[1] ونجم عن استمرار تلك الأحداث دمار أكثر بغداد ونقصان سكانها بشكل كبير[2] فلقد قدرت عمارة بغداد في عام345/956 فوجدت ((عشر ما كانت عليه في أيام المقتدر (295-321) على تحصيل وضبط)) من حيث ((الأبنية والسكان))[3]. لو استثنينا بعض الإشارات عن هجرة أفراد من الموصل إلى بغداد بسبب غلاء عام349/960[4] وكذلك الهجرة من الشام إلى العراق على أثر هجوم الروم عام 354/965[5] فإن الفترة ما بين 345-367/956-977 تعتبر استمراراً لفترة التدهور السكاني الكبرى التي ابتدأت منذ عام 320. ومثل الدخول البويهي أوج التدهور فيها.

فالصراع على السلطة بين السلاطين والأمراء البويهيين ومن يساندهم من القواد سواء من الديلم أو الأتراك، وازدياد نشاط العيارين والفتن المذهبية بين السنة والشيعة إضافة إلى الأوبئة ((كأورام الحلق والماشرا)) و((موت الفجاءة)) وازدياد الغلاء كلها عوامل أودت بالكثير من سكنة بغداد وهجرة ((الناس من العراق إلى الموصل والشام وخراسان))[6] خصوصاً في الفترة ما بين 360-367 حيث كان أهل بغداد ((يغزو بعضهم بعضاً نهاراً وليلاً، ويحرق بعضهم دور بعض ويغير

(1) مكسويه، تجارب، ج2، ص95-96؛ الجوزي، المنتظم، ج6، ص344؛ الأثير، الكامل، ج8، ص465.

(2) ابن حوقل، المسالك والممالك، طبعة دي خوي، ص174.

(3) التوخي، نشوار المحاضرة، ج1، ص130.

(4) الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ج1، ص178؛ الأثير، الكامل، ج8، ص533.

(5) الجوزي، المنتظم، ج7، ص33.

(6) مكسويه، تجارب، ج2، ص167؛ الهمذاني، تكملة، ج1، ص176، 201؛ الجوزي، المنتظم، ج6، ص384، ج7، ص43؛ الأثير، الكامل، ج8، ص520، 527، 528، 533، 601.

كل قوم على أخوانهم وجيرانهم))[1] ((وفشا القتل حتى كان لا يعدم في كل يوم عدة قتلى لا يعرف قاتلهم وان عرفوا لن يتمكن منهم فانقطعت مواد الأموال وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة وظهر في كل قرية رئيس منهم مستول عليها وتباغوا بينهم وحصل السلطان صفر اليد والرعية هالكون والدور خراب والأقوات معدومة والجند متهارجون))[2] وكدليل على هذا الدمار ما أحدثه حريق جزء من جانب الكرخ إذ احترق فيه سبعة عشر ألف دكان وجماعة من الرجال والنساء والصبيان إضافة إلى 320 داراً و33 مسجداً[3].

ومما زاد الأوضاع سوءاً غزو الروم للرها وديار الجزيرة ونصيبين وديار بكر، ففي سنة 362هـ/972 ((ورد إلى بغداد خلق كثير من أهل تلك البلاد))[4] فاضطربت بغداد وثار الناس وأعلن الجهاد ((فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرة... فاجتمعوا وكثروا فتولد بينهم من أصناف البنوية والفتيان، والسنة والشيعة والعيارين، فنهبت الأموال وقتل الرجال وأحرقت الدور))[5].

حادي عشر: ان موجة الاضطرابات هذه انتهت بدخول عضد الدولة بغداد عام 977/367 بعد ان ((هلك أهلها قتلاً وحرقاً وجوعاً للفتن التي اتصلت فيها بين الشيعة والسنة))[6].

---

(1) مسكويه، تجارب، ج2، ص305، 306، 308-309؛ وأنظر كذلك: نفس المصدر، ص337-338؛ الهمذاني، تكملة، ج1، ص215؛ الجوزي، المنتظم، ج7، ص74-75.

(2) مسكويه، تجارب، ج2، ص314.

(3) الهمذاني، تكملة، ج1، ص211؛ الجوزي، المنتظم، ج7، ص60؛ الأثير، الكامل، ج8، ص628.

(4) الجوزي، المنتظم، ج7، ص59-60.

(5) الأثير، الكامل، ج8، ص618-619؛ الهمذاني، تكملة، 1، ص210.

(6) الجوزي، المنتظم، ج7، ص88، 114.

ان الهدوء النسبي والإصلاحات العمرانية الاقتصادية خصوصاً شق الترع وسد البثوق واستتباب الأمن أثر في عودة من هاجر من بغداد، كما ان تشييد مارستان جديد في بغداد عرف بالمارستان العضدي لابد ان ساهم في التقليل من اثر الأوبئة والأمراض التي تجتاح بغداد[1]، ولذلك يمكن ان نعتبر فترة حكم عضد الدولة (**367-372**) فترة نمو سكاني، إلا ان موت عضد الدولة سنة **982/372** قضى نهائياً على الاستقرار السياسي والاقتصادي. وشهدت بغداد في الفترة ما بين **372-982/450-1058** أسوأ تدهور سكاني، فما انفكت بغداد والعراق من فوضى سياسية وإدارية وحروب مدمرة بين السلاطين والأمراء البويهيين وجيوشهم. ومن أجل توفير المال اللازم لتلك الحروب ولتمشية أمورهم الخاصة عمدوا إلى المصادرات وفرض الضرائب الكثيرة الأمر الذي أدى إلى ارتفاع في الأسعار وانعدام في الأقوات ثم الموت جوعاً أو بالأوبئة والطواعين كالذي حدث عام **983/373** حيث ((مات كثير من الناس جوعاً))[2] وفي عام **986/376** ((هلك من الناس خلق كثير))[3] وجلا أكثر الناس عن بغداد بسبب غلاء عام**377**[4]. وفي حدود هذا الوقت، يصف لنا المقدسي بغداد قائلاً: ((وخف أهلها فأما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب. وهي كل يوم إلى وراء وأخشى إنها تعود كسامراء))[5] ولدى المقارنة بين بغداد والبصرة يؤكد المقدسي أن فقهاء ومشايخ بغداد أجمعوا على أنه

---

(1) ابن حمدون، التذكرة، مخطوطة المتحف البريطاني، ورقة 70 أ؛ الجوزي، المنتظم، ج7، ص114؛ الأثير، الكامل، ج8، ص704.

(2) الجوزي، المنتظم، ج7، ص121؛ الأثير، الكامل، ج9، ص37.

(3) الجوزي، المنتظم، ج7، ص131.

(4) نفس المصدر، ج7، ص13؛ الأثير، الكامل، ج9، ص51.

(5) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص120.

إذا جمعت عمارات بغداد واندر خرابها لم تكن أكبر من البصرة[1]. ان الحروب بين الأتراك والديلم في عام 379 ثم الفتن التي حدثت ما بين 381-384 و391-393 كانت سبباً في تفرق وهجرة الديلم عن بغداد[2] أولاً ثم خراب البلد ثانياً إذ يذكر هلال الصابي ((إن البلد خرب وانتقل أكثر أهله عنه فمنهم من مضى إلى البطيحة ومنهم من اعتصب بباب الأزج ومنهم من بعد إلى عكبرا أو الأنبار. ولقد حدثني جماعة من الناس إنهم شاهدوا صينية الكرخ فيما بين طرف الحذائين والبزازين، والفواخت والعصافير تمشي في أرضها انتصاف النهار وفي الوقت الذي جرت العادة بازدحام الناس فيه بهذا المكان))[3].

لو استثنينا الفترة ما بين 426-436/1034-1044 فإننا نستطيع ان نعتبر النصف الأول من القرن الخامس الهجري (401-450/1010-1058) بوجه عام استمراراً لفترة الانحطاط السابقة فالفوضى السياسية والإدارية والفياضانات المدمرة وارتفاع الأسعار وفتك المجاعات والأمراض كلها عوامل ساهمت في قلة السكان، وعلى سبيل المثال: الأوبئة التي اجتاحت بغداد عام 421-423/103-1031 حيث مات بالجدري ببغداد ((من الصبيان والرجال والنساء.. ما زاد على حد الإحصاء حتى لم تخل دار من مصاب واستمر هذا الجدري في حزيران وتموز وآب وأيلول وتشرين الأول والثاني وكان في الصيف أكثر منه في الخريف))[4] ويذكر أنه في عام 425 ((مات في بغداد سبعون

---

(1) نفس المصدر، ص117-118.

(2) الأثير، الكامل، ج9، ص49، 63-64.

(3) الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص413.

(4) الجوزي، المنظم، ج8، ص50، 59؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مخطوطة المتحف البريطاني، ورقة 223 ب.

ألفاً))[1] وفي مكان آخر نجد ان ابن الجوزي يذكر في حوادث نفس العام ان الموت كثر ((ببغداد لاسيما في النساء وكان معظمه بالخوانيق))[2] ولو افترضنا ان كل فرد ينتمي إلى عائلة مكونة من خمسة أشخاص لكان عدد سكان بغداد قبل عام 425/1033 أكثر من 350 ألف نسمة وهذا التقدير يعكس مدى قلة سكان بغداد.

ان المصادر التي في متناولنا لا تشير إلى أي حدث مهم في الفترة ما بين 426-436/1033-1044 مما قد يستنتج منه عدم وجود كارثة سكانية معينة. وهذا بدوره قد يشير إلى نمو طبيعي في السكان إلا أن الكوارث تبدأ من جديد، ففي عام 437-438 شهدت بغداد وباء أهلك أكثر الخيل والدواب الأخرى وبلغ ما هلك للسلطان البويهي في معسكره أكثر من 12 ألف رأس وقدر ما كان يموت في اليوم الواحد بمئة أو أكثر، وكانت هذه الحيوانات النافقة تطرح في دجلة وعلى الرغم من أن الكثير من أهل بغداد قد امتنعوا آنذاك عن شرب ماء النهر، انتشر الوباء ((وكثرت الأمراض))[3].

ثاني عشر: التدهور المروع للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للعراق وخصوصاً بغداد أثر بشكل حاد في معنويات سكان بغداد وبشكل خاص الطبقات الاجتماعية الدنيا (العوام) وقد جرت العادة ان ينظر إلى مثل تلك النكبات على أنها عقوبة سماوية نتيجة

---

(1) الجوزي، المنظم، ج8، ص79؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مخطوطة المتحف البريطاني، ج2، ورقة 225 أ؛ الكتبي، عيون التواريخ، مخطوطة ج13، ورقة 112 ب؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، مخطوطة – ورقة 18 ب.

(2) الجوزي، المنتظم، ج8، ص77؛ الأثير، الكامل، ج9، ص439.

(3) الجوزي، المنتظم، ج8، ص128، 129، 132؛ الأثير، الكامل، ج9، ص531، 541.

نقص في تقوى الناس. ولذلك ومن أجل الهروب من العيش والتعاسة ومن أجل إظهار تقواهم نجد أن كثيراً من الناس كانوا يتركون الدنيا كلها ويكرسون حياتهم للعبادة عن طريق الزهد أو التصوف، بينما نجد آخرين يشهرون سيف الله ليخوضوا حرباً متواصلة ضد (الكفار) خصوصاً عند مناطق الحدود. ان المجموعة الأولى كانت تجد في المناطق الريفية خصوصاً ما قرب منها من البطائح وفي المناطق الصحراوية والجبلية أماكن مفضلة لحياة العزلة التي يحيونها، بينما نجد ان المجموعة الثانية وجدت نفسها في الثغور على الحدود بين (دولة الإسلام ودولة الكفر). فعلى سبيل المثال نجد ان محمد بن أحمد بن موسى الشيرازي المعروف بالنذير (ت439/1047) يظهر في بغداد داعياً للجهاد ضد البيزنطيين فالتف حوله عدد كبير من الناس قادهم من بغداد باتجاه أذربيجان ماراً بالموصل[1]، ان هذه الأعداد من المجاهدين تمثل بدقة هجرة خارج بغداد مما أثرت في أعداد سكانها.

في مثل هذه الظروف كانت طلائع الجيوش السلجوقية قد قاربت مناطق العراق مما أحدث رعباً عظيماً لدى العراقيين، ففي سنة 442/1050 ونتيجة لوصول الغز إلى شرق وجنوب شرق العراق نجد أن جماعات من أهل البصرة وواسط فروا إلى بغداد[2]. ان هذا الحدث يشير إلى وجود هجرة من وسط العراق وجنوبه إلى بغداد. ان المصادر لا تخبرنا عن مدى سعة هذه الهجرة ولكن مثل هذا التخلخل السكاني لابد أن أثر في الوضع المتدهور الذي عاشته العاصمة في فترات الحكم البويهي الأخير، على الأقل أنها ساعدت على زيادة عدد المستهلكين

---

(1) الذهبي، تاريخ، مخطوطة، ورقة 186أ.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مخطوطة المتحف البريطاني، ج2، ورقة 235 ب.

مقابل انقاص عدد المنتجين. وطالما كانت البصرة وواسط مراكز مهمة في تزويد المواد الغذائية لبغداد فإن هجرة السكان من تلك المدينتين ربما خلق نقصاً في المواد الغذائية التي كانت تصدر منهما إلى العاصمة.

ثالث عشر: ان دخول السلاجقة بغداد في عام **1055/447** زاد الأمر سوءاً حيث فر أمام جيوشهم عدد من سكان المناطق المجاورة[1]، هذا إضافة إلى الخمسين الف جندي الذين ذكر انهم دخلوا بغداد مع السلطان السلجوقي طغرلبك[2]. ان هذه الزيادة المفاجئة في السكان عقدت مشكلة توفير المواد الغذائية كثيراً فارتفعت الأسعار خمسة أضعاف أو أكثر وعانى السكان كثيراً من ذلك مما أدى إلى حدوث (الوباء والموت)[3] بحيث ((مات من الجوع كل يوم خلق كثير... وسدت أبواب دور مات أهلها وكان الإنسان يمشي في الطريق فلا يرى إلا الواحد بعد الواحد))[4] ويمكن ان نستدل على عظم عدد الوفيات من خلال عدد من حضر وصلى جنازة أخت الخليفة التي توفيت في ذلك الوقت إذ كانوا أقل من أربعين شخصاً ((لخلو البلد وانقراض الناس بالموت والفقر))[5] وإضافة إلى ذلك الكوارث الطبيعة، ففي سنة **1058/450** تعرضت بغداد لعاصفة ثلجية شديدة اهلكت ((كثيراً من الغلات)) خصوصاً في مناطق صريفين والنهروان وما يقاربه من أرض السواد،

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس، ج**12**، ورقة**15** ب؛ الأثير، الكامل، ج**9**، ص**422**.

(2) محمد عمراني، تاريخ، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس، ورقة **312**.

(3) الجوزي، المنتظم، ج**8**، ص**170-171**.

(4) نفس المصدر، ج**8**، ص**175**؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مخطوطة المتحف البريطاني، ج**2**، ورقة **238**ب.

(5) الجوزي، المنتظم، ج**8**، ص**179**.

كما، تعرضت بغداد وواسط وعانة وتكريت لهزة أرضية عظيمة على أثرها ((تهدمت دور كثيرة))[1]، والأكثر من ذلك فإن الحكم السلجوقي في العراقي جوبه بمعارضة قوية من قبل القائد العسكري البويهي المعروف بالبساسيري، ان هذه الحركة كانت عاملاً آخر في تقليص سكان المدينة والريف فعندما دخل البساسيري وجنده بغداد في سنة **450** فتكوا بأهالي محلة باب البصرة فكان الرجال والنساء والأطفال بين قتيل أو هارب ليموت على شوارع بغداد من شدة البرد[2] كما ان سكان المحلات الأخرى هجروا محلاتهم ملتجئين إلى مناطق أخرى فخلت بغداد من جزء كبير من سكانها، ولذلك فبعد ان قضى على هذه الحركة وأعيد الخليفة إلى بغداد من منفاه في عام **451** فإن مستقبليه لم يتجاوزا أربعة أشخاص[3].

ان الأحوال عادت عقب ذلك إلى مجراها الطبيعي وشهدت بغداد نمواً سكانياً طبيعياً في الفترة مما بين **456-466/1064-1073** حيث شهد الناس استقراراً وهدوءاً نسبياً إضافة إلى الخدمات العامة وخصوصاً الصحية منها[4]، ويمكننا ان نتبين ذلك من خلال بعض الأخبار كتلك التي تتعلق بوفاة ابن يوسف سنة **460/1067** ووفاة عبد الله البرداني في سنة **461** حيث حضر تشيع جنازة كل منهما مئة ألف

(1) نفس المصدر، ج8، ص189، 190، 232.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس، ج12، ورقة 49 أ.

(3) نفس المصدر، ورقة 62ب؛ الجوزي، المنتظم، ج8، ص208؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص178-179.

(4) الجوزي، المنتظم، ج8، ص251.

رجل[1] وهذا يعني ان سكان مدينة بغداد كانوا آنذاك نصف مليون على الأقل. ولو قارنا بين هذا العدد للسكان وما كان عليه الأمر أول الخمسينات من القرن الخامس الهجري لوجدنا ان الواقع السكاني قد تبدل كثيراً خلال السنوات العشر، ومن الواضح ان هذا النمو لم يكن بسبب ازدياد طبيعي في الولادات وتقلص في الوفيات بل ان للهجرة أثر كبير في ذلك.

ان افتتاح المدرسة النظامية ومدرسة أبي حنيفة في سنة 1066/459 وغيرهما من المراكز الثقافية زاد أهمية بغداد الثقافية.ولذلك، وردها عدد من طلاب العلم والأساتذة للدراسة أو التدريس في تلك المعاهد الثقافية، ففي تراجم شيوخ هذه المدارس كأبي إسحق الشيرازي، شيخ النظامية الأول، تشير المصادر إلى أن أعداداً من الناس رحلوا ((إليه من البلاد وقصدوه من كل الجوانب))[2] لتلقي العلم. هذا ومن خلال بعض أخبار هذه الفترة نستطيع ان نتعقب هجرة بعض الأشخاص من سوريا ومصر إلى بغداد، فعلى سبيل المثال نجد ان سكان دمشق عندما وقع عليهم الظلم واستغلوا من قبل حاكمهم: حصن الدولة الكناني (561-467/1068-1074) فإنهم تركوا ممتلكاتهم وهاجروا[3]، إلا ان المصدر لا يذكر أي جهة هاجر هؤلاء ولكننا نستطيع ان نفترض ان بعضاً منهم قد هاجر إلى بغداد طالما ان المصادر تشير إلى

---

(1) سبط، مرآة الزمان، مخطوطة المتحف البريطاني، ج2، ورقة 258ب- 259أ، نفس المصدر، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس، ج12، ورقة 14ب.

Makdisi, G., "Autograph diary of an eleventh-century historian of Baghdad" BSOAS, Vol. XIX (Part, I), PP.33-34.

(2) الذهبي، تاريخ، مخطوطة ورقة 147ب.

(3) نفس المصدر، ورقة 5أ.

مجيء بعض الأشخاص إلى بغداد من سوريا في حدود ذلك الوقت[1]، كما ان المجاعة التي أصابت مصر وسوريا عام 1069/462 كانت عاملاً مهماً في هجرة عدد آخر من الناس إلى بغداد ومن ضمنهم والدة الخليفة الفاطمي وبناته[2].

ان النمو السكاني كان له أثره في طوبوغرافية بغداد ويتضح ذلك من اتساع الجانب الشرقي منها، ففي فيضان عام 1073/466 دمرت مئة ألف دار[3]. واستناداً إلى ذلك وما ورد من أخبار متعددة، إضافة إلى ما كان عليه سكان بغداد إلى وقت ليس بالبعيد، فأن الدار الواحدة تحتوي في أحيان كثيرة على أكثر من عائلة واحدة أو ما يمكن ان نسميه بالعائلة المركبة. ان عدد أفراد مثل هذه العائلة المركبة ربما يصل على أقل تقدير إلى ثمانية أشخاص فإذا أخذنا بنظر الاعتبار كل ذلك فإنه من الممكن تقدير سكان بغداد في عام 466 بـ800 ألف نسمة. هذا، وعلينا ان نتذكر ان الفيضان لم يعم جميع بغداد، فإذا أضفنا تلك الأجزاء التي لم تغرق ومن ضمنها دار الخليفة بما فيه عائلته فربما يصل سكان هذه المدينة إلى المليون نسمة. ان الفيضان السابق وما أعقبه من انخفاض شديد في مستوى مياه دجلة كان عاملاً في انتشار أوبئة عصفت بالمناطق الزراعية الواقعة في أسافل دجلة ومناطق نهر الملك مما دفع بالفلاحين وزوجاتهم وأولادهم إلى الهجرة إلى واسط

---

(1) نفس المصدر، ورقة 218أ، 221أ، 222ب.

(2) الجوزي، المنتظم، ج8، ص257؛ الأثير، الكامل، ج10، ص41؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص169.

(3) سبط البن الجوزي، مرآة الزمان، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس، ج12، ورقة 147؛ الذهبي، مخطوطة، ورقة 8ب.

والنهروانات وطريق خراسان[1] وعلاوة على ذلك أسراب الجراد التي وصفت بأنها ((كعدد الرمل والحصي، فأكلت الغلات فكدى أكثر الناس وجاعوا وطحن السوادية الخرنوب مخلوطاً بدقيق الدخن ووقع الوباء))[2]، فلا غرابة ان ((كثرت العلل والأمراض ببغداد وواسط والسواد وكثر الموت حتى بقي معظم الغلات بحالها في الصحراء لعدم من يرفعها))[3] وكان هذا في عام469/ 1076.

وأعقب فترة التدهور السابقة فترة يبدو ان بغداد استأنفت فيها حياة مستقرة إذ لا تذكر لنا المصادر أية نكبة سكانية مما يجعلنا نفترض وجود نمو سكاني دام حوالي العشر سنوات وانتهى في عام 478-479/ 1085-1086 إذ تعرضت بغداد ونواحيها لطاعون مدمر ((وكان عامة أمراضهم الصفراء.. وفرغت قرى من أهلها منها المحول... وهلك عامة أهل باب البصرة وأهل حربى... وتعقبه موت الفجاءة ثم أخذ الناس الجدري في أطفالهم ثم تعقبه موت الوحوش في البرية ثم تلاه موت الدواب والمواشي ثم قحط الناس وعزت الألبان واللحوم ثم أصاب الناس بعد ذلك الخوانيق والأورام والطحال)). وكالعادة، لا توجد أرقام محددة عن الوفيات إلا أن الوصف قد يعكس هول الوفيات هذا مع العلم ان الخليفة أمد ((الفقراء بالأدوية والمال ففرق ما لا يحصى وتقدم إلى أطباء المارستان بمراعاة جميع المرضى))[4] مما خفف من حدة الأزمة. وتلا هذه الأزمة فترة دامت ما

---

(1) الجوزي، المنتظم، ج8، ص294-295.

(2) نفس المصدر، ج8، ص297.

(3) نفس المصدر، ج8، ص307.

(4) نفس المصدر، ج9، ص14-15، 29؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس، ج12، ورقة 189أ.

بـين 480-493/1087-1099 لم يحـدث خلالهـا -كمـا يظهـر- أي مجاعة أو وباء مما يشير إلى نمو طبيعي في السكان. فنجد مثلا أن عدد من اعتاد حضور مجالس وعظ الشيخ أردشير العبادي في تلك الفترة كان قد قدر بثلاثين ألفا[1] وهو رقم قد يعكس كثافة سكان بغداد آنذاك. وهنا، تجدر الإشارة إلى أن حركة الصوفية التي رعاها السلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيون كانت بحد ذاتها عاملاً في نمو السكان. فلقد أنشيء ببغداد في هذه الفترة والفترات اللاحقة عدد من الربط الصوفية وأوقفت عليها الوقوف وقدمت لها الهدايا فأصبحت أماكن يجد فيها الفقراء والمشردون الطعام إضافة إلى ثقافة دينية معينة[2]. ولذلك، فأن أعداداً لا بأس بها من المريدين أو طلاب العلم هاجروا من مناطق مختلفة أو أقطار مجاورة ليشاركوا المتصوفة في حلقاتهم التعبدية والثقافية وكمثال على ذلك: الشيخ حماد الدباس الذي هاجر إلى بغداد من رحبة الشام الذي أصبح فيما بعد صوفيا كبيراً يتبعه أثنا عشر ألفاً من المريدين[3].

إن هجرة المريدين الصوفية إلى بغداد ازدادت أكثر في أيام الشيخ عبد القادر الجيلي، الذي كان هو الآخر مهاجراً من جيلان جنوب بحر قزوين إلى بغداد، وكان في بداية أمره تابعاً أو صاحباً للشيخ الدباس[4].

---

(1) الجوزي، المنتظم، ج9، ص75؛ الأثير، الكامل، ج10، ص153؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس، ج12، ورقة 247ب-248أ.

(2) مصطفى جواد، الربط، مجلة سومر، ج10، سنة 1954، ص218؛ الجوزي، ج9، ص73.

(3) الشطنوفي، بهجة الأسرار، مخطوطة المتحف البريطاني، ورقة 154أ-155 ب

(4) نفس المصدر، ورقة 154أ.

هذا، وان الصراعات السياسية والطائفية بين سكان مدينة حران كالانتفاضة التي قام بها الحنابلة في سنة 1083/476[1] والاضطرابات التي أعقبت مقتل قسيم الدولة أقسنقر في سنة 1094/487[2] وضغوط الصليبيين على المنطقة[3] كانت عوامل ساهمت في الهجرة من مدينة حران إلى بغداد، مما انعكس في نمو سكاني لهذه الفترة.

رابع عشر: ان فترة النمو السكاني السابقة انتهت بتدهور عام للسكان، ففي سنة 1099/493 ((كثر الجرف بالعراق والوباء وامتنع القطر وزاد المرضى وعدمت الأدوية والعقاقير...)) مما أدى إلى نقص كبير في المواد الغذائية وارتفاع الأسعار[4] وتبع ذلك في عام1104/498 انتشار الجدري الذي أودى بحياة عدد لا يحصى من الأطفال[5]، كما تعرض العراق في سنة511 لمجاعة أعقبتها في سنة1112/516 غارات مدمرة على الأراضي الزراعية قام بها الأمير البدوي دبيس أدت إلى هجرة الفلاحين من تلك المناطق إلى بغداد الأمر الذي دفع الخليفة لأن يجمع جيشاً من أمراء بعض الأقاليم المجاورة عدته أثنا عشر ألف فارس إضافة إلى ثلاثين ألفاً من شباب بغداد[6] رافقوا الخليفة عند خروجه، وإذا أخذنا بهذا الخبر فإننا نستنتج ان نسبة الخصوبة في بغداد كانت عالية جداً طالما نحن نعلم بأن أعداداً كبيرة من أطفال المدينة كانوا قد توفوا في عام1104/498.

---

(1) ابن النجار، تاريخ، مخطوطة كمبردج 171ب؛ الذهبي، تاريخ، مخطوطة، 12أ.

(2) دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة، مادة حران (بالإنكليزية).

(3) الأثير، الباهر، ص28-29.

(4) الجوزي، المنتظم، ج9، ص113؛ الأثير، الكامل، ج10، ص304.

(5) الأثير، الكامل، ج10، ص273.

(6) عمراني، تاريخ، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس، ورقة367-369.

ان الدمار الذي لحق بالمناطق الريفية والمدينة بسبب الحروب السابقة إضافة إلى تجمع جيوش أمراء الأطراف ببغداد أدى إلى نقص كبير في المواد الغذائية ومن ثم ارتفاع بالأسعار أعقبتها الأوبئة والموت الكثير. ان المجاعة استمرت خلال سنوات **517-519/1123-1125**. وقد روى انه كان قد توفي في بغداد خمسة وعشرون ألفاً من المعروفين، وهذا يعني ان هنالك وفيات أخرى لأشخاص مجهولين[1]. ويبدو ان سكان بغداد خلال السنوات التسع التالية **519-528/1125-1133** نموا بشكل اعتيادي إذ لا نجد ذكراً لكوارث معينة بل على العكس من ذلك نرى ان الخليفة في عام528 يقود جيشاً عدته ثلاثون ألف جندي من أهل بغداد والسواد[2].

ولم استخدمنا هنا نفس القياس الذي استخدمه W.H.Moreland عند دراسته لسكان الهند، أعني: ان كل مقاتل يجند من بين ثلاثين شخصاً[3] فأننا سوف نقدر سكان بغداد وبعض المناطق الريفية المجاورة بحوالي900 ألف نسمة، وهذا هو نفس الرقم الذي أعطيناه مسبقاً كتخمين لسكان بغداد في عصور ازدهارها، ويبقى علينا ان نؤكد أننا لا نستطيع ان نثبت دقة وكفاية مؤسسات التجنيد في بغداد آنذاك كي يكون تقديرنا مقارباً للواقع.

---

(1) الأثير، الكامل، ج10، ص435؛ العظمي:
La Chronique Abregee d'breggee d'al'Aximi.ed.C.Cahen, Journal Asiatique, 1938, PP.393-394.

(2) الأثير، الباهر، ص56؛ المقريزي، الدرر، مخطوطة كمبدرج، ورقة، 256أ.

(3) **oreland, W.H., India at the Death of Akber (Delhi, Atma Ram & sons: 1962), PP.17-19.**

انتهت فترة النمو السابقة بحروب الأعوام 528-530 التي أودت بحياة الكثير من السكان بضمنهم خليفتان من بني العباس وأعقب تلك الحروب موجة من الأوبئة والأمراض، ففي عام 1136/531 حدث الوباء وكان معدل الوفيات مئتي شخص يومياً[1]، كما ان نشاطات العيارين التخريبية والإجراءات التعسفية للبقش (شحنة بغداد) زادت الحال سوءاً فهاجر الناس عن بغداد إلى الموصل وغيرها من الأماكن[2].

ان المصادر التي في متناولنا لا تسير إلى أية كارثة خلال السنوات 532-1137/541-1146 وهذا قد يعني نمواً سكانياً جديداً، وإضافة إلى ذلك تخبرنا المصادر بقدوم أشخاص إلى بغداد من حلب وبزاغة مع زوجاتهم وأولادهم في أعقاب غارات البيزنطيين على بزاغة وحصارهم لحلب[3]. ولقد انتهت فترة النمو هذه بموجة جديدة من الأوبئة وصفت على أنها ((انتفاخ في الحلق)) فمات به خلق كثير[4] وتدهور الوضع أكثر خلال السنتين التاليتين 542-1147/543-1148 بسبب غارات جماعة من الأمراء السلاجقة على مناطق الريف مما دمر المحاصيل وأدى إلى هجرة الفلاحين إلى بغداد وهذا معناه نقص شديد بالمواد الغذائية وزيادة في عدد المستهلكين وارتفاع بالأسعار ثم المجاعة فالموت[1].

---

(1) الأثير، الكامل، ج11، ص35؛ الجوزي، ج10، ص68.

(2) الأثير، الكامل، ج11، ص40.

(3) الجوزي، المنتظم، ج10، ص72؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص99؛ الأثير، الكامل، ج11، ص36-38.

(4) الجوزي، المنتظم، ج10، ص120.

(1) نفس المصدر، ج10، ص134؛ الأثير، الكامل، ج11، ص87، 90.

كما أن الحروب نفسها أودت بحياة عدد من سكان بغداد، ففي صدام واحد مع أولئك الأتراك المغيرين قتل من أهل بغداد خمسمائة شخص[1].

وبعد فترة قصيرة استأنفت الحياة في بغداد مجراها الطبيعي مما خلق حوافز لنمو السكان إذ كثرت المواد الغذائية في سنة544/1149 وانخفضت أسعارها بينما عاد الفلاحون اللاجئون ببغداد إلى قراهم[2]. وفي نفس الوقت ومن أجل أن يستعد الخليفة للحرب، نجده يستخدم عدداً من الصناع وأهل المهن لعمل شتى أنواع الأسلحة والمعدات الحربية[3] مما وفر فرص عمل كثيرة لسكان بغداد وبالتالي رفع من مستوى معيشتهم. هذا، وتذكر لنا المصادر أخباراً كثيرة عن التزايد المستمر في أعداد جيوش الخلافة مما يشير إلى زيادة في سكان بغداد[4].

لقد انتهت فترة النمو السكاني هذه بوباء عام552/1175 إذ ان حصار بغداد في هذا العام من قبل السلطان محمد والتبدل المفاجئ للمناخ كانا سبباً رئيساً لذلك الوباء، ((ففشا الموت في الصغار بالجدري وفي الكبار بالأمراض الحادة، وغلت الأسعار))[1]، وبعد ذلك بسنتين

---

(1) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوقي، ص202-203.
(2) الجوزي، المنتظم، ج10، ص137.
(3) نفس المصدر، ج10، ص169.
(4) ياسين بن خير الله العمري، الدر المكنون، مخطوطة المتحف البريطاني، ورقة 113أ؛ الجوزي، المنتظم، ج10، ص156-157، 164-169؛ الكتبي، عيون التواريخ، مخطوطة كمبردج، ج12، ورقة 189أ؛ الذهبي، تاريخ، مخطوطة البودليان، ورقة 128ب؛ ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج10، ص289.
(1) الجوزي، المنتظم، ج10، ص176.

عانى أهل بغداد من فيضان عام554/1159 الذي دمر الجزء الأعظم من بغداد الشرقية وأدى بدوره إلى حدوث أمراض ووفيات كثيرة[1].

ويبدو أن نجاح الخليفة في السيطرة على بغداد وأجزاء أخرى من العراق وطرده للسلاجقة كان عاملاً في الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي أثر بدوره على تزايد السكان. وتظهر نتائج ذلك واضحة منذ بدء خلافة المستضيء عام566/1170 إذ ((هاجر الناس إلى بغداد لعدله وحسن سيرته))[2] كما ان نشاطات الربط الصوفية زادت من الهجرة إلى بغداد، ويمكن ان نستدل على ازدحام سكان بغداد من خلال عدد من كان يحضر مجالس وعظ ابن الجوزي كالتي عقدت ما بين 568-573/1172-1177 كان يحضرها عادة من قدروا بمائة ألف وأحياناً يصل التخمين إلى ثلثمائة ألف مستمع[3]. ويستمر النمو خلال الاستقرار الذي شهدته العاصمة أيام الخليفة الناصر لدين الله575-622/1180-1225 والخلفاء الذين أعقبوه خصوصاً المستنصر بالله 623-640/1226-1242 حيث نمت أحياء كثيرة خارج أسوار المدينة. ففي حوادث سنة 637/1239 يذكر لنا ابن الفوطي أنه ((تقدم بنقض أماكن قد عمرها التركمان بظاهر بغداد مما يلي سوق السلطان: مساكن ودكاكين واسطبلات وحمامات وغير ذلك وكانت تزيد

---

(1) نفس المصدر، ج10، ص189-190؛ الأثير، الكامل، ج11، ص164؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص240.

(2) ابن دحية، النبراس، ص159. جمال الدين الأزدي، أخبار الدول، مخطوطة المتحف البريطاني، ورقة 165ب.

(3) الجوزي، المنتظم، ج10، ص239، 242، 243، 253، 263، 270؛ الذهبي، تاريخ، مخطوطة البودليان، ورقة 141أ.

على ألف موضع))[1]، وفي أحداث عام 1248/646 يذكر لنا نفس المؤلف قائلاً: ((وغرق في الجانب الشرقي ما كان ظاهر السور من مساكن كانت استجدت منذ أيام الخليفة المستنصر بالله وبولغ في عمارتها وكان بها أسواق مادة وحمامات.

وبساتين مثمرة حتى كادت تشبه حاضر حلب أو سوق التركمان بالموصل وكان ذلك مما يلي سوق العجم واجتمع بها خلق كثير من الزعماء والأجناد فهدم الماء معظم ذلك))[2]. ولا غرابة في تجمع أولئك الجند والزعماء خارج أسوار بغداد الشرقية التي ضاقت بهم إذا علمنا بأن المستنصر بالله كان قد ((استخدم عساكر عظيمة لم يستخدم مثلها أبوه ولا جده))[3].

خامس عشر: عندما بدأت طلائع المغول تغزو نواحي العراق في سنة 1237/635 ((قدم أهل السواد من داقوق وغيرها إلى بغداد معتصمين بها وتضاعفت أجرة المساكن))[4]. أن هذه الزيادة المفاجئة في السكان خلقت نقصاً في المواد الغذائية وارتفاعاً في الأسعار ومن ثم الجوع فالمرض وبالتالي الموت[1]، وتعاقبت النكبات على بغداد من أمراض وفيضانات مدمرة[2]، ونتيجة للاضطراب السياسي والاقتصادي ((فارق في (سنة650) كثير من الجند بغداد لانقطاع

---

(1) ابن الفوطي، الحوادث، ص130.

(2) نفس المصدر، ص230.

(3) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص461؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص86-87.

(4) ابن الفوطي، الجوادث، ص109.

(1) ابن الفوطي، الحوادث ، ص154-155.

(2) نفس المصدر، ص225-267.

أرزاقهم ولحقوا ببلاد الشام))[1]، ورافق ذلك فتن طائفية خصوصاً تلك التي نشبت سنة 653-1255/654-1256 حيث قتل فيها الكثير من الناس[2]. كما أن فيضان عام 653 دمر الكثير من أحياء بغداد وقد ((قيل: ان رجلاً ثقة تصدى لأثبات ما قد تهدم من الدور في الجانبين، وكان مبلغهما اثني عشر ألف دار وثلثمائة ونيفاً وسبعين داراً))[3].

لو استخدمنا نفس التقدير السابق لمتوسط عدد ساكني الدار الواحدة وهو ثمانية أشخاص لبلغ عدد سكان الدور التي هدمها الفيضان السابق 960، 98 نسمة مما يسمح لنا أن نقدر مجمل سكان بغداد بأكثر من مليون نسمة، وعندما سار هولاكو نحو بغداد عام655/1257 تزايد عدد السكان فيها حيث ((أجفل أهل السواد من بين يديه إلى بغداد حتى امتلأت شوارعها فضاقت على سعتها عنهم، فقعدوا في الطرقات والدكاكين، وغلت الأقوات ووقع الناس في الخوف الشديد والويل العظيم))[4]. ان هذا التجمع السكاني الضخم قبيل دخول هولاكو بغداد يكون خير دليل على صحة التقدير الذي ورد عن عدد ضحايا المجرزة التي ارتكبها هولاكو ((إذ قيل: إن عدد القتلى ببغداد زاد عن ثمان مائة ألف نفس عدا من ألقى من الأطفال في الوحل ومن هلك في القني والآبار وسراديب الموتى جوعاً وخوفاً))[1].

---

(1) نفس المصدر، ص261.

(2) نفس المصدر، ص276-277، ص294-295، ص298-299، ص314-315.

(3) نفس المصدر، ص304.

(4) نفس المصدر، ص322.

(1) حبيب زيات، المجازفة بالأرقام في التاريخ، مجلة المشرق، العدد (3 آذار 1933)، ص166.

سادس عشر: وأخيراً يمكن أن نقرر ما يلي:

1- شهدت بغداد منذ تأسيسها حتى الغزو المغولي تبدلات متلاحقة في أعداد سكانها، ويمكن إرجاع ذلك إلى:

أ- الارتفاع الشديد في عدد المواليد، إذ أن تقاليد المجتمع كانت بشكل عام في صالح الزواج المبكر وتعدد الزوجات. هذا، ولا ننسى الأثر الذي قد تتركه بعض الأحاديث التي نسبت إلى الرسول (ص) في ذلك كحديث ((من ترك التزوج مخافة العيلة فليس منا))[1]، كما أن الإنجاب الكثير (عدم تحديد النسل) كان السلوك السائد آنذاك فلقد نسب إلى الرسول (ص) قوله ((الحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد))[2]، ومع ذلك كله فهنالك من دعا إلى تحديد النسل بما يتفق وأوضاع الشخص الاقتصادية، إذ اعتبروا العائلة الصغيرة نوعاً من الثراء[3]، بل أننا نجد ان ابن الجوزي (ت597/1200) في أحدى خطبه الوعظية ينصح أهل بغداد قائلاً: ((ينبغي تقليل العائلة وتقويت القوت))[1] وهذا يشير إلى إدراك تام لخطورة تزايد السكان في ذلك الوقت، مما دفع البعض الآخر إلى الاعتقاد بجدوى وسائل معينة أو قل وصفات طبية لمنع الحمل[2].

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج4، ص153.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) ككاؤس، قابوس نامة، (الترجمة الإنكليزية)، ص108.

(1) الجوزي، صيد الخاطر، ص371.

(2) التوحيدي، البصائر والذخائر، المجلد الأول، ص340؛ القزويني، عجائب المخلوقات، ص248.

ب- ان الـولادات الكثيرة كانـت تواجـه عـادة بنسـبة عاليـة مـن الوفيـات سـببها سـوء الأحـوال السياسـية والاقتصـادية إضـافة إلى المجاعـات والأوبئـة المختلفـة كالطـاعون والجـدري والحصـبة والفيضـانات والصـراعات الطائفيـة والـزلازل والتبـدلات المفاجئـة في الجو.

2- ان فترات التدهور السكاني التي تسببها الأمراض والمجاعات كانت تنتهي بفترات نمو سكاني سريع ويمكن تعليل ذلك بأن الضحايا كانوا بشكل رئيس من الأطفال والشيوخ والكبار، وأما الشباب فعلى ما يبدو كانوا ينجون منها مما يسهل عملية انجاب جديد ومن ثم زيادة جديدة في السكان عقب انتهاء الوباء[1]، ولا يفوتنا أن ننوه بأن للخدمات الصحية العامة دوراً في تخفيف حدة نتائج تلك الأوبئة.

3- لقد لعبت الهجرة من بغداد واليها دوراً مهماً في التذبذب السكاني، ففي حالات كثير كانت الهجرة عن بغداد سبباً في قلة السكان، بينما لعبت الهجرة إلى بغداد دوراً مزدوجاً، فمن جهة كانت تؤدي إلى زيادة مفاجئة في السكان، إلا أنها من جهة أخرى، وخصوصاً في حالات مجيء جيوش جديدة، كانت تؤدي إلى هجرة سكان القرى المجاورة لبغداد فازدياد عدد المستهلكين ثم قلة في المواد الغذائية أو نفاذها فارتفاع أسعارها ثم المجاعة فالموت. هذا، وان مجيء جيوش جديدة كان في الغالب يسبب طرد جماعة أخرى من جيش بغداد كما حدث للديلم والأتراك، أما إذا كانت الهجرة طبيعية كالتي تحدث نتيجة ازدياد نشاط

---

(1) C.A., Gill, "Epidamics", Encyclopedia of the Social, Vol.V, P.571.

بغداد الثقافي أو ظهور شخصيات صوفية أو زاهدة مشهورة، فإن الهجرة تكون عاملاً في زيادة السكان.

4- على الرغم من تعدد وتعاقب فترات النمو والتدهور السكاني فإننا نستطيع أن نميز ثلاث فترات كبرى للنمو وثلاثاً أخرى للتدهور، ففترات النمو هي:

أ- الفترة التي استمرت منذ تأسيس بغداد حتى سنة **811/196**.

ب- الفترة ما بين **1073-1064/466-456**.

ج- الفترة ما بين **1242-1160/640-555**.

أما فترات التدهور الكبرى فهي:

أ- الفترة ما بين **883-812/270-197**.

ب- الفترة ما بين **977-932/367-320**.

ج- الفترة ما بين **1058-982/450-372**.

5- يمكن ان نقدر عدد سكان بغداد، في أشد فترات التدهور، بثلمائة وخمسين ألف نسمة، بينما نرى أنهم جاوزوا مليون نسمة في أعظم فترات النمو.

6- يتضح من خلال البحث ان السمة المميزة لسكان بغداد تكمن في قابليتهم على الصمود وتجاوز فترات التدهور ومن ثم معاودة النشاط والازدهار ثانية.

1- أ-خضر الدوري، حركة السكان وسور المستظهر: ملاحظات في خطط بغداد[1]:

طرأت تطورات عظيمة على خطط بغداد منذ تأسيسها سنة 149-766 وحتى إنشاء سور المستظهر عام488-1095. فعند الانتهاء من بناء مدينته المدورة في الجانب الغربي، بدأ المنصور بتأسيس قصر لابنه المهدي في الرصافة على الجانب الشرقي، كما وأسست قصور أخرى كقصر الخلد وقصر القرار على شاطئ دجلة خارج أسوار المدينة المدورة[2] ثم توافد الناس على بغداد من المدن القريبة كالمدائن والانبار والكوفة والبصرة[3] وسكنها عدد ((من أصناف الناس وأهل الأمصار والكور وأتنقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم فليس من أهل بلد الا ولهم فيها محلة ومتجر ومتصرف فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا))[1] فنمت القصور والمحال والأسواق حول أسوار بغداد المدورة وبسبب هذا الاكتضاض ومن أجل الابتعاد عن أعين الناس والاستمتاع أكثر بأوقات الفراغ شيد الخلفاء وابناؤهم والوزراء والأمراء قصوراً لهم في الجانب الشرقي، كقصور البرامكة وبني سهل. إلا أن هذا النمو لبغداد أصابه توقف بل دمار خصوصاً الجانب الغربي وذلك أثناء الصراع بين الأمين والمأمون

---

(1) مجلة بين النهرين، السنة الثانية، العدد السابع (1974)، ص331-338؛ وتتمتها في مجلة بين النهرين، السنة الثانية، العدد الثامن (1974)، ص413-421.

(2) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (بيروت)، ج1، ص75.

(3) اليعقوبي، البلدان (ليدن، 1891)، ص235.

(1) نفس المصدر، ص233-234.

ففي عام197-812 أمر الأمين ((بأحراق الحربية فرميت بالنفط والنيران وقتل بها خلق كثير)) والح الأمين وأتباعه ((في أحراق الدور والدروب والرمي بالمجانيق، وفعل طاهر (بن الحسين) مثل ذلك فأرسل إلى أهل الأرباض من طريق الأنبار وباب الكوفة وما يليها، فكلما أجابه أهل ناحية خندق عليهم، ومن أبي أجابته قاتله وأحرق منزله، ووحشت بغداد وخربت... وسمى طاهر الأرباض التي خالفه أهلها، ومدينة المنصور، وأسواق الكرخ والخلد، دار النكث..(وبعد حروب أمر طاهر بن الحسين) بالهدم والاحراق، فهدم دور من خالفه من بين دجلة ودار الرقيق، وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة وربض حميد، ونهر كرخايا، فكان أصحابهم إذا هدموا داراً أخذ أصحاب الأمين أبوابها وسقوفها فيكون أشد على أهلها))[1].

ان الاضطرابات السياسية خصوصاً بين الأتراك والعرب دفعت الخليفة المعتصم إلى الانتقال نهائياً عن بغداد وبناء سامراء عام 221-835 مما زاد في خراب بغداد إذ هجرها الكثير من الناس إلى سامراء رغم محاولة السلطان تقييد أو منع الهجرة[1]. فانتقل ((الوجوه والجلة والقواد وأهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم إلى سر من رأى))[2] ولهذا أصبحت بغداد:

مثل العجوز التي ولت شبيبتها   وبان عنها جمال كان يحضيها[3]

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (الطبعة الأوربية 1864)، حوادث سنة 197هـ؛ الطبري (دار المعارف)، ج8، ص446-448.

(1) الخطيب، تاريخ بغداد، ج1، ص75.

(2) اليعقوبي، البلدان، ص254.

(3) ابن بطوطة، الرحلة (باريس، 1930)، ج2، ص100-101.

وجاءت الضربة الأقوى على بغداد، خصوصاً جانبها الشرقي، أثناء الحصار الذي دام طيلة سنة 251-865 جراء الحرب بين الخليفة المستعين والخليفة المعتز حيث دمرت محلات بغداد الشمالية وهي: الشماسية والرصافة والمخرم رغم أنها كانت قد سورت جميعاً بسور للدفاع مما بدل شكل الجانب الشرقي[1].

بعد عودة الخليفة من سامراء إلى بغداد سنة 279-892 سكن الجانب الشرقي حيث بنى قصوراً جديداً ووسع القصور القديمة، ثم توالت العمارة في الجانب الشرقي خصوصاً أيام خلافة المقتدر 295-320 (907-932) الذي أنفق الكثير في أعمال البناء والتعمير. ولكن اضطراب الأمور في فترة أمارة الأمراء دمر بغداد. ففي حوادث سنة 331-942 يقول الهمداني ((أتصلت الفتن ببغداد فانتقل كثير من تجارها مع الحاج إلى مصر والشام))[2]. وازداد الأمر سوءاً عند دخول البويهيين بغداد ولهذا ففي سنة 345-956 وصفت المدينة على أنها ((عشر ما كانت عليه في أيام المقتدر على تحصيل وضبط، يعني في الأبنية والسكان))[1]. إلا أن استقرار البويهيين واستتباب الأمن ببغداد كان دافعاً لنمو جديد في خططها خصوصاً الجزء الشرقي إذا أنشأ معز الدولة عام 350-361 الدار المعزية عند باب الشمالية على شاطئ دجلة. كما وأنشأ عضد الدولة عند دخوله بغداد سنة 367-978 ما

---

(1) مصطفى جواد وأحمد سوسة، دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً (1958)، ص119.

(2) الهمداني، تكملة تاريخ الطبري (بيروت، 1961)، ص135.

(1) التوخي، نشوار المحاضرة(بيروت، 1970)، تحقيق عبود الشالجي، ج1، ص130.

عرف بدار المملكة البويهية والتي تقع بأعلى محلة المخرم والتي كان انشاؤها سبباً في هدم الكثير من الأبنية القديمة والدور المجاورة[1].

بسبب اضطراب حبل الأمن في أواخر العهد البويهي تهدم الكثير من عمران بغداد، ويصف لنا المقدسي بغداد قائلاً ((وخف أهلها فأما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب... وهي كل يوم إلى وراء وأخشى أنها تعود كسامراء)). ولدى المقارنة بين بغداد والبصرة يؤكد المقدسي بأن فقهاء ومشايخ بغداد أجمعوا ((على أنه إذا جمعت عمارات بغداد وأندر خرابها لم تكن أكبر من البصرة))[2].

ويصف لنا هلال الصابي دار المملكة البويهية قائلاً: ((وهذه الدار وما تحتوي عليه من البيت الستيني والأروقة خراب وقد شاهدت مجلس الوزراء في ذلك ومحفل من يقصدهم ويحضرهم وقد جعله جلال الدولة اصطبلاً فقام فيه دوابه وسواسه، وأما ما بناه عضد الدولة وولده بعده في هذه الدار فهو متماسك على تشعثه))[1]. وقال هلال أيضاً ((عبرت إلى الجانب الشرقي من مدينة السلام بعد الأحداث الطارئة فرأيت ما بين سوق السلاح والرصافة وسوق العطش ومربعة الخرسي والزاهر وما في دواخل ذلك ورواصفه وقد خرب خراباً فاحشاً حتى لم يترك النقض جداراً قائماً ولا مسجداً باقياً. وأما ما بين باب البصرة، والعتابيين والخلد وشارع دار الرقيق من الجانب الغربي فقد أندرس أندراساً كلياً. وصار الجامعان في المدينة والرصافة في الصحراء بعد أن

---

(1) الخطيب، تاريخ بغداد، ج1، ص106-107.

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن، 1906)، ص117-118، 120.

(1) المصدر السابق، ج1، ص105.

كانا في وسط العمارة وقد كنت أركب من داري بباب المراتب إلى دار معز الدولة بالشماسية في الأسواق بين الضلال والمحال والدروب وكذلك بالجانب الغربي والدور على دجلة متقاربة وبساتينها متناهية وأنهارها متشابكة وما فيها دار تخلو من الأغاني والأفراح...))[1].

وأسهم السلاجقة في ذلك التخريب عند دخولهم المدينة، حيث هدمت أجزاء كبيرة من دار المملكة البويهية وأعيد بناؤها في سنة 448-1056 فيذكر لنا ابن الجوزي: ((وفي هذه السنة ابتدأ السلطان طغرلبك ببناء سور عريض دخل فيه قطعة كبيرة من المخرم وعزم على بناء دار فيها وجمع الصناع لتشديد دار المملكة العضدية وخربت الدور والدروب والمحال والأسواق بالجانب الشرقي وجميع ما يقارب الدار وأخذت آلاتها للاستعمال ونقضت دور الأتراك وسلت أخشابها بالجانب الغربي..))[1]. أن ما بناه طغرلبك عرف فيما بعد بدار السلطنة السلجوقية[2]، وإلى الجنوب من تلك الدار كانت تقع دار الخلافة حيث قصور الخلفاء المحاطة بالبساتين ومنازل الخاصة ودوائر الخلافة وكل ذلك أحيط بسور، وخارج هذا السور كانت تقع ((منازل الرعية)) ومحال بغداد الشرقية وجوامعها أو ما دعيت بحريم دار الخلافة والذي سور في عام488-1095[3].

في 18 ربيع الآخر سنة 488 شرع في إنشاء سور بغداد الشرقية ليضم دار الخلافة وحريمها. ولقد ساهم أبناء بغداد (العوام) في إنشائه

---

(1) ابن الجوزي، مناقب بغداد (بغداد، 1342مم)، تحقيق محمد بهجت الأثري، ص34.

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص169.

(2) الخطيب، تاريخ بغداد، ج1، ص106.

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان (ليبزك1866-1870)، ج2، ص254-255.

والاحتفال بذلك، حيث ((أذن للعوام في الفرجة والعمل وحمل أهل المحال السلاح والأعلام والبوقات والطبول ومعهم المعاول والسلات وأنواع الملاهي والزمور والحكايات والخيالات فعمل أهل باب المراتب من البواري المقيرة على صورة فيل وتحته قوم يسيرون به وعملوا زرافة كذلك وأتى أهل قصر عيسى، بسميرية كبيرة فيها الملاحون يجذفون وهي تجري على هادور وأتى أهل سوق يحيى بناعورة تدور معهم في الأسواق وعمل أهل سوق المدرسة قلعة خشب تسير على عجل وفيها غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب وأخرج قوم بئراً على عجل وفيها حائك ينسج، وكذلك السقلاطونيون، وكذلك الخبازون جاءوا بتنور تحته ما يسير به والخباز يخبز ويرمي الخبز إلى الناس))[1].

ويبدو أن أجزاء من هذا السور لم يكتمل بناؤها الا في سنة517-1123 على يد الخليفة المسترشد[1].

أن إنشاء هذا السور كان سبباً في ظهور نظريات مختلفة حول طوبوغرافية بغداد، أحدى هذه النظريات وضعت من قبل المستشرقين (لسترانج) والتي يرى فيها انحرافاً في طوبوغرافية بغداد من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي حيث يقول ((دون الخطيب تاريخه في منتصف القرن الخامس (الحادي عشر الميلادي) غير أن تطورات عظيمة طرأت على بغداد الشرقية في النصف الثاني من هذا القرن... وتنتج من هذه التطورات والتغييرات مدينة بغداد كما نشاهدها الآن وبناء على خراب المجلات الشمالية القديمة الثلاث: الرصافة

---

(1) الجوزي، المنتظم، ج9، ص85.

(1) الجوزي، مناقب بغداد، ص17؛ المنتظم، ج9، ص243؛ ابن الأثير، الكامل، ج10، ص435؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، مخطوطة البودليان، ورقة 99، 100.

والشماسية والمخرم مع سورها، نشأت رياض جديدة حول قصور الخلفاء في عهد المقتدى. وفي سنة 488-1095 أحاط المستظهر الخليفة الذي أعقبه هذه الأرياض الجديدة بسور يماثل السور الذي يحيط ببغداد الحديثة))[1]، وفي مكان آخر عند وصفه للدمار الذي أحدثه الفيضان سنة 466-1074 يقول ((وقامت المحلات التي وضع المقتدى تصميمها مكان الخرائب التي سببها هذا الفيضان العظيم، فامتدت (المحلات) حول ربض المأمونية القديم وجاورت قصور الخلفاء إلى الجنوب الشرقي... وأحيطت هذه الأرياض في عهد المستظهر الذي أعقبه بسور المدينة الجديد))[1]. وهكذا فإن نظرية (ليسترانج) تعتمد بالدرجة الأولى على دور فيضان سنة 466هـ وكذلك على دمار المحلات الشمالية الثلاث.

أما النظرية الثانية فقد قال بها (ماسينيون) ولا يرى فيها تغييراً في موقع بغداد الشرقية فبالنسبة له أن ما رآه أبن جبير في القرن الحادي عشر الميلادي وما نراه من سور يحيط ببغداد الحديثة هو نفس سور المستعين وما حدث في سنة 488 لم يكن إنشاء سور جديد حول منطقة جديدة ولكن ما هو الا إعادة تعمير السور القديم يعني سور المستعين. وقد ايد كل من (ماريوس كنارد ومصطفى جواد) فكرة الانحراف في طوبوغرافية بغداد ولكن مع بعض التعديل في التفاصيل بينما ذهب (أرنست هيرتسفلد) إلى تأييد ماسينيون في نظرية الثبات. أن آخر من عالج أمر الانحراف في طوبغرافية بغداد هو البروفسور

---

(1) لسترانج، بغداد في عهد الخلافة العباسية (الترجمة العربية، بغداد، 1936)، ط1، ص159.

(1) نفس المصدر، ص241.

جورج مقدسي الذي أخذ بنظرية الانحراف ولكن ليس بالشكل الذي طرحه لسترانج، فالبرغم من أعترافه بأهمية العوامل الطبيعية كالفيضانات والحرائق في الانحراف إلا أنه لا يعطيها نفس الأهمية التي أعطاها لسترانج، إذ يعطي البروفسور مقدسي للعامل السياسي الدور الأهم ويحدده على أنه الصراع في المصالح بين الخليفة والسلطان[1].

وبدورنا نستطيع أن نؤكد نظرية الانحراف محاولين تبيان أثر العوامل السياسية والطبيعية والاقتصادية على حركة السكان ومن ثم تأثيرها في الانحراف.

للبحث صلة

حركة السكان وسور المستظهر: ملاحظات في خطط بغداد (تتمة)[1]:

إن معالجة مشكلة الانحراف تكون ناقصة إذا نحن أكتفينا بأحداث سنة 488 إذ أن لهذا الانحراف جذوراً لسنين. وإن ما حدث في سنة 488 هو التثبيت الرسمي له وذلك عندما أنشئ السور. فمن المعروف أن حركة انتقال السكان من مكان إلى آخر وإنشاء المحلات ومن ثم المدن، كأي ظاهرة اجتماعية تكون عادة بطيئة وتدريجية في طبيعتها، لهذا فإن بناء سور بغداد في عام 488هـ والذي أُعتبر رمزاً للانحراف في طوبوغرافية المدينة ما هو إلا المرحلة الأخيرة من مراحل هذا الانحراف الذي جاء نتيجة لحركة السكان في بغداد، فإنشاء السور

---

(1) G. Makdisi "The Topograpgy of Eleventh Century Baghdad: Materials and Notes" Arabica, Vol.3, (1959), PP.281 ff.

(1) د. خضر الدوري، مجلة بين النهرين، السنة الثانية، العدد الثامن (1974)، ص413-421.

في رأينا كان نهاية لسلسلة طويلة من الحوادث والأحداث التي نتجت بشكل رئيسي بفعل العوامل الطبيعية بمعناها الواسع إضافة إلى العوامل السياسية كالصراع بين الخليفة والسلطان.

إن دراسة الانحراف في طوبوغرافية الجزء الشرقي من بغداد بعيداً عن دراسة الأوضاع والتحركات لسكان الجزء الغربي من بغداد سيؤدي بالنتيجة إلى رسم صورة غير كاملة وغير واضحة للعمليات التي انتهت بالانحراف، إن كلا من لسترانج وماسينون ومصطفى جواد وجورج مقدسي في دراساتهم لهذا الانحراف كانوا قد تجاهلوا أهمية الجانب الغربي. إن انتقال البغداديين من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي كان عاملاً مهماً في الانحراف، ذلك الانتقال الذي أدى إلى توسيع محلات الجانب الشرقي أو استحداث محلات جديدة، وبتسوير تلك المحلات عام488 تركز الانحراف، ولو حاولنا معرفة العوامل التي دفعت البغداديين للانتقال شرقاً لوجدناها كما يلي:

1- العيارون:

إن حوادث العنف والتخريب التي قام بها العيارون بقيادة البرجمي-خصوصاً بعد العقد الثاني من القرن الخامس الهجري- دفعت الكثير من سكان الجانب الغربي إلى ترك محلاتهم والذهاب إلى الجانب الشرقي خصوصاً إلى حريم دار الخلافة، ونسوق كمثال على ذلك ما حدث في سنة 441هـ/1049م حيث يخبرنا الجوزي باشتداد ((أمر العيارين بالجانب الغربي حتى انتقل أهله إلى الحريم وأبتاعوا خرابات وعمروها))[1].

---

(1) الجوزي، المنتظم، ج8، ص142.

ومما لا شك فيه أن خرابة ظفر كانت من بين تلك الخرابات التي بنيت من قبل القادمين من الجانب الغربي وإن هذه الخرابة نفسها كانت قد غرقت في فيضان **466** كما سنرى، وتشير المصادر أيضاً إلى أسماء خرابات أُخرى كانت قد عمرت مثال ذلك خرابة الهراس وخرابة ابن جردة، وهذه الخرابات جميعها احتواها سور عام**488**.

ومثال آخر عن دور العيارين هو النشاطات التخريبية للعيار المعروف بالطقطقي. ففي سنة **443** ذهب هذا العيار إلى أغنى محلة في الجانب الغربي من بغداد أعني الزعفران وطلب من سكانه دفع مبلغ (**10,000** ديناراً) محذراً في حالة عدم دفعهم المبلغ فإن دورهم ستحرق، وفي صباح اليوم التالي نشبت حرب بين الطرفين[1] وأصيب درب الزعفران هذا بدمار جراء الحرائق والنهب في الفترة ما بين **448-451** (**1056-1059**م) وذكر بأن (**200**داراً) قدرت أثمانها ما بين **300** إلى **30,000** ديناراً للدار الواحدة كانت قد احترقت[2].

بلا شك إن مثل هذه الكوارث أجبرت سكان هذا الحي على الانتقال إلى الجانب الشرقي، ومن المحتمل جداً أن الأثرياء من هذا الحي كانوا قد جلوا عنه وسكنوا في المحلة الاستقراطية الأمينة الواقعة في الجانب الشرقي أعني محلة باب الراتب وبسبب هذا الخراب ومن أجل الحصول على مواد البناء التي كانت نادرة في بغداد هدمت البقية الباقية من بيوت هذا الحي ونقلت أنقاضها لبناء المدرسة النظامية

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص445؛ ياقوت، البلدان (الطبعة الأوربية، 1866-1870)، ج2، ص562؛ الجوزي، المنتظم، ج8، ص150.

(2) الجوزي، المنتظم، ج8، ص205؛ سبط بن الجوزي، مرآة، مخطوطة باريس، ج12، 61أ؛ الأثير، الكامل، ج9، ص445.

وذلك في سنة 457-1075م[1]. ومع ذلك فإننا نجد في سنة 470هـ بعض من كان يسكن في أطراف ذلك الحي إلا أن المواطن وصف بأنه ((كان يأخذ زكاة))[2] مما يعكس لنا أن ذلك المواطن كان في حالة شديدة من الفقر والمسكنة.

2- الصراع المذهبي:

إلى جانب دور العيارين كان للصراع المذهبي دور في حركة انتقال السكان من الغرب إلى الشرق، وفي بعض الأحيان نجد تمازجاً بين العيارين والصراع المذهبي. إن الهيجانات والحرق والنهب التي ذكرت في الكثير من كتب التاريخ وخصوصاً المنتظم للسنوات 441، 442، 450، 451، 479، 481 ..الخ دفعت بالعديد من سكان الجانب الغربي لأن ينتقلوا إلى الجانب الشرقي. إن هذه الهجرة إلى الجانب الشرقي دفعت الحاكم المدني لبغداد (عميد بغداد) إلى إصدار أمر في سنة 452 يمنع فيه الناس من العبور إلى الحريم كما سنرى. وفي سنة 456 نجد أن أحد المنازل في محلة نهر طابق وهي من محلات الكرخ بيع بثلاثة قراريط[1] مما يشير إلى أن كثرة الاضطرابات في الكرخ دفعت الناس إلى عدم الرغبة بسكنى بعض محلات الجانب الغربي حيث الاضطرابات.

3- الأوضاع الإدارية- الضريبية:

عند معالجة انتقال سكان بغداد من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي يجدر بنا أن نؤكد على حقيقة هي أنه منذ منتصف القرن

---

(1) الجوزي، المنتظم، ج8، ص238.

(2) نفس المصدر، ج8، ص314.

(1) نفس المصدر، ج8، ص215.

الخامس الهجري –كان هنالك في بغداد سلطتان إداريتان الأولى وهي الأقوى السلطة السلجوقية والتي كان مقرها أمّا في دار السلطنة أو في قصر عميد بغداد (الحاكم المدني) وقصر الشحنة (الحاكم العسكري).

أما السلطة الإدارية الثانية فهي سلطة الخليفة العباسي والتي كان مركزها في دار الخلافة. وتشير الروايات إلى أن النظام الضرائبي المفروض على السكان ضمن دار الخلافة كان أكثر مرونة إذا لم يكن أخف من النظام الضرائبي الذي يمارس في الأجزاء الأُخرى من بغداد والتي كانت تقع مباشرة تحت الإشراف الإداري للسلاجقة[1].

إن الإشراف السلجوقي كان بشكل رئيسي ومباشر يشمل محلات الجانب الغربي حيث زاول الإداريون السلاجقة الاستغلال البشع لسكان تلك المحلات وقد أشار ياقوت بوضوح بأن هدف السلاجقة في العراق كان جمع الأموال الكافية ومن ثم مغادرة البلد. وهذا لا يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يكن يجري استغلال أو إبتزاز لسكان المحلات التي تقع ضمن دار الخلافة إلا أننا يمكن أن نقرر بأن أصحاب الأموال من الثرين ومن الطبقة الوسطى بسكناهم لحريم دار الخلافة –شعروا باستقرار أكثر من سكناهم في المحلات التي كانت تقع تحت سيطرة الإدارة السلجوقية المباشرة.

إن عملية انتقال أصحاب الصنائع والأثرياء إلى الجانب الشرقي وخصوصاً إلى حريم دار الخلافة دفع بعميد بغداد في سنة **452** إلى أن بناء أسواق الكرخ ويصدر مرسوماً بمنع أصحاب المهن من الانتقال إلى الجانب الشرقي ومزاولة مهنهم. وكان هذا الإجراء بدافع اقتصادي

---

(1) الاصفهاني، نصرة الفطرة، مخطوطة باريس، ج2، ورقة 59؛ البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص179.

محض ففي تلك السنة (452) نجد أن بغداد وأعمالها كانت قد ضُمِنَتْ من قبل عميد بغداد بمائة ألف دينار، وسنتين بعدها بثلاثمائة ألف دينار، فشرع العميد في عمارة سوق الكرخ وتقدم إلى من بقي من أهلها بالرجوع إليها ونهاهم عن العبور إلى الحريم والتعايش فيه))[1].

ومثال آخر أكثر دلالة يعود إلى سنة 485هـ أي قبيل إنشاء السور بثلاث سنوات حيث أن باب دولة السلطان السلجوقي نقلوا أموالهم قبيل وفاة السلطان والأشخاص قد جرى من قبل أرباب الدولة فكيف الأمر بالنسبة للفرد العادي! ولذلك فإننا نستطيع أن نعتبر ما حدث سنة 512هـ دليلاً آخر يمكن أن نستخدمه لأحداث ما قبل سنة 488 ففي تلك السنة ونتيجة للمصادرة والابتزاز التي قام بها الشحنة منكوبرس فإن أصحاب الأموال اختفوا. وانتقل جماعة منهم إلى حريم دار الخلافة كما وإن معايش الناس في الجانب الغربي توقفت[1]. إن أغلب أصحاب الأموال اختاروا محلة باب المراتب لسكناهم وكانت هذه المحلة مجاورة تماماً لدار الخليفة وذلك ليحتموا بالخليفة وليكونوا أبعد ما يمكن عن مركز الإدارة السلجوقية أعني بذلك دار السلطنة السلجوقية، حيث كانت تقع هذه الدار في أقصى شمال الجانب الشرقي من بغداد بينما تقع محلة باب المراتب في الطرف الجنوبي.

4- المؤسسات الثقافية:

إن تأسيس المدرسة النظامية 457-459/1064-1066م، ومدرسة أبي حنيفة والمدرسة التتشية والتاجية وغيرها من المؤسسات

---

(1) الجوزي، المنتظم، ج8، ص216.

(1) الأثير، الكامل، ج10، ص380؛ الجوزي، المنتظم، ج8، ص164.

الثقافية في الجانب الشرقي من بغداد دفع بالكثير من أبناء الجانب الغربي من هجرها، وأخيراً فقد لعبت القبائل البدوية دوراً في الضغط على سكان بعض المناطق الريفية والمحلات المدنية في الجانب الغربي لأن ينتقلوا إلى الجانب الشرقي. ومن أشهر هذه القبائل بنو خفاجة وبنو أسد وشيبان[1].

إن اتساع محلات الجانب أصيب بتوقف أو دمار عظيم بسبب فيضان عام416 حيث دمرت 100,000 داراً[2] هذا الدمار دفع سكان بغداد بطبقاتهم المختلفة وخصوصاً الخليفة المقتدي لتعمير المحلات المخربة وإنشاء محلات جديدة، وبالفعل ففي فترة حكم الخليفة المقتدي 467-487/1075-1094م انشئت محلات كالبصلية والقطيعة والحلبة والأجمة ودرب القيار وخرابة ابن جردة وخرابة الهراس والخاتونين[3].

ومن أجل حماية هذه المحلات الجديدة وسكانها من فيضان مدمر آخر انشئ السور عام 488 وهذا يفسر لنا لماذا أظهر أهل بغداد الشرقية تثمينهم لمشروع إنشاء السور المذكور سواء من خلال تقديمهم العون المالي بالتبرع أو بدفع الضرائب أو بالمساهمة الفعلية بعمليات البناء. كذلك يمكن أن نتعرف على فرحة (العوام) بالمشروع من خلال الاحتفالات الشعبية التي قاموا بها والتي رافقت عملية الإنشاء[4]. كما وان المثرين من سكان باب المراتب الذين دمرت منازلهم وخاناتهم

---

(1) الجوزي، المنتظم، ج8، ص82، 221، 234؛ الأثير، الكامل، ج9، ص410.
(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، مخطوطة باريس، ج12، ورقة 147ب.
(3) الجوزي، المنتظم، ج8، ص293؛ الأثير، الكامل، ج10، ص156.
(4) الجوزي، المنتظم، ج9، ص85.

التجارية[1] بالفيضانات لابد وإنهم حاولوا الكثير من أجل بناء السور لمنع أمثال تلك الفيضانات من تدمير ثرواتهم أو ممتلكاتهم.

لقد أكد الدكتور جورج مقدسي أثر العامل السياسي –الصراع بين الخليفة والسلطان في انحراف طبوغرافية بغداد، إلا أن الأمثلة التي أوردها لا تعكس إلا صورة باهتة وغير دقيقة لذلك الصراع الذي تمثل، كما يرى مقدسي بعمليات استرجاع أو إدعاء لعائدية أراضي أدخلت ضمن الحريم العائد للسلطان أو للخليفة كأحداث عام **455** حيث الاستحواذ على بعض المواد الإنشائية أو أحداث عام **485** حيث تم إنشاء عدد من البنايات من قبل السلطان وكبار الأمراء والتي يرى مقدسي خطأ إنها أدخلت فيما بعد ضمن سور عام **488**[2].

إن الأهمية السياسية لعام **485** لا تكمن في بناء تلك الأبنية من قبل السلطان وزوجته وبعض الأمراء بل نرى أنها تكمن في القرار الذي صدر عن السلطان ملك شاه حيث أمر الخليفة قائلاً له ((لابد أن تترك لي بغداد وتتصرف إلى أي البلاد شئت)) وتزعم تلك الرواية قائلة: ((فانزعج الخليفة من هذا انزعاجاً شديداً ثم قال أمهلني شهراً فعاد الجواب لا يمكن أن تؤخر ساعة فقال الخليفة لوزير السلطان سله أن يؤخرنا أيام...الخ))[3].

من المحتمل أن هذا الطلب كان الخطوة الأولى من أجل إعلان الأمير جعفر –ابن الخليفة من زوجته ابنة السلطان ملك شاه- خليفة

---

(1) G. Makdisi ((Autograph diary of an eleventh-cenury, historian Bagdad bsoas. Vol.XIX Part, 2, (1957), 295.

(2) نفس المصدر والصفحات.

(3) الجوزي، المنتظم، ج9، ص61-62.

وبذلك يسيطر الجد ملك شاه على الأمور وينقل الخلافة لهم. ويذكر لنا نظام الملك في كتابه (سياسة نامه) بأن السلطان ملك شاه في أواخر أيامه وقع تحت تأثير الدعاية الباطنية وكانوا يشجعونه لإزالة الحكم العباسي[1]. ويبدو أن الموت المفاجئ والغامض للسلطان أنقذ الخليفة من مصير محتوم، إلا أنه توفي أيضاً عام 487هـ. مما لا شك فيه أن هذه الأزمة السياسية العظيمة أثرت في نفسه وسياسة الخليفة الجديدة المستظهر، فبعد سنة من توليه أي 488هـ بدأ ببناء السور الجديد حول دار الخلافة وحريمها كوسيلة لصد أي تحرك عسكري يمكن أن يحدث أو تأمين جانبه أثناء أي أزمة سياسية كالتي حدثت لوالده.

فالعوامل الخمسة المذكورة سابقاً لنمو الجانب الشرقي مع فيضان عام 466هـ والأزمة السياسية لعام485 كانت العوامل المباشرة لإنشاء سور عام488 والذي يمثل تكامل الانحراف في طوبوغرافية بغداد.

بقي علينا أن نتذكر ما يلي:

أولاً: إن المحلات الشمالية الثلاث لشرقي بغداد- الشماسية والرصافة والمخرم- والتي لم تدخل ضمن السور كانت في حالة متشعثة إذا لم تكن خراباً. إن وجود بقايا سكنية في محلة أبي حنيفة وبعض أجزاء من الرصافة كان يرجع بالدرجة الأولى إلى وجود ضريح أبي حنيفة ومدرسته ولوجود قبور الخلفاء بالرصافة. وفي الحالات الاضطرارية نجد أن سكان هاتين المحلتين كانوا ينتقلون إلى محلات بغداد الواقعة ضمن السور طلباً للأمان. أما عن محلة الشماسية فلا يوجد أي

---

(1) نظام الملك، سياسة نامة (الترجمة الإنكليزية)، ص194.

ذكر يشير إلى أنها كانت مسكونة. ويصفها ياقوت الحموي على أنها صحراء ومأوى للصوص وقطاع الطرق[1].

ثانياً: في الوقت الذي أصبحت فيه المحلات الشمالية الغربية لبغداد الشرقية مهجورة أو قليلة السكان فإن محلات في الأجزاء الجنوبية الشرقية لبغداد الشرقية بدأت تنمو وتتسع، وخير مثال على ذلك هي محلة قطيعة العجم الواقعة في أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية لبغداد الشرقية وقد وصفت من قبل ياقوت على أنها ((محلة عظيمة فيها أسواق كأنها مدينة برأسها))[2].

ثالثاً: إن حركة الانتقال من الغرب إلى الشرق في بغداد لم تبدل طوبوغرافية الجزء الشرقي فحسب بل الجزء الغربي نفسه. فإن بعض المحلات الغربية تبدل شكلها جزئياً أو كلياً أو أنها اختفت من الخارطة نهائياً[3]. فإن بعض المحلات المتصارعة إلى ساحات للمعارك وبسبب الحرب أصبحت تلك الأماكن خربة متهدمة تفصل بين المحلات مما جعلها تنكمش على نفسها فتصغر في المساحة[4]. وهكذا انفصلت المحلات المتبقية بعضها عن البعض بتلك الخرابات لقد دعيت هذه الأماكن المهجورة بالصحراء أو البرية أو الخراب. ففي سنة 442 عندما

---

(1) ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص317-318.

(2) نفس المصدر، ج4، ص142.

(3) الجوزي، ياقوت، المنتظم، ج8، ص83؛ الكامل، الأثير، ج10، ص162؛ البلدان، ج4، ص841.

(4) الجوزي، المنتظم، ج8، ص140-141.

توفي علي بن عمر القزويني فإن الناس صلوا على جنازته في الصحراء الواقعة بين محلة الحربية والعتابيين[1].

كما وان ابن الجوزي نفسه في سنة 569 يصف المنطقة بين باب البصرة والحربية على أنها (برية)[2] إلا أنه لا يمكن اعتبار جميع هذه الأماكن الخراب-خصوصاً في الفترات المتأخرة على أنها فعلاً كذلك فيذكر لنا ابن الجوزي بأن الأمطار الغزيرة لعام 515 ((أهلكت... ما كان في الصحاري من الغلات))[3]، مما يشير إلى أنها كانت مزروعة بل أننا نسمع بوجود بساتين بين محلات الجانب الغربي كبستان ابن الشمحل مقابل قصر التاج من دار الخلافة أو بستان جعفر الرقاص[4].

---

(1) نفس المصدر، ج8، ص146-147.

(2) نفس المصدر، ج10، ص243؛ الشطنوفي، بهجة الأسرار، مخطوطة المتحف البريطاني، ورقة 38.

(3) الجوزي، المنتظم، ج9، ص226؛ الحدادي، بهجة الشيخ أحمد، مخطوطة المتحف البريطاني، ورقة2.

(4) الجوزي، المنتظم، ج10، ص222؛ الدبيثي، ذيل تاريخ بغداد، مخطوطة باريس، ج2، ورقة 49، 50.

2- الزواج عند نصارى بغداد[1]:

1-المقدمة:

عادات أسلافنا القدماء غير عاداتنا اليوم فأجدادنا وآباؤنا كان يحظر عليهم انتقاء شريكة لحياتهم بأنفسهم لا بل لم يكن يسمح لهم برؤيتها أو مخاطبتها قط لأن ذلك كان يعد في عصرهم عيباً فاحشاً أو خللاً كبيراً بأهل البيت وأن شئت فقل ذنباً لا يغتفر فكان منتقى الزوجة لنفسه يسلق بالسنة حداد وربما كان يقيم نفسه هدفاً لحرم الوالد أن اصر عَلَى عمله إذ يعد صاحبه عقوقاً فأن كان هذا حال الفتيان فما كانت حالة الفتيات اللائي كن يعتبرن كالعجماوات لا يحق لهن الدفاع من أنفسهن فكثيراً ما كانت تغتصب حريتهن الشخصية وهن ساكتات لا

---

(1) رزوق عيسى، الزواج عند نصارى بغداد، مجلة لغة العرب، الجزء3، 4 من السنة 4 عن شوال وذي القعدة 1332= أيلول وتشرين أول (1914)، ص113-135. ورزوق عيسى هذا (1881-1940)، هو من مواليد بغداد وَدَرَسَ في عدد من المدارس الكنسية، ودرّس فيها لعدة سنوات ما بين سنة 1901 وحتى وفاته عام1940. التحق للعمل مع الأب انستاس ماري الكرملي في مجلة "لغة العرب" منذ السنة الأولى لصدورها عام 1911، فكتب عدة مقالات عن بغداد.

وعرف عنه إصدار عدد من المجلات الأدبية والتاريخية، فقد أصدر مجلة "خردلة العلوم" عام 1910، وهو بهذا يُعدّ أول عراقي مسيحي يصدر مجلة في بغداد بل في العراق كله. حكمت رحماني، 100 عام على صدور مجلة خردلة العلوم، مجلة بين النهرين(بغداد)، العدد 153-154، السنة 39، السنة2011، ص59-65. ونظراً لإطلاعه الواسع على المجلات المصرية واللبنانية والسورية، فقد أصدر مجلة "المؤرخ" عام1932 التي توقفت في العام نفسه، ولكنه أعاد إصدارها مرة أخرى عام 1938، وتوقفت في آخر سنتها الثانية، معللاً ذلك: بأن سوق الكتب كاسدة يومذاك في العراق. جوري رزوق عيسى، الأديب رزوق عيسى (1881-1940)، مجلة بين النهرين، العدد 109-110، السنة 28 (2000)، ص129-139؛ ينظر أيضاً: حكمت رحماني، رسائل المؤرخين: تسع رسائل من المؤرخ عبد الرزاق الحسني إلى المؤرخ الصحافي رزوق عيسى، مجلة بين النهرين، العدد149-150، السنة 38، 2010، ص71-87.

يبدين أقل تذمر أو احتجاج فأمر زواج البنين والبنات كان ولم يزل منوطاً عند الكثيرين بالوالدين وخصوصاً بالوالدة التي في يدها أغلب الأحيان الحل والربط فهي التي تنتقي خطيبة لابنها وهي التي تقنعه أم لا يلتفت إلى غيرها. فمن وقعت في نفسها موقعاً حسناً وطابت لها شمائلها اختارتها كنة لها وعلى ولدها الرضوخ والإذعان لمشيئتها ولا يجوز له أن يخالف أمرها ولو كان لا يهوي الفتاة أو هو معها عَلَى طرفي نقيض فكم وكم قد وقع من الخصومات بعد الاقتران من أقلق راحتى الزوجين ونغصت عيشهما الغض ومنشأه تلك العادة القديمة التي لا تلائم روح الحرية الحقيقية كل الملاءمة.

أما اليوم فقد تبدل الحال وتغيرت العادات بعض التغير فأصبح كل من الفتى والفتاة مطلق الجناحين له من حرية القول والمجاهرة بما يكنه صدره من دون أن يلحقه أدنى إهانة أو غضاضة ذلك بفضل بذور العلم فإذا رأى أحد الشبان مثلاً شابة هيفاء فأعجبه حسنها وأدبها وأنس منها ميلاً فاتحها بحبه الأدبي وأرسل من ثمَّ والدته أو أحدى معارفه لتبلغ والديها رغبته في اتخاذ ابنتيهما قرينة له فإذا وجدا فيه الكفاءة والأهلية رضيا به بعلاً لابنتهما وصهراً لهما والا رفضا طلبه بتاتاً. هذا وإذا عزم اليوم بعض شبان العصر عَلَى الاقتران وسمع أن أحدى الفتيات بارعة الجمال وآية العفة والكمال وهو قرن لها من كل الوجوه يأخذ بالتردد إلى دار والديها وأحياناً يجالسها بحضور أهلها ويخاطبها من غير حجل ولا وجل ليبلو أخلاقها ويقف على حركاتها وسكناتها فإذا رانته سجاياها أوفد من قبله والدته أو أحدى نسيباته لتعلن رغبته في جعلها شريكة لحياته فإذا وجد أبوا الفتاة ذلك الشاب كفؤاً لها من كل الوجوه عرضاً مسئلته عَلَى ابنتهما فإذا رأته شاباً فاضلاً شهماً قبلته أن

يكون بعلاً لها والا ففي وسعها ان ترفضه كل الرفض ولا لوم عليها ولا تثريب لأنه كما أن للرجل حق انتخاب زوجة صالحة حكيمة لتدير أمور منزله تقضي المساواة ان تنبذ أيضاً ربات الحجال الرجل السكير المقامر الفاجر نبذ النواة.

2- الخطبة أو النيشان[1]:

العادة الجارية في بغداد وولاياتها هي أن يتزوج الغني الغنية والمتوسط الحال المتوسطة الحال والفقير الفقيرة الخ غير أن هذه العادة قد تخرق أحياناً فيقترن المتوسط الحال بالغنية والعكس بالعكس. هذا وبعض الأسر البغدادية تحافظ أشد المحافظة عَلَى ان لا تصاهر أسراً دونها درجة ومقاماً ولا ترضى بعولاً لبناتها أو زوجات لأولادها من ليس من أسرة كريمة عريقة في الحسب والنسب وان لم يكن على شيء من الثروة والمال ولهذا نرى أغلب فتيات تلك الأسر يبقين عوانس طول أعمارهن حتى يوافيهن الحمام. فإذا خطب شاب نجيب عصامي ابنة أسرة كريمة المحتد طيبة الأرومة وكانت غنية في عصر من العصور غير أن الدهر أخنى عليها بكلكة فأصبحت مقلة فلا ترضاه بعلاً لأحدى بناتها بدعوى أنه كان منذ نحو عشر سنوات مثلاً خامل الذكر لا يملك شروى نقير فهو في عرفها حديث النعمة لا يحق له أن يصاهر أسرة أسمى من أسرته بمراحل. فإذا فرضنا تم الرضا بين هاتين الأسرتين فيتم غالباً بشروط باهظة جداً يرسف تحت أثقالها الزوج ان لم تكن مجحفة بحقوقه وحريته الشخصية ولهذا يقال في مثلهم السائر ((من لا يأخذ من ملته يموت بغير علته)). بيد أن الحال تبدل بعض التبدل

---

(1) النيشان لفظة فارسية الأصل يستعملها نصارى العراق بمعنى إكمال رسم الخطبة وتلبيس الخاتم للعروسين. راجع لغة العرب 3: **542**.

فأمسى أغلب نصارى حاضرتنا يرضون بعلاً لفتاتهم من كان حسن الأخلاق لين العريكة عزيز النفس أبياً. وهناك غير ما ذكر وهو إذا أصرت مثلاً أسرة عَلَى أن لا تصاهر أسرة أخرى لسبب من الأسباب وكان الفتى والفتاة يهوى أحدهما الآخر فيذهبان إلى رئيس ملتهما ويعرضان عليه مسئلتهما فيرسل يدعو والديهما ويأخذ يقنعهما بوجوب زواجهما فإذا لم ينجح معهما يضطر إلى عقد قرانهما كرهاً منه لئلا ينتج ما لا تحمد مغبته وهناك الطامة الكبرى والبلية العظمى.

3- رسوم الخطبة:

إذا تم الوفاق بين أهل الفتى والفتاة تعلن الخطبة عَلَى رؤوس الأشهاد وأول ما تأتيه النساء هو الاجتماع معاً والتداول في مسئلة الصداق وبعد ان يُقرّ رأيهن عَلَى الأمور المهمة ينفض مجلسهن عَلَى أمل اللقاء في فرصة أخرى ولا يزلن يختلفن إلى بعضهن حتى يحسمن أغلب مسائل الزواج. وفي اليوم المعين لأجراء مراسم الخطبة بمنظر شائق وبكلمة أخرى مراسم الخطبة الرسمية كما يقولون تذهب والدة الفتى وصاحباتها ونسيباتها إلى بيت أهل الفتاة وهناك يعرضن أمر الخطبة عَلَى والدتها ورفيقاتها واقاربها المدعوات فالأم تتظاهر عندئذ بالتجاهل كأنها لم تعرف شيئاً بخصوص ذلك وتجيب بكل هدوء وسكينة ووقار أصحيح ما تكلمينني به أم تمزحن معي فإن ابنتي لم تزل صغيرة غير أهل للقيام بأعباء أمور الزواج ومتاعبها ومشقاتها (وان كانت كهلة شمطاء) فالأجدر بكن أن تذهبن وتطلبن غيرها لعلكن تجدن ضالتكن المنشودة.

فتأخذ النساء اللواتي صحبن أم الفتى يقنعنها بقولهن أن هذا هو أوان زواج ابنتك وهي جديرة بأن تصبح ربة بيت لتسوسه بحكمتها الباهرة ودرايتها الفائقة وبعد التي واللتيا يحملنها عَلَى القبول والتسليم

ثم تأخذ بالتنقير والتنقيب عن الفتى الطالب يد ابنتها وإذا كانت لم تعرفه قط تسأل قائلة ما هي كنية فلان؟ أهو مقيم في حاضرتنا أو لا؟ وما هي المهنة التي يتعاطاها؟ وكن ربحه منها؟ أفي استطاعته أن يقوم بأود المعيشة؟ وكم عمره يا ترى؟ وكيف هيئته إلى آخر ما هنالك من المسائل الخطيرة في نظرها فتجيبها نسيبات الفتى عن أسئلتها بأحسن جواب وثنين ثناءً جميلاً عَلَى مناقبه الحميدة وماله من المنزلة الرفيعة عند معارفه وبعد أن يصرفن ساعة أو ساعتين في الأخذ والرد العقيم الذي في وسع كل منهن الاستغناء عن مؤونته تقول أم الفتاة:

لقد رضيت بمقالكن لما أعهده فيكن من الإخلاص وطيب الأرومة فعليكن أيضاً ان تراجعن أبا الفتاة لعله لا يرضى بما رسمت أو لعل له رأياً غير رأيي ثم لما يحضر قرينها في مساء ذلك النهار تعرض عليه المسئلة من جديد وتخبره بما دار بينها وبين أهل الفتى من الحديث فإذا وجد الشاب أهلاً لابنته قنع بما دبرته زوجته والا جاز له أن يعارضها كل المعارضة ويرسل من قبله أحدى النساء لتبلغ ذلك والدي الفتى والا ان تم الرضى تذهب أم الفتى ونسيباتها إلى بيت أهل الفتاة ويخطبنها عَلَى رؤوس الملا بمشهد فخيم وبعد المحاورة والمناقشة الطويلة تعطي الفتاة وغالباً لا تتم خطبة النساء ما لم تبسط أم الفتى يديها إلى أم الفتاة متضرعة وقائلة لها بخضوع واحتشام مني على بتحقيق بغيتي وهيبتي ضالتي التي أنشدها بفروغ صبر وعندئذ يتم كل شيء فتأخذ النساء يهلهلن فرحاً.

وفي اليوم المعين لعقد عهد الخطبة يذهب أبو الفتى ومن معه من الأصحاب والأخدان إلى دار أبي الفتاة ويصحب معه غالباً قسيساً أو مطراناً وهناك تعرض خطبة الفتاة على بساط البحث فيشرع أحد

الحضور أو القسيس يقول لأبي الفتاة ما هذا معناه تعلم يا فلان ان مجيئنا إلى داركم الآن لأمر جلل وليس بلا داعٍ فيجب أبو الصبية قائلاً لقد قدمتم على السعة والرحب فهل لكم من خدمة أقوم بها؟

القسيس: لابد ان حضرتكم قد وقفتم علي سبب مجيئنا وأملنا وطيد بكرم أخلاقكم وبطيب عنصركم أن لا تضنوا علينا بما نعرضه على ساحة فضلكم الحاتمية.

الأب: قولوا ما بدا لكم ولا تكتموني شيئاً فسأبذل غاية جهدي في قضاء حاجتكم ولو كلفني ذلك عرق القربة.

- شاكراً لكم هذا مما يدل على نجابتكم وحسن أورقكم.
- عفواً أني لا استحق كل هذا الأطراء والتبجيل.
- أننا لقد أتينا الآن إلى منزلتكم لنقطف من حديقتكم الزاهرة وردة قد عطرت جو حاضرتنا بحسن سمعتها وسمو عقلها ووفرة أدبها فهل تسمحون لنا بذلك يا ترى؟
- أني لا أفهم مرادكم فافصحوا لي عما يدور في خلدكم.
- حسن أننا قد جئناكم اليوم لنخطب أبنتكم فلانة لابننا فلان وكما لا يخفاكم ان فلان بن فلان من نخبة شبان حاضرتنا أديب فاضل ولا ترانا مبالغين أن قلنا أن أمثاله لقليلون يعدون على الأصابع.
- نعم الشاب فلان بيد أنه تعلم حضراتكم ان ابنتي فلانة صغيرة السن ولم تبلغ الرشد فكيف يجوز لي أرغامها على أمر تجهله كل الجهل هذا فضلاً عن ان الدخول إلى عالم مملوء بالتجارب

ومحفوف بالمخاطر يلزم صاحبه علماً ودراية ثم بعد الأخذ والرد الممل يقول الوالد أني أعهد هذا الأمر إلى أبي لأنه أدرى مني وبعد أن يفحم القسيس أباه تعهد المسئلة إلى سائر أفراد البيت كالأخ والعم والخال وابن العم وهلم جرا فيورد الفريق المرافق لوالد الفتى آيات من الكتاب المقدس وقصص الأنبياء وغيرها بوجوب زواج الصبي والصبية[1]. وبعد المطارحة والمناظرة بين الفريقين التي تضيق الصدور من ترددادها تعهد الوكالة إلى أبي الفتاة أيضاً وعندئذ يرضخ لمطلب الجمهور ويعطي الفتاة وفي اصطلاحهم (يشوفون الخير) ثم تأخذ النساء بالهلاهل التي تصعد إلى عنان السماء وبعده يقوم القسيس ومن معه فيدخلون خدر الخطيبة ويعقد القس عهد الخطبة فيضع في خنصر يمينها خاتماً دلالة على إنها أصبحت شريكة خطيبها بعد أن يسألها عن رضاها بالفتى وهل تقبله خطيباً ثم بعلاً لها ثم يتلو صلوة قصيرة تكون بمثابة فاتحة الزواج وكان سابقاً لا يسمح للخطيب أن يحضر في الخطبة وكان ينوب عنه القسيس أو والده، أما اليوم فأخذ يجلس بجانب خطيبته ويلبسها الخاتم بنفسه غير أن البعض لم يزالوا يجرون على العادات القديمة.

وبعد أن يتم عقد عهد الخطبة يقدم للحضور لفائف من التبغ (سكاير) وكانت العادة في القرن المنصرم أنه لا يجوز لأحد مدعوي الخطيب أن يدخن إذا قدم له لفائف تبغ في دار أبي الفتاة إلى أن تتم

---

(1) من أمثال العوام (زوج الصبي والصبية وفلتهم بالبرية) يريدون زواج الشاب والشابة ولو كانا لا يملكان شروى نقير، وهذا الفكر على جانب عظيم من الخطأ.

الخطبة وينال أهل الفتى وذووه مآربهم، أما اليوم فقد بطلت تلك العادة عند الكثيرين وأصبحت مرعية الجانب عند نفر قليل. ويعقب ذلك تقديم المرطبات والقهوة فيأخذ المدعون يتجاذبون أطراف الحديث وبعد مضي نصف ساعة أو أكثر يقوم الرجال والنساء ويذهبون إلى منزل الفتى يهنئونه بتحقيق أمنيته وهناك أيضاً يدخنون وتدار عليهم أطباق الحلوى والقهوة ثم ينتثر عقد المحفل ويذهب كل منهم إلى داره وهو جذل مسرور مما لقى من الحفاوة والإكرام.

وقبل أن يكون نهار الخطبة يرسل الخطيب إلى دار خطيبته طبقاً (صينية) تحوي رؤوس سكر يختلف عددها باختلاف الدرجة والمقام فإذا كان غنياً بعث بأربعة وعشرين رأساً أما إذا كان من المتوسطين فبأثنى عشر أو من الفقراء فسبعة أو خمسة أو ثلاثة على الأقل. وبعد الخطبة بيوم واحد يرسل أهل الخطيبة رأس سكر إلى بيت الخطيب معطر بماء الورد في إناءٍ مجلل بغطاء من القماش الفاخر المزركش ثم يأخذ كل من أهل الخطيبين يوزع الشربات على جميع المدعوين والمعارف والأنسباء والجيران فيتهافت الكثيرون منهم على شربه تهافت الجياع على القصاع لزعمهم ان من له بغية أو أرباً أو غاية تقضي له ولهذا يدعونه (شربة المراد) بيد ان كثيراً من متنوري العقول أخذوا ينبذون اليوم أغلب ما تقدم ذكره فراراً من القديم العقيم وتعلقاً بأذيال التمدن الحديث فضلاً عن المصارف الباهظة التي كانوا يتكبدونها عن طيب خاطر.

وفي الأسبوع التالي أي نهار الأحد التابع للخطبة يذهب الخطيب ويصحبه أبواه وأخوته وأخواته وانسباؤه وبعض معارفه إلى دار أهل الفتاة وبعد أن يجلسوا برهة يقوم الخطيب ومن معه ويهدون الخطيبة

هدايا بعضها نفيس جداً ثم يعودون فيقعدون ويمد لهم حينئذ سماط عليه من أنواع الفواكه الطيبة والأثمار اللذيذة والمشروبات الفاخرة وبعد أن يأكلوا ويشربوا مما قدم لهم يصرفون ساعة أو أكثر ثم ينثر عقد شملهم وكلهم السنة ناطقة بالشكر والثناء على أهل البيت والعادة أن تسأل النسيبات والجارات بتلهف عظيم وشوق شديد عن الهدايا التي تقدم للخطيبة في مثل هذا النهار لكي يتحدثوا بها ويذيعوا أخبارها.

وبعد مضي شهر أو أكثر يدعو الخطيب خطيبته وأهلها إلى منزله وهناك يقيم لهم مأدبة فاخرة وأحياناً يحضر آلات عزف وطرب لكي يطرب ضيوفه ومن بعد هذا يأخذ أهل الفتى والفتاة بالتزاور وكان يحظر على الخطيب في القرن الغابر رؤية خطيبته ومرافقتها أو الجلوس معها ومطارحتها الكلام قبل عقد اكليل الزواج، أما اليوم فأصبح كل من الفتى والفتاة يجالس صاحبه ويجاذبه أطراف الحديث من دون خجل أو وجل.

4- تفصيل جهاز العروس:

العادة عند نساء نصارى بغداد انه عندما يفصلن جهاز العروس تجتمع النسيبات والجارات والصاحبات في منزل والدة الفتاة ويهدينها بعض هدايا من أقمشة نفيسة وملبوس فاخر ودراهم وبعضهن يأخذن معهن مناديل مملوءة سكراً وأنواع الملبس يلقينها على جهاز العروس ويأخذن يهلهلن وعندما يفرغن من قطع الثياب بأن يصرفن زهاء ساعتين أو ثلاث ينفرط عقد اجتماعهن وتذهب كل منهن إلى منزلها مسرورة القلب منشرحة الخاطر مما لاقته من الحفاوة والإكرام واليوم الذي يجري فيه تفصيل الجهاز يجب أن يكون نهار الخميس لأن نساء أهل بغداد كافة يعددنه يوماً سعيداً ميمون الطالع ولا يجوز التفصيل في

غيره من أيام الأسبوع لأنهن يتطيرن من ذلك أشد التطير وتشاءمن منه كل الشؤم.

5- مراسم الزواج:

بعد أن تتم جميع استعدادات العرس وجهاز العروسة يجتمع أهل الفتى والفتاة معاً ويتداولون في بعض المسائل المهمة وبعد أن يتفقوا ويقرّ قرارهم يعينون يوماً للزواج المسمى بلسانهم (يوم البراخ)[1] يدعون إليه الأقرباء والأصحاب ببطائق قبل نحو ثلاثة أو أربعة أيام لحضور احتفال الزواج فيرسل المدعون حينئذ باطباق الحلوى (وهي الصواني) ونحوها وبعضهم يبعث بهدايا من الأقمشة النفيسة.

6- مسك العقد:

مسك العقد عند نصارى بغداد هو أن يذهب وكيل العروس إلى القسيس ويبلغه ان فلاناً قصد في هذه الليلة ان يقترن بفلانة وليصبحا زوجين شرعيين فيدون القسيس أسميهما ويتلو صلوة قصيرة لتكون بمثابة فاتحة عقد الزواج ثم ينصرف الوكيل ويخبر أهل العروسين بذلك ويعتقد الكثيرون أن من يمسك عقده بهذه الصورة يكون بمأمن من أعمال المشعوذين الأغرار كشد العروس ونحوه من الأمور القبيحة المستهجنة إذ تمسى بقوة الصلوة لا مفعول لها البتة على الأضرار بأحد العروسين وسيرد معنى (الشد) في السطور التالية.

---

(1) ذهب بعض الكتاب إلى أن البراخ لفظة عربية تحريف البريخ ومعناها المكسور الظهر وإدعاماً لرأيهم قالوا ان الزوجة بعد عقد النكاح تصبح أمة لبعلها وقال آخرون لا بل تحريف البرخ وهو الزيادة والنماء والحقيقة أنها لفظة سريانية معناها البركة.

7- ليلة عقد الأكليل:

في الساعة الأولى من ليلة عقد الأكليل يرسل أهل العروسين وفوداً إلى المدعوين حاملين بأيديهم مصابيح ليأتوا بهم إلى محل العرس وعند مجيئهم تأخذ الموسيقى[1] تصدح بأنغامها الشجية وبعضهم لا يكتفون بذلك بل يحضرون أيضاً آلات عزف وطرب كالسنطور والقانون والعود ويدعون ذلك چالغي[2] ليتخلل الموسيقى فيحدث من ذلك جلبة وضوضاء تصعد إلى عنان الفضاء وقد يطلب هذه العادة عند البعض وأبدلوها بالپيانو والحاكي أي (الغراموفون) أما الفقراء فيقتصرون على الطبل والزمارة فقط ويبقون مغنين إلى نصف الليل شاربين بعضهم نخب[3] بعض وهم يطربون وينشدون أناشيد خاصة بالعرس وبعضهم يسهرون إلى الهزيع الرابع من الليل أي إلى الفجر.

وكيفية شربهم الخمر هي كما يلي: يقوم ساقي المدام ويأخذ بيده زجاجة الخمر وكأساً ويطوف على المدعوين واحداً فواحداً وهو يهتف بأعلى صوته مع نخبة من أعوانه الذين يقتفون آثار خطواته فأحدهم يحمل بيده طبق المزة[4] وآخر منديلاً ليمسح به الشاربون أفواههم

---

(1) أشهر موسيقي بغداد اليوم هو حاكولي الإسرائيلي.

(2) كلمة تركية يراد بها المعازف أي الملاهي كالعود ونحوه.

(3) كاس من الخمر وغيره يشربها الرجل على صحة حبيبه أو على سر عشيره وبعض البغداديين يدعون تلك الشربة (سر المحبة).

(4) المزة بفتح الميم وتشديد الزاي عند العراقيين الأثمار والفواكه واللحوم والبقول والرواصير (الطرشي) التي تناولها الشارب ويأكل قطعة منها بعد شربه كل قدح من الخمر وقد وردت المزة في كتب اللغة بغير معناها المتداول عند أهل العراق وهاكها على سبيل الإطلاع:

المزة بفتح الميم وتشديد الزاي وفتحها الخمر اللذيذة الطعم سميت بذلك للذعها اللسان قال الأعشى:

وغيره قنينة مملوءة خمراً حتى إذا فرغت التي بيد الساقي يناوله إياها قائلاً: ((بسم فلان قوصين بلا حق صفوصن هَي هَبْ هَبْ هَبْ)) وهذه المناداة التي تسبق شرب قدح الخمر هي تحريف هذه العبارة التركية (بزم فلان قرتلسن براحق صاقلا سون هَي هَب هَب هَب)) ومعناها الحرفي ((صديقنا ليخلص بحق الله ليحفظ دائماً أبداً) فيرجع دوي أصواتهم وبصم الآذان ثم يقف الشارب وبيده القدح فيرفعه إلى فوق ويقول للحضور ((هذا مال عيونكم)) فيجيبونه بصوت واحد ((ألف هناء)) أو ((موسى جان))[1] هذا ويكنى ساقي المدام كلاً من الشاربين بكناية تنطبق عليه أشد الانطباق فإذا كان مثلاً عزياً كناه ((باركن باشي)) وإذا كان متزوجاً وله ابن أو ابنة كناه باسم أحدهما وإذا كان متزوجاً حديثاً وليس له ولد كناه باسم أبو غائب قوصن الخ وإذا كانت فتاة عذراء كناها باسم مدموازيل قوصن الخ وصفوة القول لا يدع أحداً من دون ان يكنيه بكناية حتى أبا العروسين والأشبين والعجاهن أي السرودج ويستمر على هذا السياق بين برهة وأخرى إلى نصف الليل أو حتى الفجر.

وقبل حفلة الأكليل يقوم عدد من المدعوين والأصحاب والأنسباء ويصحبون معهم الموسيقى أو الطبل إلى دار العروسة فيحمل أحدهم طبق الحناء والآخر شمعة العروس فيرقصان بهما في الطريق وينشدان مع الجماعة الأناشيد الرخيمة إلى أن يبلغوا داراها فتدخل النساء

نازعتهم قصب الريحان متكئاً   وقهوة مزة راودتها خضل

والمزازة مصدر وطعم بين الحلاوة والحموضة قال الحريري في مقامته البدوية:

لا أبالي مَن أي كأس تفوقـ   ـت ولا ما حلاوة من مزازة

(1) تحريف (نوش جان) وهي عبارة تركية فارسية معناها شارب الروح .

حجلة العروسة ويحنين أصابعها واصابع شبينتها ونسيباتها ومدعواتها وهنَّ يهلهلن وأغلب الحاضرين في حفلة الحناء من النساء والصبيان. وكانت العادة قبل نحو عشر سنوات أن يحنوا الأصابع والكفوف معاً ثم يعودون من هناك إلى منزل الرجل العروس وتأخذ أمه أو أحدى نسيباته بشرط أن لا تكون أرملة أو ثاكلاً تحني طرف بنصر كل من المدعوين رجالاً ونساءً وتلفه بمنديل أو برباط من قماش جديد ووراءها واقفة أحدى المعارف وبيدها كأس فضة مملوءة فيلقي فيها المدعو قطعة من النقود تختلف باختلاف الدرجة والمقام فإذا كان غنياً ألقى ليرة وإذا كان صانعاً ألقى ريالاً وإذا كان عاملاً ألقى نصف ريال أو ربعه وعلى الشبين والعجاهن أن يلقيا أكثر من غيرهما لكونها أسمى المدعوين منصباً وبعد أن يصرفوا ساعة من الزمان وهم على هذا المنوال يقوم الجميع ويذهبون إلى بيت الابنة العروس وبعد أن يقضوا ساعة أو ساعتين من هتاف الأفراح وأصوات الهلاهل والتبجيل وتقديم (السكاير) والشربات المربى والحلواء وغيرها من الفواكه والأثمار يحضر أحد القسوس بإشارة من أهل العروس إلى بيت العروسة لعقد أكليل الزواج وبعضهم يذهبون رأساً إلى الكنيسة هذا وإذا كان أهل العروسين من الأغنياء يحضرون مطراناً أو مطرانين وأحياناً ثلاثة وبعض القسيسين من طوائف مختلفة أما إذا كانوا من المتوسطين أو الفقراء فيقتصرون على قسيس واحد هرباً من النفقة الزائدة.

وإذ ذاك تزين العروس فأفخر الملابس وأثمن الحلي وان لم تملك شيئاً منها تستعير من نسيباتها أو من الجارات والرفيقات وكانت في السنين السابقة تجلى وقد بطلت هذه العادة منذ نحو ثلاثين سنة (راجع لغة العرب 3: 427).

أما العروس فقبل قدومه يرتدي أنفس حلله وكانت العادة عند أسلافنا وأجدانا أن يقف نخبة من الشبان حواليه منهم من يلبسه ثيابه ومنهم من ينشد الأناشيد المطربة بصوت رخيم وحتى الآن يوجد أغنية أرمنية الأصل من تلك الأناشيد مطلعها :

شنافور شنافور هزار شنافور اس تاكافوري هزار شنافور

ومعناها"

مبارك مبارك ألف مبارك لهذا الملك (العروس) ألف مبارك

(راجع لغة العرب 3: 542) وقد بطلت اليوم هذه العادة عند الكثيرين وهي جارية عند البعض وعندما يتم كل شيء يقف العروس بجانب عروسه ومن عن يمينه الشبين[1] وعن شماله السردوج[2] وقبل ان يبدأ القسيس بصلاة عقد الأكليل يسأل العروس أمام الجمهور: يا فلان أتريد فلانة زوجة لك فيجيب نعم يا ابتي ثم يلتف إلى العروس قائلاً لها يا فلانة أتريدين فلاناً بعلاً لك فتجيبه نعم وبعضهن لا يجبنه في أول مرة خجلاً وحياءً الا بعد ان يكرر السؤال عليهن بضع مرات فإذا أجابت يأخذ القسيس خاتم العروس ويجعله في خنصر العروسة وخاتم العروسة في خنصر العروس ثم يشرع بتلاوة صلوة الاكليل. وفي أثناء ذلك يقف المعارف والرفقاء وراء العروس فيخزه بعضهم بالأبر والدبابيس وهي عادة ذميمة ليس من ورائها أقل فائدة يفعلون ذلك

---

(1) وسميه العوام (القريب) لأنه اقرب الناس إلى العروس في ذلك الموقف وغيره.

(2) السردوج كلمة فارسية أصلها (سرده) ومعناها رئيس المنادمين لأن من وظيفة هذا الرجل في سابق العهد ان ينادم العروس ويعني بتقديم كؤوس الشراب للمدعوين. ونصيحة العجاهن، فقد قالوا في تعريفه هو صديق الرجل المعرس وهو معينه والرسول بين العروس وأهله في الأعراس.

ليبلوا بها صبر العروس في موقف خطر كهذا لأنه لا يستطيع إذ ذاك أن يفوه بكلمة فيحتمل وخز الأبر وهو ساكت على مضضها لا ينبس ببت شفة والأقرباء يحترسون كل الاحتراس من عقد رباط يسمونه (شد العريس) والشد في اصطلاحهم هو أنه إذا كان أحد الحضور عدواً أزرق للعروس وأراد أن ينتقم منه يعقد خيطاً في أثناء صلوة الأكليل ويكثر عقده ثم يحرقه أو يقف قفلاً ويلقيه بعدئذ في بئر أو نهر لغايات في نفس العدو وخيمة العاقبة على العروس[1] ولهم حكايات سخيفة في هذا القبيل ووقائع يستشهدون بها لمن له ذلك فعلاً لا محل لايرادها هنا. ومن الأمور التي لا ينبغي للعروس أن يغفل عنها طرفة عين هو أن يطأ برجله أحدى قدمي عروسه عندما يتلو القسيس صلوة الأكليل زعماً منه أنه بهذا العمل يسود عليها فتكون له خاضعة دائماً وتصبح من ثم طوع بنانه ورهينة إشارته، أما الذي لا يفعل ذلك فيقال عنه ان عروسه تمسى الآمرة الناهية القابضة على زمام مصالحه ويكون في نظرها كأحد أجرائها. وبعد أن يتم العقد يباركها القسيس ويدعو لهما بالرفاه والبنين والحاضرين يؤمنون والدعاء مثبت في كتب الزواج فليراجع ثم يقبل المدعون والأصدقاء والأقرباء أكليل العروسين ويقولون ((بلا ندامة تشوفون كل خير))، وعندئذ تقدم لفائف التبغ وتدار أطباق المربى والمرطبات وأقداح العرق وكؤوس ((الكونياك والبرندي والوسكي صودا)) ويأخذون ثم يهتفون قائلين بسم فلان قوصن الخ كما سبقوا فعملوا في بيت العروس.

---

(1) يقال عن فلان عن امرأته أي منع عنها بالسحر وكانت بعض النساء في الجاهلية يتعاطين الرقي لهذه الغاية والنفث في العقد من فنون السحر وكن يعقدن عقداً في خيوط أو في وتر وينفثن فيها أي ينفخن فيها مع لعابهن وقد جاء عنهن في سورة الفلق (أعوذ برب الفلق من شر النفاثات في العقد).

وبعد ان يقضي الحضور ساعة أو أكثر تقدم لهم القهوة المرة وهي خاتمة الأفراح المشعرة بالانصراف هذا وعندما يهم مدعوو العروس بالذهاب إلى دورهم أو إلى منزل العروس يحاولون اختلاس بعض أوان من على الموائد للمزاح مع أهل العروسة فإذا شعروا بها أخذوها قهراً لأن تلك السرقة الطفيفة تعد عندهم عيباً فاحشاً وان لم يشعر بالسرقة أهل العروسة يستهزئ بهم السارقون قائلين أننا لقد سلبناكم ابنتكم وبعش آنيتكم وأحياناً يحصل بعض مناوشات بين الفريقين إذا أصر السارقون على عدم إعادتها لأصحابها في فيتلافى أمرها العقلاء منهم وهذا لا يكون إلا في البيوت المتوسطة الحال أو التي دونها وأما في بيوت الكبار فلا يحدث شيء من هذا. ويتفق بعض الأحيان أن الأم إذا رافقت أبنتها العروس تستخرط بالبكاء لأنها لا تقوى على مفارقتها ويشترط بعضهم على الزوج ان يمكث في بيت والد الفتاة بعد الزواج إذا كانت الفتاة وحيدة لأبويها ويدعون ذلك الزوج (كعيدي) قعيدي أي مقيم في بيت أهل العروسة وهذا لا يحدث إلا نادراً لما يترتب عليه من العناء الجزيل والتعب الوافر لأن من أمثال نساء بغداد ((بنتي سعيدة عني بعيدة))، أما الابنة التي تتردد دائماً على بيت والديها بعد زواجها وتريد منهما كسوة ونفقة ونحوهما فتقول الأم عنها ((زوجتها حتى أخلص من بلاها راحت وجابت لي وراها)) وتريد بذلك زوجها وأولادها.

كانت العادة قديماً أن الرجال يرافقون العروس والنساء يرافقن العروسة، أما اليوم فقد تبدلت هذه العادة بتاتاً فأمسى العروسان يمشيان جنباً إلى جنب وبعضهم لا يكتفي بذلك فقط بل يضع يده في يد عروسه وهي تتبختر بثوبها الزاهي بلا غطاء أو كما يقولون (على الأفرنكة) والمدعون ينشدون في الطريق أنشودة خاصة بالنصارى

مطلعها (آخ بويه لرنده شوفوا العريس اشعنده) وهي عبارة نصفها تركية محرفة ونصفها عربية عامية أما القسم التركي فهو تحريف (آه بويار آل آلتنده) أو (آلده) ومعناه آه هذا هو الحبيب الحاضر أو المهيأ وأما القسم العربي فهو أنظروا ماذا يوجد عند العروس ويريدون بذلك شريكة حياته ومالكة فؤاده وتستعمل هذه العبارة عند نصارى بغداد خاصة في زف العروس إلى عروسه بعد دعاء الأكليل في الكنيسة أو في بيت أهل العروسة فيطوف من ثم مدعوو العروس واحباؤه وأخدانه بالرجل المعرس في الأزقة والشوارع المؤدية إلى مسكنه فيهتف بعضهم بالشطر التركي ويحييهم الآخرون بالشطر العربي ولا يزالون يكررون ذلك وغيره من الأغاني والأهازيج ويرددونها بصوت جهر وغيرهم يرقصون طرباً وبيد أحدهم شمعة كبيرة موقدة متخذة من شمع العسل يكاد يكون طولها نحو ذراعين حتى يبلغوا منزل العروس، وفي الطريق عندما يسير العروسان والمدعون يخرج بعض الأصدقاء والأصحاب الخُلص من دورهم وبأيديهم كلبدانات[1] فيرشون ماء الورد على رؤوس الجمهور وتهلهل النساء فرحاً.

وحين يصل القوم باب منزل العروس يذبح على عتبته تحت قدمي العروسة كبش تيمناً بقدومها وان لم يذبح كبش يضع العروس كيس دراهمه تحت قدمي العروسة فيدخل الجميع الدار وبعد أن يستريحوا قليلاً تدار عليهم أطباق الحلوى ونحوها ثانية وعندئذ ينهض نخبة من الشبان فيزفون العروس إلى عروسته بقولهم (شايف خير ومستاهلها) وهناك عادة ذميمة للغاية وهي أن أغلب المدعوين ينقسمون حزبين

---

(1) كلبدان وتجمع على كلبدانات تحريف (كل آب دان) الفارسية ومعناها إناء ماء الورد وفصيحها القمم ج القماقم.

حزب ينتصر للعروس وحزب يعاديه وبعبارة أخرى يمنع الفريق الثاني على قدر طاقته دخول العروس إلى حجلة عروسته وأما الأول فيعارضه أشد المعارضة ويفسح الطريق لدخوله ومن ثم يصير دفع العروس وجذبه كغنيمة ذليلة صاغرة أمام الجزار أو كمجرم أمام القاضي لا يعرف هل يخلى سبيله أم يحكم عليه بالسجن والعقاب فيبقى الفريقان يتناوشان نحو ربع ساعة أو أكثر وهم في لغط وهرج ولكم ورفس ودفع وجذب فكم وكم من الأضرار التي نتجت من ذلك لأن قد تصيب العروس ضربة تكون القاضية عليه وقد حدثني بعض الشيوخ ان عروساً لقى حتفه بهذه العادة ولم تزل (أرملته) حية ترزق وفي الأخير ينتصر الحزب الأول ويدخلون العروس إلى خدر عروسه بعد أن يكون قد أصبح كالكرة بأيدي اللاعبين بها يقذفونه حيث شاؤوا بعد أن ينال قسطاً وافراً من الضرب واللكم ثم ينفض الجمهور ويذهب كل إلى منزله وأغلبهم لا يعي شيئاً من شدة ثمله هذا ولا تسأل عما يحدث لأهل العروسين في تلك الليلة من القلق والاضطراب فتراهم (فضلاً عن التعب والمشقة والمصاريف التي يتكبدونها عن طيب خاطر) يقظين محترسين دائماً لئلا يقع بين المدعوين السكارى بعض منازعات وخصام لا تحمد عقباه وكثيراً ما تتدارك هذه الأمور الحكومة إذ ترسل من قبلها بعض أفراد الشرطة لتسهر على راحة الحضور وتقمع بيد من حديد مثيري الفتن والدسائس.

وهناك عادة أخرى لا تقل فظاظة وطياشة وسوء أدب عن الأولى وهي أنه لا يهنأ عيش للعروسين في تلك الليلة أو التي تليها إذ يرى يبقى انسبائهما واقفين على باب الغرفة وآخرون جالسين بحذائها وغيرهم متفرقين هنا وهناك وكلهم في الانتظار. بيد أن بعض متنوري حاضرتنا

أصبحوا اليوم لا يرضون لأنفسهم بهذه المذلة والمهانة فأخذوا يذهبون بعد دعاء الأكليل رأساً إلى ظاهر المدينة ليقضوا ((شهر العسل)) في أحد قصورها. ومن عاداتهم أيضاً ان يضعوا تحت فراش العروسين قدراً وافراً من الملبس ونحوه يوزع في اليوم الثاني على الشبان والشابات بدعوى أنه (ملبس المراد) فيتهافت عليه الجميع تهافت العطاش على نهر ماء في الرمضاء وقد جاء في كتاب Little Londoner ان لبعض قرويي جزاء بريطانيا العظمى عادة تشابه عادتنا هذه كل المشابهة وهي أنه يوضع مقدار من المبس تحت وسادة العروسين في اليوم الثاني يوزع على الأصحاب والصويحبات فلست أدري هل العراقيون اقتبسوا هذه العادة من الابريطانيين أو الابريطانيون من العراقيين وربما لم تقتبسها أحدى الامتين من الأخرى بل هي عادة قديمة لبعض الشعوب الغابرة والأقوام المنقرضة فاقتبسها الفريقان.

ومما لا بد من ذكره هو أنه كان عند أسلافنا في القرن الغابر عادة وهي ان الحماة ترسل إلى صهرها ليلة زفاف العروسة إلى خطيبها طبقاً مملوءاً من الطعام المريء والفواكه اللذيذة ليأكل منه العروسان ويصبحا شريكي حياةٍ لا يخون أحدهما صاحبه مدى العمر، ويعتقد اليوم عموم الشرقيين ان الذي يأكل خبز وملح رفيقه لا يحسن به أن يخونه أبداً وهذا مما يدل على ان الأم تقصد بذلك اعتناء العروس بعروسته ولكي لا يهضم حقوقها بتعديه عليها أحياناً، بيد أن اليوم أغلب العادات المار ذكرها قد بطلت عند أغنياء المسيحيين وأدبائهم وأصبحت في خبر كان الا انها لم تزل جارية شائعة عند الطبقات الوسطى والسفلى منهم وقد رسخ في أذهان عموم نصارى العراق انه لا

يمضي هذا الجيل الا وتلغى جميعها لاستغناء الناس عنها في عصرنا هذا عصر النور والمدينة والاقتصاد والتوفير والتشبه بالمتحضرين.

وفي يوم التالي المسمى بيوم الصبيحة[1] ينفح الزوج زوجته بصرة من الدنانير ثم يحضر الأهل والمعارف وبعض المدعوين ويقدمون للعروسة هدايا من نقود ونحوها والعادة هي أن تقبل يد كل من يأتها بهدية إقراراً بفضله. وفي مساء ذلك النهار يبعث أهل العروس بالموسيقى والطبل لإحضار مدعوات العروسة من دار والديها ويسمونهن (الاخناميات)[2] وبينهن الملقنة ليتناولون وليمة العشاء وغالباً يصحبن معهن الحملة أي جهاز العروس الذي هيأه لها أبواها ويكون باحتفال باهر وموكب خطير فيطوفون به في الشوارع والطرق والأسواق والموسيقى تصدح بأنغامها المطربة وهي بمثابة إعلام للناس ليشاهدوا الزفة أو ما أهدى والدا العروس لابنتهما والحملة تشتمل أكثر الأحايين على صندوق نفيس من خشب بلاد الهند أو كانطور[3] ومرآتان كبيرة وصغيرة وبعض أدوات المنزل والحمام من كراسي وقنپات ولقن وكؤوس ونحوها من الاثاث فضلاً عما يوجد في الصندوق من الثياب الفاخرة المزركشة والرياش الجميلة وبعضهم يرسلها قبل ليلة عقد الأكليل الزواج بدون حفلة هذا إذا كانت مقتصرة على بعض الأدوات غير الثمينة وعلى أهل العروس ان يدفعوا نقوداً إلى حاملي جهاز العروسة عندما تنقل إلى دارهم.

---

(1) الصبحية نسبة إلى الصبح وهي عند العامة ما يعطى للعروسة في ثاني صباح ليلة الدخول بها.

(2) جمع اخنامية راجع لغة العرب، 3: 541.

(3) الكنطور خزانة ذات طبقات ومجرات تصان فيها الثياب والألبسة وعلى طول الباب من الخارج مرآة كبيرة، والكلمة مصحفة عن الفرنسونية (كومود).

وفي صباح اليوم الثالث يأتي القسيس أو المطران الذي عقد أكليل الزواج فيبارك العروسين ويرفع رباط الأكليل من على رأسيهما ورأس الشبين أيضاً ويكون الرباط أما قطعة من القماش الفاخر مزركشة أو مطرزة بخيوط من القصب المذهبة وأما دبوس ذهب ذا رأس الماس كان يعلق سابقاً بعمرة العروس، أما الآن فقد أخذ البعض يعلقونه بصدر العروس ورأس العروسة وبعد ذلك يُعطى القسيس حلواناً ويرسل إلى محل إقامته طبقاً من الحلوى أو منديلاً من الملبس ويقدم أيضاً إلى القندلفت الذي يقوم بخدمة القسيس حلواناً وملبساً لأن من وظيفته ان يصحب سيده في حفلة الأكليل ويضرب الصنجين الواحد بالآخر قصد الإيقاع على نغمة نشيد الصلوة. ويعقد الزواج غالباً في مساء نهار الأحد وبعد أن يمضي على الاقتران أربعة أيام أي في مساء نهار الخميس يدعو أبو العروس صهرهما ووالديه وأخوته وأخواته وبعض الأنسباء إلى دارهما ويقيمان لهم مأدبة ويحضران لهم آلات طرب وعزف ليطربا المدعوين ثم يخلع الحم والحماة على صهرها وابنتهما بعض الخلع السنية والعادة هي ان يقبل العروس رأس حماته قبل ان تخلع عليه خلعته وأيضاً يخلع على العروسين بعض أفراد البيت كالأخوة والأخوات والعم والخال والعمة والخالة وباقي أفراد الأسرة.

وفي صباح اليوم السابع أي يوم الأحد يذهب العروسان إلى الكنيسة لاستماع القداس ويصحبهما جماعة من الرجال والنساء ويقدم ذلك القداس على نفس أحد الأهل أو الأقرباء المتوفين وكانت العادة سابقاً ان يجلس العروس إلى جانب الرجال والعروسة إلى جانب النساء، أما اليوم فقد أخذا يجلسان معاً في صدر الكنيسة وفي منتصف الصلوة

يأتي الواقه[1] أو القندلفت[2] أي الساعور[3] وبيده صينية من فضة أو نحاس لجمع حسنات الشعب فإذا كان العروسان من الأغنياء يهدي كل منهما ليرة أو أكثر وإذا كانا من المتوسطين يقدم العروس نصف ليرة أما إذا كانا من الطبقة الثالثة أي من الصناع والعمال ونحوهم فيدفع العروس ريالاً (مجيدياً) على الأغلب والعروسة نصف ريال أو ربيه (أي فرنكين).

وفي مساء ذلك النهار يدعو أهل العروس أهل بيت العروسة ويقيمون لهم مأدبة وبعضهم يحضر آلات طرب تشنف الأذان بأطيب الألحان وبعد أن يقضوا زهاء ساعتين أو ثلاث ينفض المحفل فيذهبوا إلى دارهم، وبعد هذا الاجتماع يأخذ كل من الرهطين بالتزاور: وكانت العادة قديماً أن بيت أبوي العروس يرسل بطعام نحو سنة لابنتهما، وأما اليوم فقد بطلت بناتاً لما يترتب عليها من الغبن الفاحش والتعب الوافر. ومن العادات أيضاً أن الشبين أي القريب يدعو العروس ونخبة من أصحابه إلى الحمام قبل ليلة الاقتران وهناك يستحمون ويحلقون ويقدم لهم أطعمة وبعض المشروبات هذا فضلاً عن النقود التي يهديها إلى العروسة في نهار (الصبحية) بيد ان ذلك يعد بمثابة دين لأن الشبين إذا قدم على الزواج يقوم العروس برد المثل له وإذا لم يفعله لداع من الدواعي فعلى أولاده وحفدته أن يفوا ما على والدهم وجدهم لأسرة الشبين ولو بعد حين وقد بلغني أن أسرة كريمة المحتد اقترن احد

(1) الواقه قيم البيعة.

(2) القندلفت لفظة يونانية وهو خادم الكنيسة.

(3) الساعور عند نصارى العراق خادم الكنيسة وقد ذهب بعضهم إلى أن اللفظة آرمية الأصل معناها الزائر، والمُعتقد أو لعلها عربية الأصل من سعر النار إذا اشعلها لأن من وظيفة الساعور اشعال الشموع والقناديل في الكنيسة.

أفرادها منذ نحو ثلاثين سنة فعند اقتران حفيد الشبين صاحب الأيادي البيضاء عليها انتهزت الفرصة وقامت بالواجب المطلوب منها وقد أخذ ظل هذه العادة يتقلص رويداً روياداً. وكان العروس سابقاً لا يذهب إلى محل وظيفته أي لا يعمل عملاً ما الأسبوع الأول من زواجه، أما اليوم فأصبح الكثيرون يكتفون بثلاثة أيام فقط وبعد الاقتران بخمسة عشر يوماً أو بشهر على الأكثر يجب على العروسين أن يزورا جميع المدعوين والأقارب والأصحاب ترافقهما أم العروس وبعض النسيبات وفي كل دار تطأها أقدامهم يحتفون بهم احتفاء شائقاً ويمدون لهم سماطاً عليه من أنواع الفاكهة والأثمار والملبس شيء كثير وبعض الأصحاب الخلص يهدون هدايا نفيسة إلى العروسة وهذا يكون خاتمة مراسم العرس وبعده يمسي العروسان كسائر أفراد البيت.

8-الحماة والكنة:

منذ ضربت القبة الزرقا ومشى ابونا آدم على بساط الغبراء نشأت العداوة والبغضاء بين الحماة وكنتها وعليه نرى أغلب الأحايين لا يمضي على زواج الشاب والشابة الا بضعة أسابيع ويحدث بين أفراد الأسرة ما يقلق الأفكار ويزعج الخواطر لا تتقشع غيوم النزاع والخصام المتلبدة الا بالافتراق والانفصال وقد أخذ بعض أدباء حاضرتنا يعتزلون عن والديهم عند اقترانهم هرباً من القيل والقال. وإذا كانت الحماة والكنة حكيمتين فإنهما تعيشان عيشة سعادة وسرور طول حياتهما وإذا كانتا بالعكس أصبحتا سبب تعاسة وشقاء وقلق واضطراب لسائر أفراد البيت والحماة عندما تتنازع مع كنتها تدعوها (عقربة الفراش) وقد فاتنا أن نذكر أن الحماة تستقبل كنتها عندما تلج باب دارها بقولها ((عشت وجيت يا كنينتي كل قدم المشيتينو على عوينتي)) فلا تجيبها

الكنة حياءً وخجلاً ولكن لسان حالها يقول ((جيت وجبت الموسى بجويبتي وحلق شعفتك يا مهمودة الشيبة)) هذا ما يقوله عجائز الحي في مدينتنا إذا حصل لهن أدنى مكروه من كنائهن.

9- نتفة من عادات زواج القرويين المقمين في بغداد:

لا تختلف مراسم الزواج عند البغداديين والقرويين[1] من النصارى إلا في بعض المسائل منها ان الرجال والناس يرقصون معاً في دائرة واسعة يدعونها بلسانهم (چوبي)[2] وعندما ينتظم صفهم يقبض كل منهم بيد رفيقه ويأخذون بالنزوان على الأرض وهم يدرون دوراناً والطبل يضرب فيزيدهم حركة وهجياناً وكم من الآفات الأدبية نتجت وتنتج من ذلك الازدحام والاحتكاك فأن الرجال يكون معظمهم سكارى ان لم نقل كلهم وأغلبهم لا يعون شيئاً من شدة ثملهم وقد لعبت في رؤوس النساء والفتيات نشوة الطرب ودبت في عروقهن الخفة والنشاط

---

(1) يراد بالقرويين التكليفيون والاقوشيون والعينكاوليون وأهالي زاخو وبطنايي وتل اسقف وغيرهم الذين يأتوننا من شمال الموصل.

(2) الچوبي رقص يرقصه التلكيفيون الآراميو الأصل الذين كان يعرفهم العرب باسم (النبيط) والكلمة فارسية الأصل مقطوعة من (پاكوبي) ومعناها الرقص أو الرقص على دق الطبل أو الكوبة ويقابلها عند العرب الأقدمين بهذا المعنى: الفنزج. قال في التاج: الفترج والفنزجة: النزوان. وقيل: هو اللعب الذي يقال له الدستبند يعني به رقص المجوس. وفي الصحاح: رقص للعجم يأخذ بعضهم بيد بعض معرب پجه. والشد قول العجاج: ((عكف النبيط يلعبون الفنزجا)) وقال ابن السكيت: هي لعبة لهم تسمى بنجكان بالفارسية = =فعرب وعن ابن الاعرابي: الفنزج لعب النبيط إذا بطروا اه. وقال السيد المذكور مادة عكس: الدعكسه لعب للمجموس يسمونه الدستبند ... يدرون وقد أخذ بعضهم يد بعض كالرقص وقد دعكوا وتدعسكوا. قال الراجز:

طافو به معتكسين نكسا عكف المجوس يلعبون الدعكسا

اهـ. قلت: ويدل هذا الكلام على أن عادة الچوبي قديمة في العراق وقد أخذها النبيط (أي التلكيفيون ومن كان من أصلهم) من الفرس لمجاورتهم إياهم.

فيجهدن أنفسهن حتى يصبحن خائرات القوى منهوكان الأجسام ومما يزيد الراقصين والراقصات انفعالاً وهياجاً الأنشودة التي ينشدونها في نزوانهم ويدعونها بلسانهم (خگة) ومطلعها:

لي گله گله وليلة حنا لحمله   اي گله گله گله إيكازالغ نوبله

هذا ولم غير أناشيد منها آرمية ومنها عربية عامية التي مطلع أحداها كما يلي:

يـم (يـا ام) الثـوب داريـه[1]   دار الهـــــوا عليـــــــه

يـــم الثـــوب عكروســـي   يمـــه ضـــيعت افلوســـي

كلكـــــم ردوا عليـــــه   كـــــل مصـــباح ريـــه

وكم من مرة سعى الرؤساء الروحانيون لإلغاء هذه العادة القبيحة المنهي عنها ديناً وأدباً ولم يفلحوا الا قليلاً والأمل معقود بناصية عقلاء أولئك القوم وأدبائهم بأن يتلافوا هذه المسئلة الخطرة ويبطلوها بحنكتهم السامية ودرايتهم الباهرة وليس ذلك على همتهم الشماء لو أرادوا بعسير.

وعندهم أيضاً عادة أخرى غريبة في بابها لا أدري ممن اقتبسوها وقد طالعت كتباً كثيرة عن عادت قدماء اليونان والرومان والهنود الصينيين واليابانيين والزنوج والبابليين والكلدانيين القدماء لعلي أعثر علي مثلها لاسندها إليهم فلم أعثر.

---

(1) الدارية ثوب واسع جداً تلبسه بعش نساء العراق في الصيف والفظة عربية تصحيف الدارة وهو الواسع من كل شيء.

يجتمع المدعون معاً في دار أهل العروس قبل العرس بأيام قلائل وينتخبون لهم عزباً يدعونه ((اركن باشي)) أي العزب الكبير أو شيخ الأعزاب ويريدون بذلك مقدم العزاب ورئيسهم. وصورة انتخابه هي ان يقوم أحد الأعزاب ويقول أني اتبرع بمبلغ من النقود هذا عدده لكي اتقلد مقام وزمام (الاركن باشي)) فإذا وجد بين الحاضرين من يريد ان ينافسه يزيد قدر النقود حتى تنقطع الزيادة على أحد الحضور وأكبر هبة قدمت في هذا الشأن حتى الآن لم تتجاوز الخمس الليرات. وقد روى لي بعضهم أن شاباً هزته الأريحة فقدم في منديل من حرير مئة وخمسين ليرة دفعة واحدة لكي لا يقوى أحد رفاقه على منافسته غير أن أهل العروس أبو ان يقتلوا هذه الهدية فردوها إلى صاحبها بعد انقضاء أيام العرس إذ عدوا ذلك غبناً فاحشاً واختلاساً في رابعة النهار. ومن يحز هذا المنصب يصبح المقدم بين جميع أقرانه الشبان الأعزاب لأن ذلك مما يوجب الافتخار والتنويه بأريحيته وكرمه الحاتمي.

وفي اليوم السابع عندما يدعى الصهر ومدعووه إلى بيت حميه وبعد ان يطربوا ويأكلوا ويشربوا أقداح العرق كفاية أو بافراط وتلعب سورة الخمر في رؤوسهم ويدب دبيب بنت الكرم في افئدتهم يقوم في وسطهم (الاركن باشي) أي شيخ الأعزاب خطيباً مفوهاً فيقول: تعلمون جميعكم أيها الأخوان الأصفياء والرفقاء النجباء الألباء ان من الواجب الذي لا مفر منه على المتزوج حديثاً ان يقاصه اصحابه قصاصاً شديداً لخرقه قوانين جمعية العزاب ولعل هذا العمل لا يروق عين عروسه وحماته فعليها ان تفدياه بالمال أو بالعطايا فأجلبوه إلى هاهنا لننكل به اشد التنكيل ونذيقه من ضروب العذاب الواناً فتقع هذه الكلمات كالصاعقة على قلب ذويه ولا يكاد يفرغ من خطابه هذا حتى يجلب

العروس مكتوف اليدين ذليلاً صاغراً فيضجعونه على الأرض ويربطون رجليه ويرفعونها إلى فوق فيأخذ ((الأركن باش)) ومن معه العصي ويضربونه على أقدامه ضرباً مؤلماً ويسمون ذلك فلقة[1] فالبعض منهم يحتمل آلام الضرب وهو ساكت لا يبدي حراكاً لأنه إذا تذمر أو تأوه بعد ذلك عيباً كبيراً ولا يحسب عندهم رجلاً شجاعاً صبياً وبعضهم لا يقوى على احتمال الضرب فيصرخ صراخاً إليماً ويستغيث وليس من مغيث لأن معظم الضاربين سكارى قد فقدوا شعور الحلم والرفق والرقة فيأخذون يقهقهون ساخرين من المضروب لشدة ضعفه وخوفه. فتأتي الحماة إذ ترى عيني ابنتها تذرفان دمعاً غزيراً وتتوسط بينه وبين رفقائه فيكفون عن ضربه بعد أن يكونوا قد استوفوا قسطهم من الضرب وحينئذ تقول لرئيس العزاب ما هي طلبتك يا ترى فإنها مقضية فيجيبها أني أريد عرقاً وكونياكاً ودجاجة مقلية وكبشاً محشياً باللوز والكشمش وسمكة بالفرن معطرة بالتوابل ووليمة فاخرة و... و... و... فترضخ لأمره وتذعن لاكثر مطالبه مضطرة لأنها لا تقدر ان ترى عذاب صهرها لرقة شعورها وشفقتها على من قد أصبح بمنزلة ابن لها فتقدم له قدراً وافراً من قوارير العرق والخمر وتقيم له مأدبة في الأسبوع التالي إذا كانت غنية ويأتي صاحبنا هو ومدعووه يشربون الخمر الفاخرة ويأكلون الأطعمة المريئة. غير أن المتبغددين من القرويين

---

(1) الفلقة واحدة الفلق وهي خشبة فيها ثقبان قد أدخل فيهما رأسا حبل متين بعد أن يعقد فيهما لكل لا يخرجا منهما ثم تدخل رجلاً من يريد ضربه ويلف عليهما الحبل حتى تعصيا فيه وقد قبض على كل من رأسي الخشبة رجل شديد وأمامهما ثالث يضرب المضجع ضرباً عنيفاً وهذه الفلقة مستعملة إلى يومنا هذا في بعض كتاتيب العراق أما في مدارسه الكبرى فقد ألغي استعمالها اللهم إلا إذا مست الحاجة إليها وهذا نادر والنادر لا يقاس عليه.

يستنكفون اليوم من تلك العادة القديمة أشد الاستنكاف وينحون باللائمة على من يأتيها لعلمهم بسخافتها وبطلانها.

هذا وهناك غير عادات منها أنهم في رقص الچوپي يلصقون دراهم في جباه الراقصين والراقصات فيأخذها الطبال أو الزمار فإذا كان النقد الملصق ليرة أو مجيدياً يرد إلى صاحبه بعدئذٍ فيعطي بدلها نقداً أقل منه ثمناً وهذه العادة ليست خاصة بالقرويين بل تشمل البغداديين أيضاً في رقصهم (البولكا) Polka. ومنها فتح الباب وهو في اصطلاحهم ان يرسل أهل العروس إلى أهل العروسة دراهم لكي يدفعونها إلى حاملي جهاز العروسة عندما تنقل إلى دار العروس ومنها أن بعضهم يخطف الأكليل من رأس العروس والعروسة عند سنوح الفرصة فيضطر أهل العروسين ان يسترداه بتقديم قنينة خمر أو مندل مملوء سكراً وملبساً.

وفي نهار الصبحية يحضر أهل العروس عرقاً في كؤوس ولحماً مفروماً (كباباً) فيقدمون منهما إلى المدعوين وبعد أن يشربوا من الخمر ويأكلوا من اللحم يهدون إلى العروسة نقوداً. ولما يقبل الصهر رأس حماته تهديه دجاجة وهذه العادة جارية عند الطبقة الفقيرة منهم وهناك غير ما ذكر فاكتفينا بهذه حباً بالإيجاز.

وقبل ان أمسح القلم من المداد أقول أني لم أقصد في مقالي هذا الطعن أو القذف أو الحط من كرامة أخواني النصارى من بغداديين وقرويين الذين عزهم عزي وشرفهم شرفي بل جل منيتي الصدق في الرواية وكفى بذلك شاهداً على خلوص النية والسلام.

رزوق عيسى

3-المعاهد الخيرية النسوّية القديمة في العراق[1]:

يراد بالمعاهد الخيرية القديمة والمؤسسات الاجتماعية المنشأة لخدمة الدين والمجتمع والثقافة وخاصة الثقافة المعتمدة على علوم الدين من مدارس ودور كتب ومارستانات أي مستشفيات وربط عرفت أيضاً بالخانقاهات والخانكاهات أي التكيات وجوامع ومساجد. ووصفها بالخيرية يطبعها بطابع الفردية أعني أن أفراداً من الأمة ينشئونها بصفتهم الشخصية لاستجلاب الثواب في الآخرة واكتساب الثناء الحسن في الدنيا أيضاً وهذا الضرب من الاتجاه إنما هو من محاسن الدين فلولا إيقان المنشئ منهم والمنشئة منهن بحصول المكافأة على الأعمال والأفعال بالثواب أو العقاب ما أسست تلك المؤسسات الاجتماعية التي ذكرت أسماءها ولحرم المجتمع ما نتج منها من منافع ومحاسن وخدمات كما يقول العصريون اليوم.

وتقدر قيم تلك المنافع بالنسبة إلى عصرها أيام لم تكن الدول الإسلامية ملزمة بنشر المعارف على اختلاف أنواعها ولا بالمحافظة على صحة الأمة، ولا بإيواء الفقراء المنقطعين إلى العبادة ولا غير ذلك من المنافع العامة إلا بمقدار ما تريد هي من الأجر والثواب اللهم إلا تأسيس الجوامع لصلاة المسلمين فيها أيام الجمع والا ما يمس مصلحة الشعب في المعاملات الدنياوية كالحسبة التي هي أصل سليم لما عرف

---

(1) مصطفى جواد، المعاهد الخيرية النسوية القديمة في العراق، مجلة كلية الآداب والعلوم(بغداد)، العدد الأول، حزيران 1956، ص44-64، هذا مع العلم أن البحث برمته يتعلق ببغداد، وإن نشره مؤلفنا باسم العراق، لذا فقد نشرناه هنا لتعلقه بموضوعنا (المؤلف).

في أيام الأتراك بالبلدية وقام مقام (المحتسب) رئيس البلدية. وكانت الحسبة مع ذلك من الشؤون الإدارية لا من المعاهد وما حملته لنا الأخبار من إنشاء جماعة من الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء من معاهد خيرية إنما انشؤوه بصفاتهم الشخصية لا صفاتهم الحكومية ولذلك وشحوا معاهدهم بالأدعية التي تستنزل لهم من الله الرحمة والغفران والعفو والإحسان في الدار الآخرة.

والمعاهد الخيرية النسوية القديمة بالعراق قليلة لضالة دور المرأة في المجتمع في العصور الإسلامية القديمة ولضخامة النفقات وكثرة الأموال التي تنفق في إنشاء المعاهد المذكورة وكانت الثروة المالية محتكرة في العصور التي أشرت إليها أكثر مما هي عليه الآن. فالأثرياء الأغنياء عدتهم قليلة جداً ولذلك يجب أن نولي وجوهنا شطر نساء الخلفاء والسلاطين والأمراء قبل غيرهن عند البحث عن تأريخ هذه المعاهد الخيرية، وينبغي أن لا يفوتنا ان إنشاء المعهد الخيري كان يتأدى إلى الزوال ما لم توقف على المعهد وقوف أي أوقاف تكفل باستدامة المنفعة الاجتماعية منه وهذا يصور لنا مقدار العسر والصعوبة في الإنشاء من حيث هو نوع من الصدقات الاجتماعية الدارة المستدامة المستمرة. وكثير من المعاهد الخيرية زالت بعد انشائها لأنها لم تضمن استدامتها بالأوقاف ومنها ما زال باستيلاء الظلمة على أوقافه أو أمرهم بهدمه انتقاماً.

وأول ما ظهر من المعاهد الخيرية النسوية أي التي من إنشاء النساء هي (المارستانات) أي المستشفيات لأن الفقراء كانوا أحوج إلى حفظ أبدانهم من الأمراض والعلل منهم إلى حفظ عقولهم من الجهل والخطل ولا يقال هاهنا ان حفظ عقولهم من الخطل قد ينفي عن

أبدانهم العلل لأن الأمية والخرافات والجهل هي الصفات الغالبة على المجتمع يومئذ فالنساء خاصة كن مثلاً يعتقدن ببغداد في خلال قرن كامل أي مئة سنة أن مرض الخواتيق أي الدفتريا تقوم به جنية أسمها (أم عنقود) لأن أبنها عنقود مات ولمل تقم له نساء بغداد مأتماً ولا غراء فالشعب كان يحتاج إلى ملايين دنانير ومئات سنين لتعليمه وتثقيفة الثقافة التي تقفه على طرائق حفظ الصحة وتنجيه من الخرافات.

وأول مارستان نسوي (أي-مستشفى) أسس ببغداد هو مارستان السيدة شغب (بسكون الغين) ومنهم من يسميها شغب (بفتح الغين) واشتهرت بلقب -السيدة- على الإطلاق فإذا قيل في التأريخ (السيدة) قد أريد به (شغب) المذكورة. وهي زوجة الخليفة المعتضد بالله وأم الخليفة القتيل المقتدر بالله. ففي المحرم من سنة306هـ في خلافة ابنها المقتدر أمرت بفتح مستشفاها في سوق يحيى على دجلة من الجانب الشرقي ببغداد وكان سوق يحيى على تقديري في محلة السفينة بالأعظمية الحالية وقد تولى فتحه وترتيب الأطباء فيه (سنان بن ثابت الصابي) أحد كبار الأطباء المشهورين وكان مبلغ النفقات الشهرية عليه ستمائة دينار[1] أي ما يعادل ستة آلاف دينار من دنانير اليوم من حيث القيمة الشرائية للدينار. وذكر بعض المؤرخين أن نفقات المارستان السنوية كانت سبعة آلاف دينار[2].

ومختصر سيرة السيدة شغب أم الخليفة المقتدر بالله مذكور في الجزء الأول من كتاب (سيدات البلاط العباسي). وقد ذكرت فيه ان

---

(1) ابن الجوزي في المنتظم، ج6، ص146؛ وعيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1، ص22.
(2) ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج3، ص193.

أسمها الأول (ناعم) فلما ولدت للمعتضد أبناً وهو جعفر المقتدر سماها -شغب- فكأنها كانت شغباً على سائر نسائه[1] وكانت من ذوات السير الحافلة بالحوادث والأعمال ولم تكن سيرتها أقل شأناً من سير كبريات النساء في العالم من ملكات ومتحكمات ومشاركات في السلطة أو منتزعات لها.

وفي أواسط القرن الخامس من الهجرة ظهر في العراق نوع جديد من المعاهد الخيرية اقتضته طبيعة التطور الاجتماعي وهو إنشاء المدارس الليلية المنفقة والربط الصوفية الوقفية أي الخانقاهات. أما المدارس فأمرها معلوم وأما الربط فهي مساكن موقوفة على جماعات نذروا أنفسهم للعبادة ورغبوا في الزهد عن الدنيا ورابطوا فيها لمحاربة أنفسهم أي عواطفهم لأن النفس عندهم هي العدوة الكبرى. وكانت الربط من المعاهد الثقافية أيضاً فكان المتصوفون يؤلفون فيها ويدونون الحديث ويسمعونه ويدرسون ويحدثون بالحديث النبوي الشريف وغيره وينشدون الأشعار ولي مقالة طويلة في تأثير الربط في الثقافة الإسلامية نشرتها في مجلة (سومر) أوضحت فيها ذلك كل الإيضاح[2].

ومن الأمور التي لا شك فيها ان خلفاء بني العباس المتأخرين ومن لف لفهم من السلاطين والملوك كنور الدين وصلاح الدين أقبلوا على التمسك بالدين والقيام بفرائضه والواجبات له والدفاع عنه بعكس أكثر أسلافهم الذين اشتهر عنهم شراب الخمر باسم النبيذ واللهو باسم الغناء والفن والعبث باسم المجون فلا نبيذ ولا غناء ولا لهو ولا لعب من

---

(1) سيدات البلاط العباسي، ج1، ص88.

(2) سومر، مج10، ج2، 218-249، سنة 1954.

الألعاب التافهة عند المتأخرين وذلك إنهم أيقنوا ان ابتعادهم عن الدين أنـزل علـى رؤوسـهم المصائب والنكبات وسـلط عليهم الأجانـب وأورثهـم الذلة والقلة بعد العـزة والكرامـة بله أنـه منـاقض لما تصبوا أنفسـهم مـن أجله من كونهم نواباً عن الله في أرضه وخلفاء نبيه أو نواباً عن نوابه.

وفي الحـق ان مـن حماقـة الحـاكم باسـم الـدين أو المحصـل شـرف الأسـرة بـه أن يتجـافى عنـه أو يخل بـه أو يهـاون بـه وهـو يعلـم ان الـدين مصـدر حكمـه أو منبـع شـرفه، فالأمـة لم تولـه الحكـم أو لم تـرض بـأن يكون حاكماً أو لم تعتقد به الشرف الا لرعايته الدين وأجرائه أحكامه أو تأدبه بآدابه وكونه قدوة للناس في الأخذ بـه. أجل ان ذلـك مـن الحماقـة الحمقاء لو كانوا يعلمـون فالأمـة تعلـم الطيـب مـن الخبيـث ولسـان الأمـة لسان الله عز وجل.

هـذا ونحـن إذا راعينـا التسلسـل الـزمني في تعـرف تـأريخ المعاهـد الخيريـة النسـوية ظهـر لنـا اسـم السـيدة (تركـان خـاتون بنـت طـراج) مـن ذرية أفراسـياب ملـك الفـرس القـدماء وهـي زوجـة السـلطان ملكشـاه بـن الب أرسلان السلجوقي وأم ابنه محمود. ففي سنة (485) أمـر السـلطان ملكشاه هـذا ان يُبنـى في دار السـلطنة السـلجوقية بـالمخرم (أي العلوازيـة الحاليـة) سوق للتجارة والشؤون الأخرى كالصباغة وخانـات للتجـار ودور لهـم وجـامع لصـلاة الجمعـة لأن دار السـلطنة كالمدينـة المسـتقلة وإذا استقلت المدينـة استحقت الجـامع شـرعا. وأمـرت زوجتـه تركـان خـاتون ببنـاء (دار ضـرب) أي سـكه خانـه هنـاك ونـودي ببغـداد أنـه لا يصـح التعامـل إلا بالـدنانير. وأمـرت أيضـاً ببنـاء مدرسـة لطائفـة الحنفيـة لأن الدولة السلجوقية كانت حنفيـة المذهب ومنها أخذ الأتـراك العثمـانيون المذهب الحنفي كما هو معلوم مشهور.

وكانت تركان خاتون قد رتبت الأمور لأبنها الصغير محمود وجعلته سلطاناً بعد موت ابيه ملكشاه سنة (485) ودفنه في مقبرة الشيخ جنيد بالجانب الغربي ببغداد . ثم إضطرب أمر المملكة السلجوقية وكثر النزاع على السلطنة بين أبناء ملكشاه الكبار خاصة وهم محمد وبركيارق وسنجر حتى صدر أمر سنة (496هـ) بهدم الأسواق ومدرسة تركان خاتون وكانوا قد انفقوا على بنائها أموالاً جمة. فنقضت كلها . قال جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي:

(كانت تركان خاتون حازمة حافظة شهمة وكان معها من جند الأتراك إلى حين وفاتها عشرة آلاف وقد ذكرنا كيف أزمت الأمور حين وفاة السلطان ملكشاه وحفظت أمواله واستولت على أصفهان ودبرت أمر الجيوش وباشرت الحروب بنفسها ثم توفيت في شهر رمضان سنة (488هـ) فانحل أمر ابنها السلطان محمود وعقدت السلطنة لبركيارق بن ملكشاه...)[1].

وإذا كان الاقتداء من طبائع البشر وخصوصاً في الأفعال الخيرية فأن ابنة ملكشاه الخاتون السلجوقية التي تزوجها الخليفة المستظهر بالله العباسية أمرت ببناء مدرسة الحنفية على دجلة برأس درب زاخي من الجانب الشرقي وتولى ذلك مملوكها الموفق بن عبد الله الخاتوني ولذلك كانت تسمى أيضاً (المدرسة الموفقية) وقد دفن الموفق في المدرسة ودرب زاخي على تحقيقي وهو شارع المتنبي الحالي المؤدي إلى المحاكم فتكون المدرسة على هذا التقرير في موضع مديرية الطابو ووزارة العدلية

(1) المنتظم، ج9، ص60، 69-74، 84، 135.

بالقشلة[1]، وقد ذكرت مختصر سيرة هذه الخاتون في الجزء الأول من كتابي (سيدات البلاط) العباسي[2] إلا أني لم أذكر مدرستها هناك.

ثم أننا إذا ابتعنا التسلسل التأريخي الذي قدمنا الإشارة إليه وبنينا البحث عليه ظهرت لنا في أواسط القرن السادس للهجرة (فخر النساء شهدة بنت أحمد الأبرى البغدادية الشافعية) الكاتبة الأدبية المحدثة التي طبقت شهرتها الآفاق في عصرها وفيما بعده فقد انشأت هذه السيدة رباطاً للمتصوفين وقد قلنا إنهم طائفة زهدوا في الدنيا وانقطعوا إلى عبادة الله والدراسة والسماع في نوع من المنازل والدور سماه أهل العراق (الرباط) لأن المتصوفين يرابطون فيه كما يرابط المجاهدون في الثغور والحدود ويجاهدون فيه نفوسهم الأمارات بالسوء كما يدعون وسمى الرباط ببلاد العجم وكردستان والشام (الخانقاه) و(الخانكاه).

لم يذكر المؤرخون الذين ترجموا فخر النساء شهدة إنها انشأت رباطاً وإنما وجدت ذكره في الأخبار استطراداً: ذكر المؤرخ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي الواسطي في ذيل تأريخ بغداد في ترجمة بعض الصوفية أي أحدهم وهو أبو المظفر بن خميس الأهري قال هو:

(عبد الله بن خميس أبو المظفر الفقيه الشافعي من أهل أهر وهي بلدة من أذربيجان قدم بغداد وتفقه أي درس الفقه بها. وحصل معرفة المذهب والخلاف أي الفقه المقابل وتكلم في المسائل الفقهية وناظر

---

(1) المختصر المحتاج إليه، ج1، ص178.
(2) سيدات البلاط العباسي، ج1، ص146.

الفقهاء وأعاد (الدروس) بالمدرسة النظامية والمدرس بها يومئذ القاضي أبو علي يحيى ابن الربيع الواسطي الشافعي. وأعاد لمن بعده. وولي خدمة الصوفية برباط الكاتبة شهدة بنت أحمد الأبري برحبة جامع القصر الشريف. وتولى النظر في وقفه ثم انقطع إلى ذلك وترك أعادة الدرس بالمدرسة النظامية وأجاز له رواية الحديث النبوي سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على كافة الأنام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله –خلد الله ملكه– وحدث عن الإمام بجامع القصر الشريف وغيره"[1] اهـ.

ولم يذكر وفاته لأنه ختم تأريخه وهو حي ساكن في رباط السيدة شهدة وكان ختام تأريخ ابن الدبشي هذا سنة (621هـ). ومن تأريخه علماً ان السيدة شهدة إلى فضلها وعلما وتقواها انشأت رباطا ببغداد برحبة جامع القصر وجامع القصر من بقاياه اليوم جامع سوق الغزل الذي انشأه على قسم من انقاضه والي بغداد (أبو سعيد سليمان باشا الكبير) سنة1193 في عصر الأتراك العثمانيين[2]. ولم يبق من البناء العتيق الا منارته وهي المنارة التي بناها علاء الدين الجويني والي بغداد والعراق في عهد السلطان أبغا بن هولاكو بن طولي بن جنكيزخان ولا تزال قائمة كالمارد الجبار في وسط سوق الغزل وهي أعظم المنائر في البلاد الإسلامية قاطبة.

ورحبة جامع القصر كانت ارضا فضاءاً بباب هذا الجامع يصلي فيها الناس إذا ضاق بهم الجامع وتكون بعد الصلاة ساحة للمسلمين

---

(1) نسخة دار الكتب الوطنية بباريس (5922، الورقة 92).

(2) تاريخ مساجد بغداد، 39–40.

للتجارة السيارة والأسواق المتنقلة والغرائب والألعاب والصلاة على جنائز جماعة من العلماء وغيرهم. وكانت المحلة المحيطة برحبة الجامع قد أخذت هذا الاسم فيقال في التاريخ مثلاً (كان فلان يسكن برحبة الجامع) أي في محلة رحبة الجامع وهناك كان رباط شهدة.

وممن سكن رباط السيدة شهدة بنت الأبري- أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن الحازمي الشافعي- قال جمال الدين ابن الدبيثي في ترجمة هذا المحدث: (قرأت على الحافظ أبي بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي كتابه ببغداد برباط الكاتبة برحبة جامع القصر الشريف) وتوفى الحازمي ليلة الاثنين الثامن والعشرين من جمادي الأول سنة أربع وثمانين وخمسمائة ولم يبلغ الأربعين وصلى على جنازته جمع كثير برحبة جامع القصر الشريف[1].

وهذا الحازمي هو مؤلف كتاب (الناسخ والمنسوخ) من الأحاديث النبوية وكتاب (المؤلف والمختلف من أسماء نقلة الحديث من الرجال والنساء) و(عجالة المبتدئ في الأنساب) وغيرها من الكتب النافعة وكان قبل ذلك يسكن برباط البديع الزنجاني ببغداد وكان يدخل حجرته في كل ليلة يطالع ويكتب إلى الفجر فقال البديع الزنجاني صاحب الرباط للخادم (لا تدفع إليه الليلة دهناً للسراج فلعله يستريح)، فلما جن الليل طلب الحازمي من الخادم دهناً للسراج فاعتذر إليه الخادم تنفيذاً لأمر شيخ الرباط من نفاد الدهن. قال (فدخل الحازمي حجرته وصف قدميه ولم يزل يصلى ويتلو القرآن إلى أن طلع الفجر)[1].

---

(1) نسخة دار الكتب الوطنية بباريس، الورقة 147.

(1) تذكرة الحفاظ، ج4، ص101-103.

ذكرت ذلك لتعلم صفات سكان الرباط في ذلك العصر والظاهر ان السيدة شهدة بنت الأبري قلدت زوجها في إنشاء هذا المعهد الديني الخيري وزوجها هو ثقة الدولة أبو الحسن علي بن محمد الدريني المعروف بابن الأنباري أو الأبري. كان وكيلاً للخليفة المقتفي لأمر الله مجدد الدولة العباسية ومعيد استقلالها وكان من الأعيان الأماثل فلقبه الخليفة (ثقة الدولة) لأمانته وشهامته وقد بنى أبو الحسن الدريني زوج شهدة مدرسة حسنة للشافعية بباب الأزج على الشط وبنى إلى جانبها رباطاً للمتصوفة[1]. وباب الأزج محلة كبيرة تشمل أكثر جنوبي بغداد الحالية من الباب الشرقي إلى محلة المربعة فباب الشيخ وكانت المدرسة والرباط على تقديري (قرب مديرية كمرك بغداد وقصر النقيب). وقد توفى ثقة الدولة سنة (549هـ) ودفن بداره برحبة جامع القصر ولما توفيت زوجته شهدة سنة (574) دفنت بمقبرة باب أبرز قرب المدرسة التاجية الخاصة بالشافعية ونقل هو من مدفنه بداره إلى جانب زوجته شهدة[2]، والظاهر ان ذلك كان بوصية منها -رحمة الله عليها- والمدرسة التاجية كانت قرب جامع الفضل في محلة الفضل ولعلها كانت في موضع الجامع نفسه.

وسيرة شهدة مستيضة في كتب التأريخ وذكرها مشهور في كتب الحديث وهي التي روت فيما روت كتاب (مصارع العشاق) عن مؤلفه ابن السراج توفيت وقد جاوزت التسعين من العمر ولها ذكر أيضاً في معجم التراجم العالمية الفرنسي المسمى -بيوكرافي أونيفرسل- المطبوع

---

(1) راجع المراجع المذكورة فيها آنفاً، وخريدة القصر، قسم العراق، ج1، ص144.

(2) تأريخ ابن النجار، نسخة دار الكتب الوطنية بباريس، الورقة29، 30، وتراجع بقية أخبار الرباط في مجلة سومر، ج2، مج11 ، سنة1955، ص190.

بباريس سنة (1843م) فقد ترجمها الكاتب الفرنسي المسيو جوردن في باب (الايف) باسم فخر النساء شهدة بنت أحمد-وقال: "بغدادية انصرفت إلى دراسة الفقه واللاهوت فبلغت في هذه العلوم درجة عالية ودروسها كانت مجمعاً للعلماء المشهورين جداً في أيامها وكانوا شديدي الرغبة في السماع منها ولذلك اجتمع عندها كثير من طبقات الناس ويظهر أن هذه الشهرة العظيمة وعلوها هما اللذان أنالاها لقب (فخر النساء) ومعناه (مجد النساء) ولا نعرف لها كتاباً وان كان كثير من العلماء افتخروا أن يكونوا في عداد تلاميذها"[1] أ.هـ.

ونحن إنما قلنا كلام هذا الأديب الفرنسي لأنه دليل على اهتمام القوم بأهل العلم والثقافة لا لأنه كلام جديد لا نعرفه أو موثوق به لا تقال فيه كلمة ونحن أدرى بتأريخ نسائنا. وقد ذكر شمس الدين الذهبي من تلامذتها الكبار الذين حدثوا عنها في البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً (أبا القاسم على بن عساكر الدمشقي مؤرخ دمشق وقد توفى قبل وفاتها بثلاث سنين والحافظ عبد الغني بن نقطة وموفق الدين بن قدامة المقدسي والحافظ عبد القادر الرهاوي ونصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي المعروف اليوم بالكيلاني وناصح الدين بن الحنبلي وابن راجح والشيخ العماد وإبراهيم بن الخير وأبا الحسن الجميزي المصري وإبراهيم الكاشغري والأعز بن عليق وأبا محمد عبد الله الجوني وأبا عبد الله الأربلي أي الأربيلي وعبد الرزاق بن سكنية البغدادي وأبا بكر قاضي حران وعلى ابن حميدان وأبوي بكر بن الخازن

---

(1) بيوكرا في أونيفرسل، ج13، ص340.

ومحمد بن أبي البدر وآخر من روى عنها ورآها أبو القاسم بن قميرة وقد توفى سنة (650هـ)[1] أي بقى بعد وفاتها (76) سنة.

ويدعونا التسلسل التأريخي إلى ذكر السيدة (بنفشة) ومن المؤرخين من يقول بنفشا بنت عبد الله حظية الخليفة المستضيء بأمر الله المتوفى سنة (575هـ) والظاهر أنها بقيت على رقها وعبوديتها إلى آخر وفاتها[2] فقد جرت عادة بني العباس الخلفاء ان الواحد منهم يشتري الجارية فإذا ولدت له أبناً أو بنتاً حررها من العبودية وعقد عليها عقد الزواج فتكون زوجة أي حرة متزوجة ولكن السيدة بنفشة لم تلد للمستضيء ولدا وانصرفت إلى أعمال البر والخير وكانت تسكن بدار الخلافة العباسية (في موضع عمارة الدامرجي الحالية وما يليها إلى شط دجلة من شارع السموأل الحالي) وكانت دارها تسمى (دار سوق التمر).

قال تاج ابن الساعي البغدادي في كتابه (نساء الخلفاء) هي:

(بنفشا بنت عبد الله الرومية مولاة الإمام المستضيء بأمر الله – رضي الله عنه- كانت من خواصه وسراريه ولها المكانة الرفيعة عنده والمنزلة العالية والحكم النافذ والأمر والنهى وكانت صالحة كثيرة الخير فائضة المعروف متفقدة للفقراء والمساكين كثيرة الصدقة والبر. جعلت دارها بأسفل بغداد على شاطئ دجلة مدرسة ووقفتها على الحنابلة ووقفت عليها وقوفاً وبنت قنطرة على نهر عيسى وعقدت جسراً على

---

(1) المختصر المحتاج إليه من تأريخ بغداد لشمس الدين الذهبي، الورقة 131 من نسخة المجمع العلمي العراقي المصورة.

(2) عددتها في سيدات البلاط العباسي، ج1، ص163، معتقة حرة ولكني استرجع العكس، ويؤيد ذلك، قول ابن الساعي أنها (مولاة المستضيء)، كما سيأتي في النقل.

دجلة وبنى لها الإمام المستضيء بأمر الله داراً مجاورة لباب الغربة – يعني باب شارع المستنصر الحالي من الشمال- فجاءت عالية البناء واسعة الفناء تشتمل على مقاصير وحجرات ومناظر ومتنزهات ويجاور هذه الدار أربعة دواليب تسقي الماء من دجلة إلى دار الخلافة المعظمة كل واحد أعلى من الآخر فيأخذ الأول من دجلة والثاني من الأول والثالث من الثاني والرابع من الثالث. ولما تمت هذه الدار أمرت بإنشاء جسر جديد ينصب بين يدي هذه الدار إلى باب الرقة –يعني محلة الشواكة- بالجانب الغربي فصار ذلك فرحة الأنام ومتنزه الخاص والعام. وبنت مسجداً كبيراً بسوق الخبازين- يعني جامع الإمام طه الذي أدخل في الشارع أو أصل جامع الحيدر خانة-قريباً من العقد الجديد. وسمعت أنها كانت في عيد الفطر في كل سنة تخرج زكاة الفطر صاعاً من تمر ثم تقول هذا ما فرضه الشرع علي وأنا لا أقنع من مثلي بهذا فتخرج صاعاً من الذهب العين أي الدنانير وتأمر بتفرقته على الفقراء واعتقت خلقاً من الموالي والجواري والمماليك وتوفيت يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وصلى عليها بعد صلاة العصر بصحن السلام من دار الخلافة وحملت في دجلة إلى الجانب الغربي فصلى عليها بباب تربة الجهة السعيدة زمرد خاتون والدة الإمام الناصر لدين الله رضي الله عنه المجاورة للشيخ معروف الكرخي-رحمة الله عليه- يعني قبر الست زبيدة الحالي- ثم دفنت داخل التربة المذكورة وذلك قبل وفاة صاحبة التربة زمرد خاتون))[1] فهي مدفونة إذن تحت قبة الست زبيدة أي قبة زمرد خاتون.

(1) نسخة الاستانة، الورقة 39.

أما الدار التي جعلتها مدرسة للحنابلة لأنها كانت حنبلية المذهب لا شافعية كصاحبها الخليفة المستضيء فقد كانت بباب المراتب قرب باب الأزج المحلة التي ذكرناها آنفاً وكانت الدار ملكاً للوزير نظام الدين أبي نصر المظفر بن علي بن جهير وزير الخليفة المقتفي. قال أبو الفرج بن الجوزي في تأريخه: -وفي يوم الخميس خامس عشر من شعبان أي الخامس والعشرين من شعبان من سنة (570هـ) سلمت إلى المدرسة التي كانت داراً لنظام الدين أبي نصر بن جهير وكانت قد وصلت ملكيتها إلى الجهة المسماة بنفشة فجعلتها مدرسة وسلمتها إلى أبي جعفر بن الصباغ فبقى المفتاح معه أياماً ثم استعادت منه المفتاح وسلمته إلى من غير طلب كان مني وكتب في كتاب الوقف ان المدرسة وقف على أصحاب أحمد بن حنبل وتقدم إلى (أي أمرت) يوم الخميس المذكور بذكر الدرس فيها فحضر قاضي القضاة وحاجب الباب وفقهاء بغداد وخلعت على خلعة وخرج الدعاة بين يدي والخدم ووقف أهل بغداد من باب النوبى إلى باب المدرسة كما يكون في العيد وأكثر وكان على باب المدرسة ألوف والزحام على الباب فلما جلست لإلقاء الدرس عرض كتاب وقف المدرسة على قاضي القضاة وهو حاضر مع الجماعة فقرئ عليه وحكم به وأنفذه وذكرت بعد ذلك الدرس فألقيت يومئذ دروساً كثيرة من الأصول والفروع وكان يوماً مشهوداً لم ير مثله ودخل على قلوب أهل المذهب (الحنبلي) غم عظيم لأنهم حسدوني)[1]. وقال سبط ابن الجوزي أبو المظفر يوسف بن قزاغلي (وكان جدي يقول: -والله لولا أحمد بن حنبل والوزير ابن هبيرة لانتقلت عن المذهب فأني لو كنت

(1) المنتظم، ج1، ص125، 252؛ ومرآة الزمان، ج8، ص195، 326.

حنفياً أو شافعياً لحملني القوم على رؤوسهم[1] وكذا كانت عادة ابن الجوزي لا يجد فرصة لمدح نفسه الا إنتهزها.

ثم قال ابن الجوزي (وفي رمضان سنة 571هـ كتب على حائط المدرسة التي وقفتها الجهة بنفشة وسلمتها إلى "وقفت هذه المدرسة الميمونة الجهة المعظمة الشريفة الرحيمة بنفشة وهي المعروفة بدار الرواشن في أيام سيدنا ومولانا الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين على أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وفوضت التدريس بها إلى ناصر السنة أبي الفرج ابن الجوزي)[2].

وقد جرت العادة القديمة في بناء المدارس أن تبنى دار للمدرس فيها وإنما قلنا ذلك لأن ابن جبير الرحالة الأندلسي المشهور دخل بغداد بعد افتتاح هذه المدرسة بعشر سنين أي سنة 580هـ فرأى ذات يوم مدرسها أبا الفرج بن الجوزي يعظ الناس بإزاء الدار التي كان يسكنها بالمدرسة فظنها داره قال: (ثم شاهدنا مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصيلة آخر أبواب الجانب الشرقي فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو وزيد وفي جوف الفراكل الصيد آية الزمان وقرة عين الإيمان رئيس الحنبلية والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، أمام الجماعة وفارس هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمة الكلام في النظم والنثر والغائص في بحر فكره على نفائس الدر)[1].

---

(1) المرآة، ج8، ص326.

(2) المنتظم، ج1، ص258.

(1) رحلة ابن جبير، ص220-1 طبعة هولاندة.

وفي سنة 573هـ أنشأت السيدة بنفشة رباطاً للنساء الصوفيات في رجب من السنة المذكورة وعملت فيه دعوة للصوفيات فأكلن من الأطعمة النفيسة ثم خطبن في الرباط خطباً ثم فرقت فيهن دنانير وجعلت المشيخة في الرباط لأخت الشيخ أبي بكر محمد بن أحمد الزوزني الصوفي[1].

ونرى من الانصاف ان نذكر ان السيدة بنفشة لم تكن أولى مؤسسات الرباط النسوي فقد سبقتها إلى إنشاء مثل هذا المعهد الديني الخيري واحدة من عرض الشعب هي السيدة فاطمة بنت الحسين الرازية الأصل البغدادية وكانت واعظة فأنشأت رباطاً تعظ فيه النساء وتجتمع فيه الزاهدات وكانت قد سمعت الحديث النبوي من الشيوخ منهم أبو بكر الخطيب مؤلف تأريخ بغداد وأبو جعفر بن المسلمة قال ابن الجوزي: وقد سمع منها الحديث شيخنا أبو الفضل محمد ناصر وقرأ عليها كتاب (ذم الغيبة) تأليف إبراهيم الحربي وحدثت بمجالس ابن سمعون الواعظ ومسند الإمام الشافعي وغير ذلك وتوفيت في ربيع الأول (سنة 521هـ) وقد سمع منها ابن الجوزي بعض مسموعاتها[2].

وننهي كلامنا على هاتين السيدتين لنتعطر بذكر السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله وأم الخليفة الناصر لدين الله وهي صاحبة القبة الفخمة والتربة الضخمة القائمة بجوار تربة الشيخ معروف الكرخي بالجانب الغربي من بغداد وتعرف عند العامة غلطاً بالست زبيدة كما ذكرنا والسيدة زمرد كانت في الأصل مملوكة تركية ثم ولدت أولاداً لسيدها المستضيء فأعتقها إكراماً لها عن العبودية[1].

---

(1) المنتظم (10: 271).

(2) المنتظم (10: 7-8).

(1) تراجع ترجمتها في سيدات البلاط العباسي، ج1، ص174.

وقد عاشت زمرد في خلافة زوجها وقضت من خلافة ابنها الناصر أربعاً وعشرين سنة وانشأت ربطاً ومساجد وعمرت مدارس ومشاهد وكان لها مبرات وأوقاف للخيرات وإحسان كثير إلى العبادة الزهاد والعلماء والفقراء وكانت تتفقد ذوي الحاجات والأيتام وقد حجّت سنة 585هـ وانفقت في حجها نحواً من ثلاثمائة ألف دينار وكان في قافلتها نحو من ألفي جمل وأصلحت في طريق مكة البرك والمصانع أي مخازن الماء وحكى عنها أنها في طريقها إلى مكة وجدت في ثوبها قملة فقالت: الحمد الله شاركت الفقراء في تعب السفر ومشقة الطريق. وتصدقت من أجل ذلك وحده بمائة دينار. وقد توفيت في شهر ربيع الآخر من سنة 599هـ وفرق ما خلفته من ذهب وفضة وجواهر وثياب في جواريها ومماليكها وحمل ما في خزائنها من الأشربة والمعاجين والعقاقير إلى المستشفى العضدي بالجانب الغربي من بغداد على الشط وكان ذلك يساوي ألوف دنانير. وكانت قد أنشأت مدرسة للشافعية قرب تربتها التي قلنا أنها تسمى اليوم (الست زبيدة) ووقفت عليها أوقافاً وبنت إلى جانبها رباطاً أي خانقاها للفقراء وبنت تربتها أي قبة قبرها بجوارهما وهي التربة القائمة إلى اليوم التي ذكرت أنها بجوار تربة الشيخ معروف وأن الناس يسمونها (الست زبيدة) وجعلت في تربتها خزانة كتب كبيرة وقد فتحت المدرسة سنة 592هـ قال جمال الدين ابن الديثي الواسطي المؤرخ في ترجمة (علي بن علي الفارقي الشافعي) في ذيل تأريخ بغداد.

(ولد بميا فارقين بالجزيرة ونشأ بها وتفقه بتريز وسمع بها الحديث النبوي ثم قدم بغداد وصحب أبا النجيب السهروردي وتكلم في الوعظ مدة على ما حدثني هو عن نفسه ثم سكن بالمدرسة النظامية

وكتب علم الخلاف بين المذاهب وتكلم في المسائل الفقهية ونظر في فقه الإمام الشافعي حتى حصل معرفة الأصول وصار معيداً بالمدرسة النظامية سنين ودرس التلاميذ وكان يفتي أيضاً ثم جعله قاضي القضاة أبو طالب علي بن البخاري نائباً عنه في القضاء ببغداد سنة 582هـ ثم عزل نفسه أي اعتزل عن القضاء سنة 583هـ وتوفر على إعادة الدروس بالمدرسة النظامية ثم صار نائب المدرسة فيها إلى أن فتحت مدرسة السيدة الرحيمة زمرد خاتون والداة سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على كافة الأنام الناصر لدين الله أمير المؤمنين، وهي المدرسة التي انشأتها بجوار تربتها الشريفة عند معروف الكرخي بالجانب الغربي من بغداد وذلك في سنة 592هـ وسكن في المدرسة ودرس فيها إلى أن مات سنة 602هـ وصلى عليه بالمدرسة المذكورة ودفن قريباً من تربة السيدة زمرد خاتون. وكان حسن الطريقة متوفراً على الاشتغال بالعلم ونعم الشيخ كان ديناً وعلماً وصلاحاً[1].

وقد بقيت المدرسة والرباط إلى زمن ولاية الباشا سليمان الكبير[2] المقدم ذكره من ولاة بغداد أيام العثمانيين في أواخر القرن الثاني عشر فهدمها وشيد بآجرهما وبغيره سورا لغربي بغداد وبقيت التربة وحدها ولم يستحل الباشا هدمها. وفي سنة 1131هـ دفن حسن باشا والي بغداد زوجته عائشة خانم بنت مصطفى باشا مع زمرد خاتون تحت القبة[1] وهذه عائشة خانم هي التي تعنيها الأغنية

---

(1) ذيل تأريخ بغداد، نسخة المجمع العلمي المصورة على نسخة كنبرج، الورقة148-9.
(2) مساجد بغداد، ص125.
(1) رحلة نيبور الدانيمركي، ج2، ص225. من النسخة الفرنسية.

الأطفالية عند عوام بغداد (طعلت الشميسة، على كبر عيشة، عيشة بنت الباشة، تلعب بالخرخاشة) إلى آخرها.

وكانت السيدة زمرد قد انشأت قبل هذه المؤسسة العلمية والخيرية رباطاً للصوفية في المحلة المأمونية من بغداد الشرقية وكانت المأمونية في موضع محلة عقد القشل والدهانة والهيتاويين وصبابيغ الآل وفتح هذا الرباط سنة579هـ على أصح الأقوال[1]، وأقامت في هذا الرباط خزانة كتب أيضاً فيها كتب نفيسة كثيرة منها كتاب الفنون لأبي الوفاء على بن عقيل البغدادي. قال الذهبي: -هو 470 مجلداً وقال سبط ابن الجوزي هو (مائتا مجلد) جمعه طول عمره وقد طالعت منه في بغداد في وقف رباط المأمونية نحوا من سبعين مجلداً وقيل أنه (800مجلدة)[2].

وانشأت السيدة زمرد خاتون أيضاً رباطاً للفقراء عند مشهد عبيد الله بن عمر قرب الرصافة وقبر الإمام أبي حنيفة النعمان. وكان مجاوراً للتربة المعروفة بأم رابعة في الأعظمية الحالية وذلك لأن رابعة هي ابنة الأمير أحمد بن المستعصم بالله دفنت هناك ودفنت قبلها مها شمس الضحى شاهلبني بنت الأمير عبد الخالق بن ملكشاه بن السلطان صلاح الدين الأيوبي. فغلب اسمها (أم رابعة) على المواضع[1].

---

(1) الكامل في حوادث هذه السنة ومرآة الزمان، ج8، ص365 من طبعة الهند ومجلة سومر، مج10، ج2، ص247، سنة 1954.

(2) المرآة، ج8، ص84، من المطبعة المذكورة، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب، 1: 156، من الطبعة المصرية.

(1) الكتاب الذي سميناه (الحوادث الجامعة).

وانشـأت أيضـاً مسـجداً في الحظـائر علـى دجلـة ويسـمى اليـوم (جـامع الخفـافين) وهـو في سـوق الكمـرك العتيق ومنارتـه أقـدم المنـارات العباسـية ببغـداد ولا تـزال رصـينة قويـة. تسـخر مـن الزمـان وتهـزأ بـالحوادث. أمـا بنايـة الجـامع مـا عـدا المنـارة فقـد جـددت في أيـام الحكم العثماني.

ولنعطـف القلـم الآن علـى السـيدة الملقبـة (بـاب بشـير) وذلـك ان المتأخرين من الخلفاء كانوا يلقبون نساءهم باسم البواب الذي يقيم علـى دورهـن وهـذا يعنـي أن بـواب السـيدة اسمـه (بشـير) وهـذه السـيدة (بـاب بشير) هي زوجة المستعصم بالله العباسـي آخـر الخلفـاء العباسـيين الـذي فقد الدولة ونفسه معاً. وأم لأمير أبي نصر محمد بن الخليفة المستعصم الذي توفى شاباً وقد انشأت من المعاهد الخيرية داراً للقرآن يدرس فيها أبنـاء الفقـراء ومدرسـة لـذوي المـذاهب الأربعـة الشـافعية والحنابلـة والحنفية والمالكية قرب الشيخ معروف الكرخي. وكانت دار القـرآن علـى شـط دجلـة بالجانـب الغربـي مـن بغـداد. ففـي اليـوم التاسـع عشـر مـن شعبان سنة 652هـ استدعى قاضـي قضـاة الدولـة العباسـية ونائبـاه إلى دار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي وحضر في الدار أيضاً خادمـان من خدم الخليفة المستعصم هما أيوب الرومـي وريحـان الحبشـي وشـهدا عـن القاضـي الأكبر أن السـيدة بـاب بشـير عشـقة الخليفـة المـذكور قـد وقفت المدرسة الجديدة على المذاهب الأربعة فكتب سـجل بـذلك واشـهد قاضـي القضـاة مـن حضـر مـن الشـهود العـدول أي الشـهود الـرسميين بثبوت الرقف عنده ووضعوا خطوطهم في كتاب الوقف ثم وضـع الكتـاب في كيس وسـلم إلى الخـادم قرنفـل المستعصـمي ليوصـلة إلى السـيدة في دارها بدار الخلافة.

وفي اليوم الرابع والعشرين استدعي أيضاً قاضي القضاة ونائباه والعدول إلى دار الوزير ابن العلقمي وحضر الخادمان أيوب وريحان فشهدا عند القاضي الأكبر بوقفية دار القرآن التي على شاطئ دجلة بالجانب الغربي من بغداد وذكرا ان واقفة المدرسة البشيرية السيدة (باب بشير) اشهدتهما على نفسها بوقفية دار القرآن المذكورة فأمر قاضي القضاة بكتابة سجل ثم قرئ السجل على الحاضرين ووضع الحاضرون خطوطهم للشهادة وأحضرت الخلع فخلع على قاضي القضاة خلعة سنية وكذلك على نائبيه الشافعي إبراهيم النهر فضلي والحنفي الحسين بن اللمغاني ثم على الخادم قرنفل المستعصمي ثم على خادمي الخليفة المقدم ذكرهما ثم على جميع الشهود وكافة الحاضرين وفي ذلك يقول أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد المدائني الشافعي، أخو عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد شارح نهج البلاغة:

من ذا رأى فصل الربيع وزهره	ورياضه في العشر من تشرين؟
خلعاً مكملة يقارن وشيها	ما جاء من مصر ومن جيرون[1]
سبعون تشريفا وما أحصينها	ولربما زادت على سبعين
كرم يزيد على البحار مديده	وعلى حيا داني الرباب هتون[1]

أما المدينة البشيرية فكان الشروع في بنائها سنة 649هـ وتوفيت منشئها في اليوم التاسع من شوال سنة 652هـ ثم توفى بعدها ابنها

(1) جيرون: يعني دمشق.

(1) تاريخ أبي الحسن الخزرجي في حوادث هذه السنة (الخطوط) والتأريخ والمسمى الحوادث الجامعة، ص275.

الأمير محمد بن المستعصم. وفي يوم الخميس ثالث عشر جمادي الآخرة سنة 653هـ -أي بعد ثمانية أشهر من وفاة السيدة باب بشير فتحت المدرسة البشرية وحضر الخليفة المستعصم بالله وابناؤه فجلسوا في وسطها وحضر خواص الخليفة من المماليك ثم حضر الوزير ابن العلقمي وكافة أرباب الدولة وذوو المناصب والمدرسون ومشايخ الربط أي الخانقاهات والصوفية وعملت فيها دعوة عظيمة كان مقدار الطحين الذي عمل منه الخشكنانج وهو نوع من الخبز المحلى والسنبوسج ثلاثة أكرار والكر مكيال يساوي 24 صاعاً والصاع يساوي ثلاثة أرطال قديمة والرطل القديم يساوي قريب الحقة المعروفة بالكيلوغرام. وكان مقدار السكر الذي أحضر للحلوى سبعة وعشرين ألف رطل ونقل إلى دار كتبها ستة وثلاثون صندوقاً من الكتب المكتوبة بالخطوط المشهورة منها مصحف بخط الخليفة الراشد عثمان بن عفان ومنها ما هو بخط ابن البواب الملقب (قلم الله في أرضه) وبخط ابن مقلة الشهير وخلعت الخلع على الحاضرين وأورد الشعراء المدائح[1] وعين المدرسون للمذاهب الأربعة.

ومن جملة الكتب الموقوفة على المدرسة كتاب (العيون والنكت) في تفسير القرآن للقاضي الماوردي البصري وقد كتب عليه (هذا ما وقفته وتصدقت به الجهة الشريفة المكرمة المقدسة الزكية المعظمة السيدة الكبيرة الرضية الأمينة الرحيمة الرؤوفة النبوية الإمامية الطاهرة البرة جهة سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على جميع الأنام أبي أحمد عبد الله المستعصم بالله أمير المؤمنين ثبت الله دولته وأعلى كلمته

---

(1) تأريخ الخزرجي (المخطوط) والحوادث، ص307.

وقفتها على طلاب العلم رغبة فيما عند الله تعالى من حسن الثواب وذخراً صالحاً ليوم المآب وأمرت أن يكون بالمدرسة الميمونة التي أمرت بإنشائها بظاهر محلة شارع ابن رزق الله بالجانب الغربي من مدينة السلام)[1].

وكانت شمس الضحى شاهلبني بنت عبد الخالق بن ملكشاه بن السلطان صلاح الدين الأيوبي التي قدمت الإشارة إليها من النساء الصالحات الخيرات وقد قتل هولاكو الطاغية التتري زوجها ولي العهد أبا العباس أحمد بن المستعصم بالله ولها منه بنت اسمها رابعة وقد قدمنا ذكرهما وأنا لنعجب كيف نجت شاهلبني من القتل فقد ذكر مؤلف كتاب (الحوادث) أن هولاكو أمر باعمام الخليفة المستعصم وانسبائه واقربائه فكانوا يخرجون من دار الخلافة بشارع المستنصر الحالي إلى مقبرة الخلال المعروف اليوم بالخلاني بباب الشيخ فيقتلونهم وأولادهم ونساؤهم وجواريهم فقتلوا عن آخرهم[1]. والظاهر ان علاء الدين عطا ملك الجويني والي العراق بعد سقوط الدولة العباسية سعى في خلاص السيدة شاهلبني من القتل ثم خلف عليها أي تزوجها بعد زوجها المتوفى ولي العهد ثم زوج ابن أخيه شمس الدين هارون بابنتها رابعة.

وانشأت السيدة شاهلبني مدرسة بجوار مشهد عبيد الله بن عمر العلوي ذلك المشهد القائم اليوم في شرقي الأعظمية. وفي سنة (**671هـ**) تكامل بناء المدرسة وسميت (المدرسة العصمتية) ولم أقف على سبب

---

(1) الجزء الخامس في خزانة آل باش أعيان البصرة.

(1) الحوادث، ص328.

تسميتها بذلك، اللهم إلا أن يقال ان شاهلبني كانت تلقب (ذات العصمة). وقد وقفتها على الطوائف الأربع وبنت إلى جانبها رباطاً للصوفية وتربة لها. ورتبت فيها المدرسين وخلعت عليهم وعلى غيرهم بعد دعوة طعم فيها الحاضرون وجعلت النظر فيها إلى متولي أوقاف بغداد شهاب الدين علي ابن عبد الله وجعلت الأشراف إلى كل من يتولى قضاء القضاة ببغداد.

وفي سنة (678هـ) أي بعد سبع سنوات توفيت شمس الضحى شاهلبني الأيوبية ودفنت في التربة التي أنشأتها بجوار مدرستها العصمتية. قال مؤلف الحوادث (وكانت كثيرة الصدقات والإحسان والمبرات وكانت تحب أهل بغداد وترعى مصالحهم وتقوم في حوائجهم وتساعدهم)[1].

وهذه المدرسة التي لا يزال بابها وقسم منها قائمين، المعروفة بجامع مرجان في شارع الرشيد إنما بناها مرجان من أموال سيدته الجتاخاتون بنت السلطان أرغون بن اباقا بن هولاكو وكان هؤلاء المغول قد أسلموا وحسن إسلامهم وكانت هذه السيدة زوجة (ايلكان) والد الشيخ حسن الكبير مؤسس الدولة الجلايرية بالعراق. وقد جاء في الكتابة المنقورة على الآجر فوق بابها ان مرجان (أنشأ هذه المدرسة من فواضل هذه السيدة السعيدة أنار الله برهانها في أيام دولة أبنها الشيخ السعيد حسن وتمت في أيام ابنه السلطان أويس).

(1) الحوادث، ص373، 410.

4-مظاهر اجتماعية بغدادية

وكان ما ظهر من كتابات في المجلات العراقية عن الحياة الاجتماعية ومظاهرها الشيء الكثير، فقد امتاز البغداديون بعادات وتقاليد أصبحت مثالاً يتحذى في الأقاليم العربية آنذاك، يقول الدكتور مصطفى جواد في ذلك:

" والظاهر أن ظروف أهل العراق في الأخلاق والأدب أصبح في العصور الإسلامية، كالحقائق المجمع عليها المتخذة مقاييس وعبراً"[1].

أ-لمحات اجتماعية عن أهل بغداد قديماً[2]:

المقدمة:

ان دراسة الأحوال الاجتماعية هي محك أو وسيلة من أنجح الوسائل التي تكشف الاحوال الثقافية والحضارية للمجتمع وما بلغه من سمو ورفعة، ولقد كان لظرافة أهل بغداد سمة حضارية تتصل كل الاتصال بأسباب حضارتها . فبغداد التي خلدها الشعراء في أشعارهم –

---

(1) مصطفى جواد، الذوق الأدبي العراقي، مجلة الرسالة المصرية، العدد596، السنة 14، القاهرة في يوم الاثنين 18 ذي الحجة سنة 1363، الموافق 2 ديسمبر سنة 1944، ص1075.

(2) عبد اللطيف عبد الحميد العاني، لمحات اجتماعية عن أهل بغداد قديماً، مجلة بين النهرين(بغداد)، العددان 61-62، (1988)، ص96-107، ومؤلفنا من مواليد مدينة بغداد عام1938، أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة بغداد، وله مؤلفات مهمة في هذا المجال منها (المدخل إلى علم الاجتماع) عام 1990 وكتاب (المشكلات الاجتماعية1991)، وغيرها من المؤلفات. المطبعي، موسوعة أعلام وعلماء العراق، ج1، ص512.

أبان العصر العباسي والعصور اللاحقة- استمرت فيها الحضارة العربية ونضجت ومال الناس فيها إلى كثير من مظاهر الترف والأناقة والتزيين وتنافسوا في هذا السبيل، وكانوا في بحبوبة من العيش وسعة الرزق وتعدد أسبابه وسيلة بسبب الأمن الذي ساد المجتمع فعم الخير الجميع، وتفرغ القوم للتمتع وأفتنوا في ترف العيش والنغم بأسباب الدنيا وحب كل ما هو طريف وظريف.

وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية أضحى المجتمع العربي بسبب الفتوحات وسعة رقعة البلاد من أغزر المصادر وأعجبها، وساعد على خلق النموذج للإنسان الذي تفاعلت وامتزجت في نفسه وروحه كل عوامل المجتمع الجديد . فكان إنساناً متحضراً دمثاً في سماحة ولطف ذكاء، وهي سمة حضارية استمرت مقوماتها من ذلك العمق الحضاري للأمة العربية. ومن أسباب الترف زهو في العيش وتمتع باللذات وتأنق في كل شيء، ميل إلى التجديد والفن والترف في الحياة. كل ذلك توفر في بغداد فزهت وأضحت من أجمل بقاع العالم.

بعض عادات أهل بغداد

وضع أهل بغداد قبل غيرهم من العرب أهم المؤلفات باللغة العربية وبالخط العربي وفي مختلف البحوث العلمية والأدبية والفنية، وهي تمتاز بالتنوع والعمق والأصالة، وهذا يدل دلالة واضحة على رسوخ أهل بغداد في الحضارة والتمدن. وظلت بغداد مركز الثقافة والحضارة والمدنية تملأ الدنيا وتشغل الناس قروناً عديدة وتمد بلاد العرب وبلاد الإسلام بالعلم والعلماء[1]. وظلت المؤسسات الثقافية

---

(1) بغداد، اعداد الدكتور جواد وزملاؤه (نقابة المهندسين العراقية، مؤسسة كولبنكيان، 1961)، من مقالة للأستاذ ناجي معروف، الحياة الثقافية في بغداد، ص128.

شـواهد تـبرز للعيـان في حضـارة بغـداد الزاهـرة تمثـل كيانهـا الحضـاري والأدبي واللغوي والـديني والتـأريخي. ولقـد بلغـت الثقافـة ببغـداد درجـة كبيرة مـن التقـدم والانتشـار بـين مختلـف الشـرائح الاجتماعيـة لـيس بـين الخاصـة وعليـة القـوم مـن الرجـال والنسـاء والحرائـر فحسـب، بـل تعـدت أولئك كلهم فانتشرت وذاعت حتـى بـين الإمـاء مـن النسـاء وبـين البـوابين والفراشـين في المـدارس ومنـاولي الكتـب في دور العلـم وغيرهـم ممـن يحسبون على العامة من أهل بغداد[1].

ان انتشار الثقافة في مدينة بغداد واتساعها كان لها أثـر كبير في عـادات القـوم وتقاليـدهم. فأتسـم البغـداديون بعـادات وقـيم وتقاليـد ميـزتهم عـن غيرهـم مـن سـكان المـدن العراقيـة أو المـدن العربيـة، ظلـت مضرب المثل حتى يومنا هذا. انعكسـت هـذه القـيم والتقاليـد في مختلـف مستلزمات حياتهم فكان لهم طابعهم المميـز في البنـاء والسـكن والطعـام واللباس ومختلف وسائل العيش.

فبيـوت البغـداديين تختلـف بـاختلاف المراتـب الاجتماعيـة للنـاس فتتكون بيوت الأغنياء أو الوجهاء من عدة ساحات تتلو الواحدة الأخـرى ذات مـداخل منكسـرة غير مباشـرة وهـذا أمـر طبيعـي قصـده المخطـط لعزل فضاء الساحة عن منظور الشارع وعن انظار العابرين[2]. وكانـت الـدور مسورة ذات سـتائر لمنـع الاشـراف. ويـؤدي مدخلها في الغالـب إلى دهليـز ينتهي بصـحن الـدار وتحيط به البيوت والحجـر. وقـد يكون في

---

(1) المكان نفسه.

(2) كتاب بغداد، المصدر المار ذكره من مقالة للدكتور محمد مكيـة: الـدور البغداديـة والتراث السكني، ص228.

الصحن حديقة فيها فوارة (شذروان) وتعلق الستائر والبسط على الحيطان[1].

وعني البغداديون بزخرفة أبواب بيوتهم وأكثروا من مقرنصات العقود للتأكيد على جمالية خاصة تشغل نظر الزائر وتثير إعجابه عند دخول الدار. وكانت الدور تبنى عامة في بغداد على نمط واحد. وكانت الغرف في دور كثيرة من سراة القوم يوم ذاك تغلف من داخلها بالواح خشب الساج الهندي ويطعم بخشب النارنج[2].

وكان قصر الخلافة ببغداد يضم دوراً وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار كما يضم قباباً وأروقة. وكانت تزيد من مجاله البرك والأنهار المرصعة التي يجري فيها الماء، وكانوا يرصعون الأنهار الصغيرة والسواقي، أي يطلون أسافلها بالرصاص القلعي الشديد البياض، وهو أجود من الفضة المجلوة، لكي لا يذهب الماء سدى[3].

وأولع أهل بغداد باقتناء الأراضي وكانت غالية الأثمان عزيزة الوجود في ذلك الوقت، خاصة الأراضي الشاطئة والمجاورة لقصور الخلفاء والأمراء والسلاطين وأماثل الناس وأعيانهم، لأن هذه المناطق كانت حرماً لمن يأوي إليها[4].

---

(1) الدكتور عبد العزيز الدوري وزملاؤه: تاريخ العرب (بغداد-مطبعة العاني- 1955)، ص270-271.

(2) ميخائيل عواد، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي (بيروت-دار الطليعة للطباعة والنشر- 1981) من 70-71.

(3) المصدر نفسه، ص9.

(4) المصدر نفسه، ص7.

ولقد اثر صيف بغداد القائض في عادات الناس وتقاليدهم، واتخذ الناس في بغداد قديماً خاصة الأغنياء منهم وأهل النعم وسائل للتبريد والتهوية أيام الصيف الحارة. فابتنوا السراديب تحت الأرض و(الباذهنجات) -الباديكر-ونصبوا الخيش- وهو نوع من النسيج الثخين كالجنفاص- وبلوه بالماء البارد وبنوا القباب من القصب الرطب الأخضر[1]. واستخدموا المراوح اليدوية والمراوح السقفية التي كانت تعلق في سقوف البيوت والتي يشد بها حبل لتحريكها باليد، وترش بالماء في الغالب، وأحياناً بماء الورد. وكان أهل بغداد ينامون في الصيف على السطوح ليلاً، والسراديب نهاراً[2].

واهتم أهل بغداد بالأزهار والأشجار والبساتين. وكان أكثر القوم عناية بأمر البساتين يوم ذاك والولوع في تنسيقها هم الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء وأعيان الناس وغيرهم من ذوي المال والغنى.

وغالى القوم ببغداد يوم ذاك وتفننوا بأمور الفاكهة فكانوا يؤثرون الكتابة والنقش والتصوير على التفاح لطيب رائحته وبهجة لونه ولطف موقعه من الاهداء ولهم في تلك الكتابة والنقش والتصوير طرائق مختلفة. وكان الظرفاء ببغداد يتراسلون بالتفاح الأحمر بعد قطفه. ومن لطيف ما ينقل عنهم أنهم يعمدون إلى الكتابة على التفاح بماء الذهب إشارة إلى الصفرة والنحول من الوجد. والجواب عنه بالمداد الأسود إيذاناً بالنفور والصدر والهجران[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص16.

(2) المصدر نفسه، ص19.

(3) المصدر نفسه، ص96.

ولقد سبق أهل بغداد الأمم المتمدنة إلى اتخاذ الحظائر لحبس الوحوش والحيوانات ودرس أخلاقها وعاداتها مع التفرج على ما هنالك من عجيب المخلوق.

وكان لنهر دجلة العظيم أثر في حياة البغداديين إذ ساهم مساهمة أساسية في تكوين التصميم الأساسي للمدينة. وكان شرب أهل بغداد عموماً من دجلة، فكان السقاؤون يأخذون الماء من دجلة مباشرة في الروايا والقرب ونحوها. وأحياناً من الآبار التي يدخل إليها الماء من قنوات عذبة، وقد ولع أهل بغداد قديماً بالثلج أيام الصيف فكانت قصور الخلفاء والأمراء والسلاطين ووجهاء الناس وأعيانهم لا تخلو من خزائن يخزن فيها الثلج. وكان القوم يوم ذاك يعنون بتبريد الفواكه ونحوها بالثلج، ومن يتعاطى الثلج يقال له الثلاج. وكان الثلاجون عندما يشتد الحر يرفعون أثمان الثلج حتى تصل أحياناً إلى حد الخيال[1].

وأهتم أهل بغداد بصنعة الأطعمة وألوانها. وتأنقوا بالطعام والشراب وغالوا في استحضار ما اشتهر بطيبة في ألوان اللحوم والطيور والفاكهة. وكانوا يطعمون الطيور الداجنة أطعمة مغذية يتوهمون أنها تزيد من ذلة طعمها وتسهل هضمها. وكانوا يضعون الطعام على المائدة مرة واحدة. ثم صاروا يضعونها على التوالي على واجبات، ومن آدابهم الاجتماعية تصغير اللقمة وعدم الأكثار من الكلام والضحك عند الأكل[2]. وكانوا يتهادون الطعام فيما بينهم في المناسبات وفي الأشهر المباركة من السنة. ولقد ساعد هذا على توثيق العلاقة فيما بينهم،

---

(1) المصدر نفسه.،ص20-21.

(2) درويش المقدادي: تاريخ الأمة العربية (بغداد، مطبعة الحكومة، 1939)، ص262-263.

وكانوا يعتبرونه دليل محبة وعربون مودة، على متناوليه ان يحفظ كل منهم للآخر حقوقه في أهله وماله، وان لا يخون أحدهم الآخر ما دام ذاق كل منهم طعام الآخر.

وأهتم البغداديون باللباس وجعلوا لكل صنف من الناس زي خاص به. ولهذا تعددت الأزياء وتميز الناس باختلافها. فلأهل العلم زي وللجند والقوادزي وللخطباء زي، ولأهل التصوف زي يتميزون به، فكان الصوفي يرى عليه جبة من صوف. وللرهبان زي وللحداثة زي طريف وللتجار زي ولمشايخ الكتاب والعلماء زي يتميزون به، وهو لبس الخف والطيلسان. وللوزراء زي خاص بهم أيضاً، وكذلك للرقاحين زيهم الخاص بهم، وللأعراب وطوائف العمال والمتعطلين والمنكوبين وللملاحين والشطار والقضاة لكل منهم زيه الخاص به[1]. وتأنق المترفون في ملابسهم، وكان لكل مناسبة لباسها الخاص بها، ولبس النساء الحرير المختلف الألوان والبراقع السود. ولم يتعرض أي شيء إلى التغير والتبدل والزيادة والنقصان قدر ما تعرضت له الأزياء في بغداد في مختلف العصور[2].

وكان لأهل بغداد العاب كثيرة بعضها كان معروفاً قبل الإسلام كالصيد والسباق وبعضها اقتبسوه من غيرهم، كاللعب بالكرة والصولجان والرمي بالشدق واللعب بالزر والشطرنج ونحوها. وكان الصيد قديماً قاصراً على صيد الغزلان والطيور بالنبل والفخ، ثم اتخذ أهل بغداد الكلاب والفهود يستعينون بها على صيد الغزلان. وكذلك

---

(1) ميخائيل عواد، المصدر المار ذكره، ص42-44.
(2) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام- السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الجزء الثاني، الطبعة السابعة (القاهرة، مكتبة النهضة العربية، 1964)، ص402-403.

استخدموا الجوارح من الطير مثل الباز والشاهين والعقاب والصقر وعلموها صيد الطيور. ومن العاب البغداديين تطير الحمام، وكانوا يتسلون بمشاهدة عراك الديوك والكباش، واهتموا بالمصارعة والسعي ومسابقات السباحة وسباق الخيول وكانت لهم ميادين ومواقف شهيرة في الحلبة[1].

ومن جملة الألعاب: اللعب بالخيال وهي كالسينما، يخرجون فيه الناس والأشياء في الشوارع والأماكن المختلفة في الأعياد وغيرها. كما كان في بعض المحلات مقلدون يقومون بفن التقليد والمحاكاة، فكان ببغداد رجل يعرف بابن المغازلي يقف على الطريق ويقص على الناس أنواع الأخبار والنوادر المضحكة. وكان يقلد كل طوائف الناس، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكلى وتصبي الحليم[2].

وانتشر في بغداد نظام الفتوة والشجاعة، وهو نظام اجتماعي يراد به الخلال الحميدة والمروءة ومساعدة الضعيف والنجدة. ولقد عرف العرب بها في قديم الزمان. وقولوا في ذلك الأشعار الكثيرة. والفوا لنا أدباً وافراً في كل ما ينطبق على الفروسية والشجاعة. وقد اشتهر الفتيان برمي البندق، وتربية الحمام الزاجل، وركوب الخيل والمبارزة، والمسابقة، وكان منهم النشابون، والقواسون، والزراقون بالنار. وعنوا عناية كبرى بالصيد والقنص[3].

---

(1) د. أحمد أمين، الصعلكة والفتوة في الإسلام (مصر-دار المعارف، 1951)، ص67؛ أنظر: مجلة بين النهرين، العددان (51-52)، عام 1985، مقالة للمؤلف، الجوانب الاجتماعية والاقتصادية لسامراء في التاريخ، ص87.

(2) الدكتور ناجي معروف: المدخل في تاريخ الحضارة العربية (بغداد، مطبعة وزارة المعارف، 1961)، ص107.

(3) المصدر نفسه، ص106.

ومن عادات أهل بغداد أنهم يقصدون البساتين أيام العطل فيقضون عامة نهارهم في الأنس ويستحضرون ما لذ وطاب من الطعام والشراب. وكانوا يصطحبون معهم آلات الطرب وغيرها من متممات أسباب السرور[1]. وأكبر أعيادهم وأهمها عيد الفطر والأضحى. فيها تنصب الموائد للناس في دار الخلافة. وهما العيدان الوحيدان اللذان يحتفل بهما احتفالاً رسمياً. وكانت حفلات الختان والزواج من أهم الحفلات العائلية، وكان الناس يحاولون ان يظهروا من الغنى بأكثر مما عندهم[2].

وكانت وسائل النقل في بغداد على نوعين رئيسين: السفن والمراكب. وكان الوجهاء والمترفون من أهل بغداد يتفننون في بناء السفن ويغالون في اتقانها ويبدعون ما شاءوا في تزيينها، فأخرجوها في صور شتى حاكوا بها خلقة الحيوان والطير. وكانت للمترفين وذوي اليسار قوارب خاصة في دجلة ومراكب من أجود الخيل على أبوابهم[3].

واحترم أهل بغداد المرأة وفخر شجعانهم بها حينما يتحدثون عنها. وكانت المرأة إذا أصبحت أماً علت منزلتها وصار اليها الأمر والنهي في بيتها. ومن أجل ذلك اهتم أهل بغداد بالمرأة النسيبة، وكانوا يتخيرون نساءهم لينجبن لهم أولاداً لهم شرف ونسب[4]. وفي ذلك يقول الرسول الكريم (ص): تخيروا لنطفكم فأن العرق دساس. ويقول (ص) أيضاً:

---

(1) ميخائيل عواد، المصدر المار ذكره، ص84.

(2) د. عبد العزيز الدوري وزملاؤه، المصدر المار ذكره، ص274.

(3) ميخائيل عواد، المصدر المار ذكره، ص73.

(4) د. ناجي معروف، المصدر المار ذكره، ص85-86.

إياكم وخضراء الدمن.. قالوا ومن خضراء الدمن يا رسول الله قال: الجميلة المنظر الخبيثة المنبت.

وكانوا يترنمون بالأعراس بالأبيات الآتية:

عــــرب وليــــدك عـــرب والنـــــار مــــن محباســــها

والعــــز بــــوروك النســـا اللـــي عــرب مـــن ساســـها

وكانت المرأة تخاطب برية البيت، ولا ينادونها الا بكنيتها . وأهل بغداد يفخرون بنسبهم إلى أمهاتهم كما يفخرون بنسبهم إلى آبائهم، ومن أجل ذلك نشأت عصبية الخؤولة، وهي نصرة عشيرة الأم لعشيرة زوجها . وكان المقاتلون يتحاشون الفرار من ميادين القتال خوفاً من تعيير النساء لهم بالجبن والخوف[1] .

أخلاق البغداديين:

ويمتاز البغداديون بالصراحة والصدق والتزامهم الشديد بالتقاليد والقيم ويرتاحون لمن يلتزم بها ويأيمنونه. وهم طيبون أمناء اتقياء لا يضمرون الشر لأحد الا إذا أظهر الشر لهم. وتتجلى طيبة البغداديين عند الاقتدار وتظهر براعتهم عند المناقشة، وتتثار في حالات التحدي. وهم يعرفون الحقوق والواجبات ويقدرون الجيرة وما تفرضه عادات وتقاليد المحلة وما يتطلبه الحفاظ على الكرامة وصيانة الشرف والدفاع عن الحق. ومن أهم صفاتهم الشهامة والمروءة والنخوة والكرم والنجدة ومساعدة الضعفاء والفقراء والترفع عن المباذل[2] .

---

(1) المصدر نفسه، ص85.

(2) د. نوري حمودي القيسي، أحاديث بغداد، مجلة التراث الشعبي، عدد خاص لبغداد، العدد الثاني1987، ص145-146.

وأهل بغداد يعظمون الكبير ويرحمون الصغير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، يرعون الجوار ويحفظون الذمار، حتى أن أحدهم إذا رأى من جاره أدنى مثلبه سارع في تأديبه وبالغ في ترهيبه فإذا سمع رب البيت ذلك المسيء قابل جاره بالشكر والثناء وأنواع الدعاء غيبة وحضوراً، فينزل كل أحد منهم غيره منزلة الأخ والأب أو الأخت أو الوالد. ومن أخلاقهم أنهم يحملون السيف ويكرمون الضيف ويفشون السلام ويطعمون الطعام ويأمرون الغريب ويشفقون على القريب ويكثرون من صحبة العلماء ويترنحون بذكر الكرماء[1].

وهم يعودون المرضى ويشيعون الجنائز ويبالغون في أعطاء الجوائز ويأنفون من عشرة من لا يؤمن بيوم الحساب، ويقرضون المحتاج ويصبرون على المعسر ويتعوذون من العقوق ويبادرون لإيفاء الحقوق ويواسون البائس العديم ويرحمون الأرملة واليتيم، يؤدون الأمانات إلى أهلها ويعدلون عن القضايا وفصلها.

الظالم عندهم مخذول وان كان من الفروع والأصول لا تأخذهم في الله لومة لائم وكلهم أماجد أكارم، يتحرون أكل الحلال ولو في رؤوس الجبال ويهربون من الحرام ويحافظون على العبادات، يتوسعون في اللطائف والمكالمة ويتعاطون الظرائف والمتنادرة يتواضعون ولكن للمتواضع. وهم أعدل الناس سيرة وأسلمهم سريرة[2].

---

(1) مجلة المورد، عدد خاص، العدد الرابع، المجلد الثامن، عام1979، من مقالة للسيد عبد الحسين مجيد، تحقيق لكتاب نيل المراد في أحوال العراق وبغداد لمؤلفه عباس بن جواد بن رجب البغدادي، ص537.

(2) المصدر نفسه، ص538.

الخاتمة:

مما مرّ يتبين لنا أن أهل بغداد أهل حضارة وعلم وعادات اجتماعية فاضلة نمت وتطورت عبر العصور. وأن بغداد لها ماض عريق أصيل، وأن أهل بغداد لهم قيم هذبّها الإسلام، فغدت ناصعة كالبياض وصفت كالماء الزلال. لهم أخلاق عالية ومروءة وكرم وشجاعة، حب للعلم، وأهله، ميل للخير وعدم السكوت على الضيم. مؤمنون بوطنهم وأمتهم وأهلها هكذا فيما مرت من الأعوام والسنين، فأن ما عليه اليوم من تقدم وتطور كبير ومن جمال وحضارة يدعونا إلى الفخر والاعتزاز بها بغداد العروبة، بغداد الأزل والحضارة والتقدم والحرية والأمل.

ب-مجالس بغداد القديمة:مقهى الزهاوي ومقهى الرصافي[1]

اشتهرت في بغداد القديمة عدة مقاه، أنشئ معظمها في العهد العثماني، ونالت شهرة كبيرة، ما زالت تتمتع بها إلى الآن، إلا الذي اندرس منها أو استبدل به مخزن أو متجر أو ما إلى ذلك. وأغلب هذه المقاهي ظل كذلك إلى أعوام طويلة بعد الاحتلال وقيام الحكم الوطني الذي انتهى بالنظام الجمهوري أخيراً، ومنها ما بقى إلى اليوم يحدثنا عن السلف الصالح، وعما كان قد أخذ به نفسه من عادات وتقاليد.

---

(1) صفاء الحيدري، مجالس بغداد القديمة: مقهى الزهاوي ومقهى الرصافي، مجلة المجلة (القاهرة)، العدد الثالث والعشرون، السنة الثانية، ربيع الثاني1387، نوفمبر1958، ص134-136. ومؤلفنا هذا هو شاعر وصحفي (1921-1992)، كان ضابطاً في الجيش العثماني، وثقف نفسه ذاتياً، فأصدر مجلة (الاقباس) عام1945، وجريدة (الأصداء السياسية) عام1949، وجريدة (كل شيء) عام1950، وله دواوين شعرية، وصدرت أعماله الشعرية الكاملة عام1981. المطبعي، موسوعة أعلام وعلماء العراق-الجزء الأول، ص393.

كانت هذه المقاهي بالنسبة للناس في العهد القديم، أشبه شيء بالدوائر الشبيهة بالرسمية أو الخانات التجارية والندوات الاجتماعية، يلتقون فيها ويتشاورون ويتبادلون وجهات النظر في أمورهم الخاصة والعامة: فبينا يعقد التجار والإشراف والأغنياء صفقاتهم الأولية فيها، يتبادل الآخرون ممن لا همّ ولا غمّ لهم إلا الأحاديث ومختلف النوادر والحكايات، إذ أن القليل من سكان بغداد كان يملك (اديوخانة) خاصة يستقبل فيها الناس، فقد كانت وقفاً على أغنياء البلد فقط، وهم معدودون. وحتى هؤلاء كانوا غالباً ما يرتادون هذه المقاهي للترويح عن النفس، والهرب من الوحدة، ولمشاركة الآخرين في مسراتهم ومصالحهم أحياناً.

لم تكن هذه المقاهي مثلها اليوم، تظل مفتوحة إلى ما بعد منتصف الليل، إذ لم يكن في ذلك الوقت كهرباء تسهل عليهم السهر والسمر، فقد كان كل زادهم من النور الفوانيس والمصابيح النفطية والشموع واللمبة (الأويزة) واللسكات التي ظهرت بعد الحرب الثانية، والتي لم يك يملكها إلا القلائل من الناس، يستعينون بها على قضاء ليالي رمضان التي كانت لهم خلالها مناهج وبرامج.

لذلك فإن معظم المقاهي كانت عادة تغلق أبوابها مع الغروب، باستثناء بعض الليالي والمناسبات الخاصة كليلة القدر و(المحيّة) أو الخسوف، وليالي الأعياد.



وعادة اتخاذ المقاهي مكاناً لإنجاز الصفقات وغير ذلك من الشؤون ما زالت باقية إلى اليوم في العراق أثراً من الماضي، إذ لم نزل نجد إلى يومنا هذا مقاهينا تغص بأصحاب المصالح من ملاك وتجار

وصيارفة كمقهى التجار في الكمارك القديم (المعلقة) ومقهى (باب الجامع) في سوق الروافين، ومقهى الشابندر في شارع المتنبي. ومقاهي شارع البنك المشهورة الثلاثة التي أزيلت الآن وبنيت محلها عمارة البنك العربي وعمارة مصرف الرافدين، وأشهرها مقهى الـ(قيصرية) الذي كان يحيى فيه المطرب العراقي المشهور المرحوم رشيد القندرجي حفلاته الغنائية مع (جالغي بغداد)، وقد استبدل بجميعها محال تجارية ومخازن للصيارفة والصحف.



كان أشهر هذه المقاهي مقهى التجار في الكمرك القديم، المطل على نهر دجلة، حيث كان يلتقي فيها التجار بصورة عامة، وفي فرع مقابل لهذا المقهى تجار بعض الطوائف الأخرى على حين كان ينفرد أصحاب المصالح والمراجعون ومن لهم اتصالات رسمية بالدوائر الرسمية في مقهى الشابندر في شارع (القشلة)[1] القديم، وهو شارع المتنبي الآن، حيث كان سراي الدولة ومركز البوليس آن ذاك. وهذا المقهى ما زال إلى اليوم مركزاً حيوياً لجميع أرباب الحرف وأصحاب المصالح والعلاقة مع دوائر الحكومة التي تمركزت هناك قديماً والآن.



أما على رأس الجسر الآخر وهو شارع حسان بن ثابت المؤدي إلى مديرية الشرطة العامة اليوم، فكان هناك مقهى الزهاوي، وقد سمي بهذا الاسم نسبة للشاعر العراقي المرحوم جميل صدقي الزهاوي الذي كان قد جعله مقهاه حيث يجلس فيه وقد أحاط به حواريوه من المعجبين

(1) في الأصل "الشقلة" والصواب ما أثبتناه (المحقق).

بشعره وفلسفته، ويقابله على الرصيف الآخر الخاص مقهى (عارف آغا) الذي كان الشاعر العراقي المرحوم معروف الرصافي قد اتخذه هو الآخر مجلساً له ولحوارييه من المعجبين به منافساً الزهاوي. والمقهى الأول لم يزل قائماً إلى اليوم، أما مقهى عارف أغا فقد أغلق منذ عدة سنوات.



ومن المقاهي التي لم تزل باقية إلى اليوم، وإن كانت تختفي في الشتاء وتظهر في الصيف مقهى (السلطاني) وهو المقهى الصيفي الذي يربض تحت قائمة جسر المأمون على جانب الرصافة. والمشهور عن هذا المقهى أنه كان من المقاهي التي يزدحم فيها الناس أثناء قطع العبور على الجسر الخشبي القديم الذي حل محله الآن جسر حديث من الحديد، أو في مناسبات خاصة أخرى حيث تضرب الطبول، ويعزف على الربابة، ويتزاحم الباعة، ويرقص (الشعارون). وقد شهد هذا المقهى حوادث كثيرة، تلف خلالها الجسر، وانفصلت القوارب التي تحمله بتأثير الفيضانات والعواصف.

أما في جانب الكرخ فقد كان أشهر هذه المقاهي على الإطلاق مقهى البيروتي، ولم يزل يطل بشبابيكه الخشبية على نهر دجلة حيث كان يجلس علية القوم قديماً ويقضون ليالي رمضان الممتعة وهم يلعبون لعبة (الصينية).

ولعبة الصينية هذه لعبة محلية يضع اللاعبون داخلها اثنى عشر فنجاناً نحاسية مقلوبة يسمونها طيوراً، ويخفون داخل أحدها فقط (ودعة)، وبعد أن ينقسموا صفين يبدءون بالمراهنة بالمراهنة: فالفريق الذي يضرب الرقم القياسي في اكتشاف (الودعة) المختفية يكسب

الرهان، وهو عادة صينية واحدة أو صينيتان، وقد تبلغ الثلاث، من الحلويات المختلفة كالبقلاوة والزلابية وغزل البنات وغير ذلك، ويتخلل ذلك كله هتاف وصخب عال يدلان على مرح وانسجام عظيمين، ويطول بهم السهر إلى ساعات متأخرة من الليل حتى وقت السحور، حيث يتفرقون إلى بيوتهم ليتناولوا أكلة خفيفة، أو يغفوا بغيرها إلى ما قبل ساعة الإفطار في المساء بقليل.

ويروى عن مقهى البارودي، أنه كانت بداخله (نخلة) لم يشأ أصحاب المقهى أن يقطعوها، فكيفوا تشييد المقهى بحيث أحاط السقف بقامتها، على حين ظلت سعفاتها حرة في الفضاء تطل على السطح، لكنها ويالالأسف قطعت قبل بضع سنوات بعد أن أصبح المقهى أشبه ما يكون بمصيف أو مشتى للطلاب الذين جعلوا منه بعد أن هجره القدامى مكتبة للمطالعة، بالنظر لما يتمتع به من جو رائق ومناظر ليلية جميلة، حيث يرون منه ساحل دجلة وشواطئه الفضية بعالمه الصاخب المضيء في الليل، وساعتهم المنارة المفضلة لديهم (ساعة القشلة) والتمثال الخشبي الذي فوقها لأعرابي يمتطي الناقة ويشير إلى اتجاه الريح.



والحديث يطول عن مقاهي بغداد، لم يزل يرويه لنا القدماء كأعزّ ما يعرفون من ذكريات. وعلى الرغم من قلة ما كان يتوافر وقت ذلك من وسائل التسلية، فإن هذه المقاهي كانت مصدر مباهج كبيرة لعلية القوم وأوساطهم. وما كان أجمل منظرهم وهم يفدون إليها ممتطين صهوات جيادهم أو حميرهم (الحساوية)[1] البيض! إذ قلّ من كان يملك

(1) الحمار الحساوي: نوع من الحمير العراقية، ضخم الجسم أبيض ناصع البياض يمتطيه الوجهاء والمتمكنون فقط.

منهم جواداً في ذلك الوقت، باستثناء الوالي والباشوات ونقباء البلد طبعاً، فيربطونها بعيداً عنهم ويجلسون وأمامهم (نراكيلهم)[1] فمنهم من يتحدث، ومنهم من يصغي إلى قرقرة نركيلته، وقد سبح في عوالم مجهولة من الرؤى والأفكار.

لم يكن هنالك وقتئذ من أدوات اللعب والتسلية ما هو موجود منها الآن كالطاولي والشطرنج والورق والدومينو والبليارد والتنس والكرة المنضدية وغيرها وغيرها، إنما جل ما كان موجوداً هو لعبة الصينية الآنفة الذكر، ولعبة أخرى يسمونها (المنقلة) وهي خشبتان فيهما صفان من الحفر، وكل صف به سبع من الحفر، وكل صف به سبع من الحفر يضعون فيها الحصى، ويتبارون عليها على طريقتهم الخاصة، فترى الكهول والشيوخ وقد تكأكئوا حول اللاعبين وفي أعينهم بريق الاهتمام والتتبع.

وكانت المشروبات المفضلة يوم ذاك في تلك المقاهي هي الشاي والقهوة المرّة، فإذا أسر إليك أحدهم بأن القهوة التي تقدم في مقهى القيصرية يضرب بجودتها المثل، فإنما أفضى إليك بأمر خطير، فالشاي والقهوة كانا يأخذان جزءاً كبيراً من اهتمام الناس ووقتهم في بغداد القديمة، ولطالما أمضى قسمٌ كبيرٌ من سكانها الليل بطوله وهو يتحدث عن القهوة وأصنافها ويضرب على قوله الأمثلة ويأتي بالشواهد ...

وإذا كان لساقي الخمر أهميته في العصور العباسية النواسية، فقد كان لسقاة القهوة في بغداد القديمة أهميتهم التي لا تقل بحال من الأحوال عن أهمية ساقي الخمر: فكما كان الأول لا يني يمر على

---

(1) النركيلة: هي النرجيلة باللغة المصرية.

الـثملين لـيملأ فـراغ كئوسـهم، كـان السـقاة-وهـو عـادة نـدل مختصـون وإخصائيون في الوقت نفسه ينتقون انتقاء ويعدون إعداداً لهذه المهمة، لا يفتئون يمرون بأباريقهم المذّهبة وفناجينهم المجلاة ذات الرنين على المسمار طيلة ساعات الجلسة، وبين وقت آخر، ويجب الا تزيد الفواصل التي بينها عن ربع الساعة.

أما اليوم فالأمر في بغداد أصبح يختلف عنه في السابق، فقد تغير الناس، وحل محل القهوة والشاي والمنقلة: الكلاسيه والناسي كو في المرطبات والمشروبات المثلجة على اختلاف أنواعها، واستبدل القوم بلعبة الصينية رقصة الروك اندرول وأنغام الجاز، واندرس ذلك العهد بما كان فيه من براءة وعفة وفضيلة وتقوى كانت تؤاخي بين الناس..

هكذا كانت تمر الليالي، ومعها الأيام، في ذلك الجزء من العالم والزمان.

صفاء الحيدري

ج-مجالس بغداد الأدبية في الجيل الماضي[1]:

لعل من قال ان (المجالس مدارس) لم يتجاوز الواقع خاصة إذاً كان يتحدث عن مجتمع لم يتعرف بعد على الكليات أو الجامعات أو الجامع العلمية والأدبية مثل المجتمع العراقي في الجيل الماضي الذي لا أريد التوغل في أعماق تاريخه، ولكني سأتحدث عن بعض المجالس الأدبية التي كانت تنعقد في بغداد في مطلع القرن العشرين إلى حلول النصف الثاني منه، فلقد أتاحت لي الظروف حضور بعض هذه المجالس والندوات أو أن أتعرف على بعض من كان يحضرها ويقبس من أحاديثها ومداولاتها ما كان ينقله إلى أصدقائه منها أو ما يسجله في بعض أحاديثه ومقالاته، ولست استطيع ان أبلغ الغاية في ذلك، بل لعلي لا أتجاوز الحقيقة إذاً قلت ان ما دون من أخبار مجالس بغداد في بعض الكتب والمقالات لم يحقق كل ما كان مأمولاً سنه على النحو الذي يحقق تطلعات المعاصرين الذين يتطلعون إلى معرفة آثار أجدادهم وآبائهم ممن

---

(1) عبد القادر البراك، مجالس بغداد الأدبية في الجيل الماضي أنجبت خيرة الأدباء والشعراء قادة الرأي، مجلة الثقافة (بغداد) العدد الثاني، السنة السادسة عشرة، شباط، 1986، ص221-223. عبد القادر البراك (1923-1994)، كاتب وصحفي، مال للعمل الصحفي في سن مبكرة من حياته، إذ أصدر جريدة (الأمالي) سنة 1946، وجريدة (الميثاق) التي بقيت لغاية 1954. وواصل عمله الصحفي فأصدر جريدتين مهمتين كان لهما شأن كبير في الصحافة العراقية وهما: جريدة (الأيام) في 1959، 1963، وجريد (البلد) التي صدرت في آب 1963 واستمرت إلى 1967.

ولا يسعنا في هذا المجال أكثر من التنويه بأن هاتين الجريدتين كانتا حافلتين بالمقالات السياسية والأدبية، فضلاً عن ترجمة أعلام العراقيين في الأدب والثقافة، إذ دعا البراك نفسه كبار الأدباء إلى الكتابة في جريدتيه المذكورتين فكان له ما أرد. مير بصري، أعلام الأدب في العراق الحديث، ج3، ص146؛ المطبعي، مؤسسة أعلام وعلماء العراق، ج1، ص502.

كانوا يحضرون هذه المجالس ويساهمون فيها، ذلك ان ما كتبه الباحث الجليل المرحوم (إبراهيم الدروبي) في كتابه (البغداديون)[1] لم يكون سوى ثبت باسماء عاقدي المجالس، دون أفراد مباحث مكرسة لكل مجلس منها أو لبعض هذه المجالس وبصورة خاصة تلك المجالس التي كان يحضرها كالمجالس التي كانت تعقد في (الدكاه القادرية) سواء في حياة المرحوم السيد عبد الرحمن النقيب أو السادة الأجلاء الذي تعاقبوا على سدانة الحضرة الكيلانية وتولى نقابة الإشراف أو مجلس المرحوم علامة العراق المرحوم (محمود شكري الآلوسي) أو العلامة المرحوم (عبد الوهاب النائب) أو المجلس الذي كان ينعقد في (كنيسة اللاتين) حيث كان يقيم فقيد اللغة العربية الأب انستاس ماري الكرملي وقد كنت أشهد (الدروبي) يحضره في كل حرية خاصة في السنوات التي سبقت وفاة الكرملي في أواخر الأربعينات. وليست هذه المجالس وحدها التي لم يتحدث عنها المرحوم (الدروبي) بالإسهاب الذي يتناسب مع أهمية ما كان يجري في تلك المجالس من المحاضرات والمناظرات كمجلس (الكاتب العراقي الكبير المرحوم فهمي المدرس) أو مجلس شاعر العراق الفيلسوف المرحوم جميل صدقي الزهاوي. على أن إغفال (الدروبي) للبحث في كل ذلك أو عدم تيسر المعلومات الكافية عنها لا يقلل من قيمة ما كتبه في كتابه العتيد الذي نأمل أن يبادر أفراد اسرته الكريمة إلى إعادة طبعه بعد ان فقد من الأسواق وزاد عدد الذين يحتاجون إلى الإطلاع عليه من أبناء الجيل الحالي وما يقال عن ضرورة إعادة طبع هذا الكتاب يقال عن ضرورة جمع ما كتبه العلامة الكبير

---

(1) لقد طبع هذا الكتاب اكثر من مرة وهو بعنوان (البغداديون أخبارهم ومجالسهم) (المحقق).

الأستاذ الشيخ محمد بهجة الاثري عضو المجامع العلمية العراقية عن (أعلام العراق) ممن درس عليهم وحضر مجالسهم وتمتع بصداقاتهم ووقف على سواهم ذلك ان ما كتبه الاثري من فصول إضافية في المجلات التي كانت تصدر في العشرينات أو الثلاثينات وبصورة خاصة مقالاته وبحوثه عن الموسيقار العراقي الشهير (الملا عثمان الموصلي) أو الوجه البغدادي (عبد القادر دلة) أو الفكه المشهور (عبد الله الخياط) وكثير غيره ممن استوعب الاثري خيرة أخبارهم وآثارهم وأودعها في مقالات تناثرت في مجلات فقدت وهي من أجدر ما يجب أن يُجمع في كتب لا غنى للمعنيين بالتراث العراقي من الوقوف عليها والإفادة منها.

ولقد كان الأديب العربي الكبير المرحوم أحمد حسن الزيات صاحب مجلة (الرسالة) الشهيرة أول من التفت إلى أهمية ما يدور في مجالس بغداد فكتب مقالات خاصة عن (الحلقة) وهي الندوة التي كان يعقدها كل من المغفور لهم طه الهاشمي، وكامل الجادرجي، وشوكت الزهاوي وموفق الألوسي، ويوسف إبراهيم في مجالس كانوا يتناولون فيها قضايا عصرهم كل من زاوية اختصاصه. وما كتبه عن هذه المجالس في كتابه الخالد (وحي الرسالة) يصلح أن يكون نبراساً يهتدي به من يريد الكتابة عن مجالس بغداد الأدبية.

ان مجالس (انستاس الكرملي) و(فهمي المدرس) و(محمود صبحي الدفتري) وغيرهم من العلماء الأعلام كانت مدارس تخرج فيها عدد كبير من رجال الشعر والأدب والصحافة وقادة الرأي والفكر خاصة في الفترة الذهبية من تاريخ بغداد في مطلع قيام الحكم الأهلي حيث كانت ملاذاً لكبار المجاهدين العرب من أمثال (عزيز علي المصري) و(عبد العزيز الثعالبي) و(الحبيب بورقيبة) و(عبد الرحمن الشهبندر) والفيلسوف

التركي (رضا توفيق) وغيرهم من الأفذاذ الذين كانوا يحضرون هذه المجالس ويقدمون خلاصة تجاربهم لمن اعتادوا ان يتلقوا الدروس من أمثال هذه المجالس.

ولقد كتب لي ان أشهد مجالس الأب انستاس الكرملي وقد تعرفت على عشرات العلماء والفضلاء والأدباء الذين كانوا يتحدثون في مختلف الشؤون الثقافية أذكر من هؤلاء على سبيل التمثيل لا الحصر المعروف المرحوم (عباس العزاوي) والمؤرخ يعقوب سركيس والباحث (الفريق أمين المعلوف) واضع أول (معجم للحيوان) في اللغة العربية والمرحوم داود الجلبي العالم الفذ في شتى فنون المعرفة والمؤرخ المتمرس مصطفى جواد وغيرهم ممن تحدث عنهم الأستاذ كوركيس عواد في كتابه الذي كرسه للحديث عن جوانب حياة الكرملي وكذلك الكتاب المماثل الذي أصدره الدكتور إبراهيم السامرائي والشعراء كاظم الدجيلي ومهدي مقلد وكمال عثمان وغيرهم.

وبعد فأن مجالس بغداد في القرن الماضي أو مطلع القرن العشرين قد قدمت مادة غزيرة من المعلومات لعدد كبير من العلماء والأعلام وهي خليقة بأن تكون موضع دراسة جامعية على مستوى (الماجستير) أو (الدكتوراه) نقدم للأجيال القادمة ثروة لا تقدر بثمن ليس لدى الأجيال المعاصرة بل للأجيال القادمة عبر القرون والأزمان.



وإلى جانب هذه البحوث الاجتماعية، فإن هناك ما يكشف عن جوانب اجتماعية أخرى، تتعلق بعادات البغداديين ومعتقداتهم، وإلى بعضها نشير.

5-معتقدات البغداديين في أواسط القرن التاسع عشر[1]

كان المستشرق المعروف بيترمان قد زار بغداد سنة أربع وخمسين وثمان مئة وألف في عهد الوالي العثماني كوزلكلي رشيد باشا وقد تسنى له أن يقيم فيها مدة تناهز الخمسة أشهر، استطاع خلالها أن يدرس أحوال البلاد وشؤون سكانها ويستقصي كثيراً عن الكتب العربية والفارسية النادرة ومخطوطاتها، وليس من الغريب على مثل هذا المستشرق أن يتوفق في هذا العمل الثقافي المفيد، ويتوصل إلى شراء

---

(1) جعفر الخياط، معتقدات البغداديين في أواسط القرن التاسع عشر، مجلة التراث الشعبي(بغداد)، العدد الأول، السنة الثانية، تشرين الثاني، 1964، ص22-23.
الأستاذ جعفر خياط (1907-1975)، ولد في بغداد عام1907 وأكمل دراسته الابتدائية والثانوية فيها، ودرس في الجامعة الأمريكية في بيروت، وحصل على شهادتي البكالوريوس والماجستير في جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية. وعند عودته إلى العراق عمل في مجالات التربية والتعليم، والإدارة، والتفتيش، وترك الخدمة في الوظائف الحكومية لينصرف إلى الترجمة والتأليف، ولكنه أعيد مديراً عاماً للتعليم المهني العام عام1966.
كان الأستاذ الخياط نشطاً في عالم الترجمة، وكان كتاب ستيفن هيمسلي لونكريك (أربعة قرون من تاريخ العراق) من أول الكتب المهمة التي ترجمها عن العراق وذلك عام1941، وأعيد طبعه عدة مرات بعد ذلك. وبجانب ذلك فقد نشر عدداً كبيراً من المقالات المؤلفة والمترجمة في مجلة (المعلم الجديد)، و(التراث الشعبي) و(الأقلام) والبلد، وغيرها من مجلات وصحف العراق، التي يتعلق قسم منها بالحياة الاجتماعية في بغداد، مستقاة من إحاطته بهذا الموضوع، أو مما كتبه الرحالة الأوربيون. محسن جمال الدين: جعفر الخياط من أعلام الترجمة في العراق. مجلة البلاغ(الكاظمية)، العدد السابع، السنة السادسة، 1396هـ/1976م، ص12-20؛ باقر أمين الورد، أعلام العراق الحديث، ج1، ص204؛ وللمؤلف نفسه، معجم العلماء العرب، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت-لبنان، ط1، 1406هـ/1986م، ج2، ص39.

مجموعة كبيرة من الصحف والمخطوطات فيبعث بها إلى (المكتبة الملكية) في برلين، فإنه كان ضليعاً بالعربية والفارسية وله مؤلفات عدة فيهما، ومن جملتها كتاب خاص في قواعد اللغة العربية وصرفها.

وقد عمد خلال مدة مكثه في العراق وإيران إلى تدوين الكثير من الملاحظات القيمة فطبعها في كتاب خاص سنة أربع وستين وثمان مئة وألف وأطلق عليه اسم (رحلات في الشرق).

وكان من جملة ما تطرق إليه عن بغداد وشؤون سكانها في تلك الأيام الخوالي أشياء كثيرة عن المعتقدات التي كانوا يعتقدون بها، فتؤثر تأثيراً غير قليل في سلوكهم وأحوالهم العامة. وهو يقول أن عدداً كبيراً من المسيحيين واليهود كذلك كان يشارك المسلمين في هذه المعتقدات ويرى رأيهم فيها.

وأول ما يتطرق إليه في هذا الشأن عقيدة البغداديين ببعض الأحجار وخصائصها الشفائية، وغير الشفائية، فيذكر أولاً ما يسمى بحجر الدم الذي يؤتى به من الكوفة عادة، وهو حجر صلب لا يؤثر فيه المبرد. ومن أهم خصائصه أنه يوقف نزيف الدم في الإنسان، إذ يطلب إلى المصاب بالنزيف ان يحدق في هذا الحجر تحديقاً طويلاً ويمعن النظر فيه مدة من الزمن، أو يطلب إليه أن يضعه على موقع من جنبه، فيوقف نزيفه بأذن الله.

ويذكر كذلك نوعاً من الحجر الرصاصي يسمى الحجر (السلطاني)، ومن خصائص هذا الحجر أنه يساعد على اجتذاب الرجال إلى النساء والقاء المحبّة في قلوبهم. ولذلك كان الكثيرات من نسوة بغداد يعلقنه في أعناقهن ليزيد في محبة رجالهن لهن، ويسهل

عليهن التحدي لهم على ما يقول الهربيترمان. وهناك حجر آخر كان يطلق عليه (مخ الحمار) وكان يقدم للخصوم والأعداء بقصد إيذائهم أو التنكيل بهم. فكان يخلط مسحوقه الناعم أو برادته المتناثرة بالمأكولات أو المشروبات التي تقدم للخصوم فتسبب الجنة وخفة العقل فيهم على ما يعتقد.

ومما كان يفعل مثل هذا كذلك حجر أسود يسمى (حجر السلوى)، وهو حجر يتميز بانقلابه إلى اللون الأحمر حينما يوضع في الماء وإذا ما شرب ما سائله أحد الناس يؤدي به إلى الضعف والهزال التدريجي، فيوصله إلى الموت في النهاية ويقول بيترمان ان بعض النسوة كن يستفدن من هذا الحجر المهلك في القضاء على خصومهن به من الرجال أو النساء، أو الكيد بأزواجهن في بعض الأحيان ويأتي أيضاً على ذكر حجر قهوائي اللون، كان يعرف عند البغداديين باسم (السمامي) وخاصيته الوحيدة أنه كان يستخدم بمقام الطلاسم للأطفال وغيرهم من الناس.

ثم يتطرق بيترمان إلى ذكر الأدعية والتعاويد وما كانت تمارسه من تأثير في عقول الناس وتصرفاتهم يومذاك. فيقول مثلاً ان دواء لدغة العقرب عند الناس كان يقتصر على قيام أحد الملالي بقراءة التعويذة التالية على موضع اللدغ:

((بسم الله الرحمن الرحيم، سلام على نوح في العالمين)) والبصق ثلاث مرات بعد ذلك على الأرض، ويفسر هذا بأن نوحاً عليه السلام كان يعتبر ذكر اسمه تعويذة لشفاء لدغات العقرب ولسع الحيات لأنه عليه السلام لم يقبل الحية والعقرب في فلكه المعروف عند الطوفان إلا

بعد ان أخذ عهداً عليهما بانتفاء سمهما وزوال تأثيره السيء في الناس بمجرد ذكر أسمه.

ومما يذكره في هذا الشأن أيضاً ان الشرقيين جميعهم كانوا يزعمون بأنهم يستطيعون (ربط) الزوج أو أبعاده عن زوجته ومحبيه متى شاءوا. فإن أي فرد من الناس كان بوسعه ان يذهب إلى أحد الملالي ويطلب منه قراءة تعويذة خاصة لهذا الغرض فينزل خاتمة في أصبعه أثناء ذلك، وعند ذاك يتم له بهذا العمل ربط الزوج الذي قصده بحيث يبقى مشدوداً شداً خفياً طالما بقى الخاتم في أصبع ذلك الرابط، ويترتب على هذا ابتعاد الزوج عن زوجته أو نفور الشاب الخاطب عن البنت التي يزمع التبني بها، ما لم تتخذ التدابير العكسية لفكه، وإذا ما نثر أحدهم شيئاً من الطحين على الأرض عند قيام الملا المختص بتلاوة تعويذة في هذا الشأن، أو عمد إلى عقد عقدة خاصة في قطعة من القماش ثم حرقها وبدد رمادها فأن تلك العقدة يستحيل فكها عندئذ فتصبح مشدودة إلى الأبد.

ويقول بيترمان أن خادمه يومذاك جرب (الربط) بنفسه هازلاً في أحد الأيام ولم يستطع أبطاله إلا بإقامة وليمة خاصة لهذا الغرض وصرف مبلغ كبير من المال عليها.

ومن معتقدات البغداديين في تلك الأيام اعتقادهم بأيام الأسبوع المختلفة وتخصيص كل يوم منها لعمل من الأعمال.

فقد كان يوم الجمعة يخصص للنساء، ويوم السبت للصيد، ويوم الأحد لتشييد الدور وترميمها، والأربعاء لتعاطي الأدوية وتناولها، ويوم الخميس للشغل والزيارة وتقليم الأظافر وحلق الشعر، ويذكر بيترمان

بالمناسبة أن عملية تقليم الأظافر كانت تجري بتسلسل خاص وقواعد معينة. فقد كانت أظافر اليد اليمنى تقلم أولاً، وتأتي بعدها أظافر اليد اليسرى، على أن يبدأ بالسبابة فاليمنى فالوسطى فالإبهام فالخنصر فالبنصر، أما في اليسرى فقد كان يقلم الإبهام أولاً ثم للوسطى فالسبابة فالبنصر فالخنصر في النهاية.

وقد استطاع بيترمان ان يجمع عدداً من الوصفات الطبية التي كان للبغداديين اعتقاد خاص بها في تلك الأيام. فقد زوده صديقه الملا شيخ صالح مثلاً بالوصفة التالية للرمد والتهاب العيون، وهي وصفة ممتازة قلما كانت تخطئ وتتألف من مثقال واحد من الترياق، وثلاثة مثاقيل من حجر جهنم المحروق، واثنى عشر مثقالاً من التمر الهندي، وكانت تصنع بتنقيع التمر الهندي بالماء البارد ليلة واحدة، وعزل الماء عنه بعد ذلك ثم غليه وإضافة الترياك إليه وخلط مسحوق حجر جهنم به بعد نصف ساعة، ويؤخذ هذا الخليط فيوضع على النار حتى يتصلب بالتدريج، وعند ذاك كان يؤخذ مقدار قليل منه يعادل حبة القمح للمعالجة في كل مرة.

وكانت من الموصفات الأخرى مادة (من السماء) التي كثيراً ما كانت توصف ضد البلغم وأمراض المعدة وكذلك ورد البنفسج، الذي لا يزال يستعمل في بغداد حتى اليوم لتخفيف الحميات وتسكينها باسم ورد البنوشه كما لا يخفى. ويقول بيترمان أن ورد البنفسج كان يخلط مع السكر أحياناً ويغلى حتى تتكون منه مادة أشبه بسكر القند، فيؤكل على هذه الشاكلة للتداوي أو يغلى مع الماء ويشرب كما يشرب الشاي وقد كانت حلب مشهورة بصنعه في شكله هذا وكان يشيع استعمال ابراز الجربوع أيضاً لبعض الحالات المرضية.

ويتطرق بيترمان علاوة على هذا كله إلى ذكر الحجامة على هذا كله إلى ذكر الحجامة والكي واستفادة البغداديين منهما للتداوي أيضاً، كما يتطرق إلى استعمال النساء للحناء والزرنيج، وهو استعمال ما يزال معروفاً عندنا حتى اليوم. ومما يذكره عن الكي أنه يتم بطرق ووسائل عديدة تختلف باختلاف الأعضاء الموجودة في جسم الإنسان.

ومن معتقدات البغداديين في تلك الأيام أيضاً ما لم يزل يعتقد به البعض منهم في يومنا هذا. وهو اعتقادهم باستناد الكرة الأرضية على قرن واحد من قرني الثور وانتقالها إلى القرن الآخر مرة واحدة في السنة أي في يوم 21 آذار وهو اليوم الذي يطلق عليه يوم (دورة السنة) أو يوم السنة الجديدة عند الإيرانيين الذين نشأت عندهم هذه الخرافة. ويقول بيترمان في هذا الشأن أن البغداديين كانوا يعتقدون بوجود سبع سماوات وسبعة عوالم، وأن الأرض التي نعيش عليها هي العالم الثاني من هذه العوالم، وأن الثور الذي تستند على قرنها الأرض يقف فوق سمكة تعوم في الماء وأن الأرض يحيط بها جبل من الزمرد يقال له (جبل قاف)، وأن اللون الحقيقي للسماء هو اللون الأبيض لكن جبل الزمرد يعكس لونه الأزرق عليها فتبدو زرقاء اللون.

ثالثاً- الحياة الاقتصادية في بغداد في المجلات العراقية والعربية[1]:

نال عمران العراق بعامة، وبغداد بخاصة، اهتمام الباحثين العراقيين، فالعمران لا يقتصر في مفهومه العام على ما يصيب البلاد من تقدم وتوسع عمراني في المدينة، وإنما يشمل ذلك، التقدم والازدهار في مناحي الحياة الاقتصادي: الزراعة والصناعة والتجارة.

فنظراً لمثل تلك الاعتبارات وما يدعمها من أدلة، أقدم الباحثون العراقيون وغيرهم على إيراد كثير من الشواهد على ذلك. فهذا عبد الله أفندي آل الأعظمي[2]، يقول:

"حين ما يسمع السامع (ببغداد)
يتمثل عنده شكل مدينة بان شأوها
على ما سواها من المدن في العمران
والمدنية... ويلقي في روع السامع ما
احتوت عليه من المدارس الكبار
والمنتديات العلمية الفسيحة وقت ما
كانت عاصمة البلاد الإسلامية،

---

(1) حالة بغداد، مدارسها، مكاتبها، صحافتها، سياستها، مجلة تنوير الأفكار(بغداد)، الجزء الرابع من المجلد الأول، السنة الأولى في 5 ذي الحجة 1326- الأربعاء في 24 تشرين ثاني 1321، ص148-149.

(2) المصدر نفسه.

ومحط رجال الفضلاء الواردين لها من كل صقع.

ولباب القول هنا أن لبغداد شئناً كبيراً عند من لم يرها الآن في العلم في التقدم في الحضارة في السياسة في العمران".

وفي السياق نفسه، أوردت مجلة "اللسان" لمنشئها أحمد عزة الأعظمي[1] عدة مقالات بعنوان "عمران العراق"، منها ما يتعلق بمدينة

(1) أحمد عزة الأعظمي (1886-1936)، ولد في مدينة الحلة، لأن والده كان يشغل منصباً إدارياً فيها يومذاك. وقد درس في الكتاتيب والمدارس الرسمية في بغداد، ثم التحق بكلية الحقوق في العاصمة العثمانية (الاستانة). وأثناء إقامته هناك أصدر مجلة "المنتدى الأدبي" ثم "لسان العرب"، وكانت هاتان المجلتان ترجمان القضية العربية.

وعاد إلى بغداد بعد الحرب العالمية الأولى، فأنشأ مجلة "اللسان" عام 1919، ودامت قرابة سنتين، ثم أصدر مجلة "المعرض" (تشرين الثاني 1925-1927)، وانتخب أكثر من مرة في مجلس النواب العراقي. أرخ لحركة النهضة العربية وأصدر كتابه المشهور (القضية العربية: أسبابها، مقدماتها، ونتائجها، ويقع في ستة أجزاء، طبع في بغداد بين عامي 1931-1934. وجدير بالتنويه ان مجلة "اللسان" كانت حافلة بالموضوعات التاريخية والاجتماعية، وكذا هو الشأن بالنسبة لمجلة "المعرض" التي نالت الصدارة = =بين المجلات العراقية ببغداد، وأكثرها ذيوعاً وانتشاراً. تنظر ترجمته في: مير بصري، أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث، دار الجمهورية للطباعة، بغداد، 1971، ج1، ص107-116؛ الدليل العراقي الرسمي لسنة 1936، ص858؛ باقر أمين الورد، أعلام العراق الحديث، ج1، ص93؛ مصطفى كامل الآلوسي، أحمد عزة الأعظمي، مؤرخ القضية العربية (1886-1936)، مجلة المؤرخ العربي، العدد 56، ص38-41؛ عماد عبد السلام رؤوف، أحمد عزة الأعظمي (1880-1936)، موسوعة بيت الحكمة لأعلام العرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، بيت الحكمة، بغداد، ط1، 2000، ص56.

(بغداد) أو (اسم العراق والجزيرة)، بإسم مستعار هو "العُقاب"، وحددت أسباب العمران بقولها:

"أن أسباب العمران هي الإمارة والتجارة والزراعة والصناعة"، وادرجتها بسلسلة من المقالات[1].

وإلى ذلك المفهوم أيضاً أشار الأب انستاس ماري الكرملي، في حديثه عن دخول مجلة "المقتطف" إلى العراق عام 1876، بقوله:

"كانت الصناعة، بل الصناعات كلها، على اختلاف ألوانها في حالتها الأولى التي وجدت عليها قبل عدة قرون... ما مضت عقود من السنين إلاّ وقرأ الأحياء "الفاتحة" على أرواح تلك الصنائع الأهلية القديمة، لا رحمها الله، واليوم يقوم على بقاياها آلات محركة لاحكام ريّ الأرضين والبساتين العديدة" وتعدّدت عندنا المطابع وكثرت الآلات للحراثة والزراعة ولمقاصد أخرى عديدة.

فالعراق يشعر اليوم بنهضة صناعية جديدة، بعد أن كان الجهل

---

(1) العُقاب، عمران العراق، اسم العراق والجزيرة، مجلة اللسان، (بغداد)، الجزء الأول، المجلد، شوال سنة 1337، ص27.

قد دهوره في حركة بعيدة القعر. وأكثر الفضل في ذلك –وهو أمر لا ينكره عاقل- راجع إلى "المقتطف" الذي كان شعاره دائماً، "العلم والصناعة والزراعة..."[1]

ولقد حدث في أواخر العهد العثماني في العراق (1534-1917)، أن أولى بعض الولاة العثمانيين مثل مدحت باشا (1869-1871)، أهمية كبيرة للإصلاح، في مختلق مجالات الحياة الاقتصادية، بعدما كانت البلاد في حالة متأخرة، فاستقدمت الحكومة العثمانية خبير الرّي البريطاني السير وليم ويلكوكس فكان أن قدم تقريراً عن حالة الرّي في العراق، ووسائل إصلاحه، ويعدّ هذا التوجه طريقاً لتحسين حالة الزراعة والرّي، بل والاقتصاد العراقي عامة.

لم يغفل البريطانيون بعد احتلالهم العراق عام1914 أهمية هذه البلاد الاقتصادية، لذا نجد أن المجلات التي صدرت خلال السيطرة البريطانية على العراق ركزت على هذا الجانب، فقد أشارت مجلة "مرآة العراق" إلى ذلك بقولها:

"وقد أتينا بهذه النبذة للدلالة على مقام الاقتصاد في السياسة ولابد لكل أمة تحاول السبق في هذا المضمار

(1) فهر الجابري، (أحد أسماء الأب انستاس ماري الكرملي المستعارة)، المقتطف في العراق، مجلة المقتطف، الكتاب الذهبي لعيد المقتطف الخمسيني، (1926)، ص136-137.

في الاعتماد على الزراعة والصناعة والتجارة، فهي الدعائم الثلاث لتثمير الأموال، واستخراج خيرات الأرض وبركاتها، والاستفادة من سعي البشر واجتهادهم"[1].

وفضلاً عن ذلك فقد أصدرت مجلة "دار السلام" مقالاً بعنوان (العراق خزانة ذهب)، أكدت فيه على مصادر ثروة العراق بقولها:

"إن لنهري دجلة والفرات شأناً عظيماً في غنى هذه البلاد وثروتها الطبيعية، فإنهما يقومان بمهمتين عظيمتين هما مادتا الحياة ووسيلتا الثروة وهما: الزراعة والتجارة"[2].

غير أن الشيء الجديد الذي ظهر في مدة الحكم الوطني في العراق (1921-1958)، لم يكن يتمثل في جانب اقتصادي واحد، وإنما كان يتمثل في النهوض بكل مجالات الحياة الاقتصادية، التي تشمل الزراعة والري والصناعة والتجارة، والعمران.. العمران في بغداد، وهذا ما يشير إليه أحد الباحثين المعاصرين بقوله:

---

(1) ن.أ، التجارة، مرآة العراق(بغداد)، المجلد الأول، السنة الأولى، عدد2، يوم السبت 14 جمادي الأولى، سنة 1337، ص15.

(2) محمد عبد الحسين، العراق خزانة ذهب، مجلة دار السلام(بغداد)، العدد9 من المجلد الثالث، السنة الثالثة، في 2 أيار سنة 1920، الموافق13 شعبان سنة 1338، ص132.

"هـذا عمـران مدينـة بغـداد، فجانب الرصافة من مدينة بغداد كان إلى مـا بعـد اسـتقلال العـراق سـنة 1921 ينتـهي شمـالاً عنـد نقطـة بـاب المعظم، وينتهي جنوباً عند نقطة الباب الشـرقي، كانـت الأراضـي في محـل المكتبـة العامـة الحاليـة في بـاب المعظـم جرداء قفراء يبيع الأعـراب فيها التبن والحشـيس والشـوك، وبنايـة مدرسـة الراهبـات في البـاب الشـرقي التي دفـع بها ثمن قدره مليون دينـار فلـم يبيعهـا أصحابها لقلته. كانت خندقاً تُلقى فيـه أوسـاخ المدينـة، والبـاب الوسـطاني في شـرقي المدينـة كان مـن حـدود المدينـة الأسمية فقط. أي ان جانـب الرصـافة لم يكـن محـدوداً بقـوس دائـرة يمـر مـن باب المعظم فالبـاب الوسـطاني فالبـاب الشـرقي، إذ أن القسـم الأعظـم مـن الأرض الواقعة داخل هـذا القـوس كـان خاليـاً أو مـزارع وبسـاتين، فمحلـة السـنك مـثلاً كانت بسـاتين، والسـاحل الواقع بـين جسـر الملك فيصل والبـاب الشـرقي كانـت تقـوم عليـه قصـور متباعـدة بقـدر عـدد أصـابع اليـد،

والباقي أرض خالية، وأقل من ذلك بكثير كان عمران جانب الكرخ.

أما الآن، فقد اتصل عمران بغداد من الصليخ شمالاً إلى الزوية جنوباً، ومد أطرافه إلى بغداد الجديدة، وإلى مدينة المنصور والوشاش، ومدينة الهادي وكرادة مريم الخ...

ان مواد الإنشاء التي وضعها الشعب في توسيع مدينة بغداد في العشرين أو الثلاثين سنة الماضية تبلغ مئات أضعاف مواد الإنشاء التي كانت في المدينة يوم استقلال العراق.

وقيمة بنايات المدينة وعرصاتها -وهي بملايين الدنانير- قد تضاعفت مئات المرات أيضاً.

وهذا يعني "نهضة"، "نهضة بغداد"[1].

(1) محمد رزق الله أغسطين، العرب في 50 سنة، بغداد، 1377هـ/1958م، ص50-51. هو رزق الله أغسطين، فلسطيني المولد، استقدمته وزارة المعارف للتدريس في المدارس العراقية، من آثاره هذا الكتاب (العرب في خمسين سنة)، وقد اعتنق الإسلام فيما بعد، وسمى نفسه محمد رزق الله اغسطين. ينظر: مذكرات عبد

وإلى مثل ذلك أشار باحث آخر:

"أن العراق اليوم يبني ويشيد، ومن يزور العراق يجده خليّة كلها فاعلية ونشاط، فمن مشاريع ري ضخمة تقام على دجلة والفرات وروافدهما إلى صناعات جديدة تجلب لها الأوائل والمعدات، إلى عشرات الألوف من الدور والأبنية تبنى في جميع أرجائه، إلى نهضة علمية يعمل على بعثها قادة رأي وفكر، إلى غير ذلك من أوجه النهضة الجبارة"[1].

ففي هذه الإشارات التاريخية ما يشير إلى أهمية العمران، الذي هو وليد التطور الاقتصادي والاجتماعي لأي بلد، وعليه فإن الدراسات المختصة بالعمران، سواء ما يتعلق عنها بالعراق بعامة، أو بغداد بخاصة، هي التي ستتصدر المبحث الثالث من هذا الكتاب.

المجيد محمود، الوزير في العهد الملكي في العراق، أعدّها وعلق عليها وقدم لها عماد عبد السلام رؤوف، دار الحكمة، لندن، ط1، 2006، ص64-65.

(1) وجيه الحفار (صاحب جريدة الإنشاء)، أوجه النهضة في العراق الحديث، منشورات دار الإنشاء، دمشق، 1955، ص3.

أ-عمران العراق مدينة بغداد[1]:

أسماؤها- ان هذه المدينة هي حاضرة العراق العربي قائمة على ضفتي دجلة وموقعها من العرض الشمالي في الدرجة الـ33 والدقيقة الـ19 والثانية الـ55 ومن الطول الشرقي في الدرجة الـ42 والدقيقة الـ2 والثانية الـ15 يتخللها دجلة فيقسمها إلى شطرين أحدهما شرقي يسمى الرصافة وهي عربية من الرصف بمعنى الاجتماع والتكتل والثاني غربي يسمى الكرخ وهي سريانية بمعنى الحصن وبينهما جسر من زوارق متماسكة طوله 250 متراً. وفيها قال علي بن الجهم:

عيون المهى بين الرصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأما اسم بغداد فهو أعجمي بمعنى هبة الله قال ابن زريق البغدادي:

استودع الله في بغداد لي قمراً   بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ومن أسمائها جنة الأرض وغرة البلاد وعين العراق ودار الخلافة وحاضرة الدنيا ومدينة السلام والزوراء.

أما تسميتها بمدينة السلام ففيه أقوال أمثلها ان السلام من أسماء الله فمعناها مدينة الله ولعل هذا أولى لأنه تعريب أسمها الأعجمي ولذلك يسمى وادي دجلة وادي السلام. وقل ان اسم السلام

---

(1) العُقاب، (وهو اسم من أسماء الأب انستاس ماري الكرملي المُستعارة)، عمران العراق (مدينة بغداد)، مجلة اللسان (بغداد)، الجزء الثالث، المجلد الأول، ذي الحجة سنة 1337، ص90- 91.

هو قديم لدجلة فسميت المدينة به كما سميت بالزوراء لأنه من أسماء دجلة أيضاً إشارة إلى تعرجه وانعطافه في مجاريه قال الفارضي:

أوج النسيم سرى من الزوراء سحرا فاحيا ميت الأحياء

بناؤها- استشار الخليفة أبو العباس جعفر المنصور العباسي خاصته في محل يصلح لبناء عاصمة المملكة فاختاروا له مكان بغداد لأسباب أهمها أنه متوسط بين البصرة والكوفة وواسط والموصل، وأنه قريب من البحر والبر والجبل فيجمع بين سهولة النقل وحسن الموقع وطيب الهواء. فتجلب إليه الميرة وتنقل إليه الحاجات بالسفن من الرقة والشام ومصر والمغرب ومن البصرة وواسط وديار بكر والموصل وأرمينية والهند والروم والصين ولا يعبر فيه ألا على القناطر والجسور مما يقف سداً في وجه العدو. فاستحسن رأيهم مفضلاً إياه على غيره وعقد العزم على تشييد المدينة.

فاستقدم إليه المنجمين والمهندسين وبينهم نوبخت وخالد البرمكي والحجاج بن ارطأة وأمر بتخطيطها ورسم هندستها بأبوابها وأزقتها ودورها وأحيائها وسورها فخططت بالرماد ووضع على الرماد حب القطن وأضرمت فيه النار ليلاً فتجلى له شكلها بتمامه فعرف رسمها وتحقق تخطيطها وأمر ببنائها.

فحفرت أسسها على ذلك النمط الهندسي فكانت مدورة الشكل وقصره في قلبها والمسجد الجامع على مقربة من القصر وحولها سوران الداخل أعلى من الخارج. وأخرج الأسواق إلى ناحية لتصلح مبيتاً للغرباء وجعل الطرق أربعين ذراعاً ووضع بيده أول لبنة من بنائها قائلاً:

بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها لمن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

وانفق عليها بجميع أحيائها ونواحيها أربعة آلاف ألف وثماني ألف وثلاثة وثلاثين ألف درهم.

وقسم المنصور المدينة إلى أربعة وعشرين ألف محلة وبني في كل محلة مسجداً وقربه حمام. وبني على الأنهر التي تسقي بغداد مائة وخمسة وخمسين جسراً. وكان فيها أربعمائة طاحون مائية.

وكان سورها الذي شيده لحمايتها من مهاجمة الأعداء عظيماً شائقاً فعلوه ثلاثون ذراعاً وعرضه ثماني أذرع وأبوابه أربعة باب الكوفة وباب خراسان وباب البصرة وباب الشام وبين كل بابين نحو ميل.

وأنجز بناء بغداد نحو سنة 149هـ/766م بعد شغل أربع سنوات بدون انقطاع فلما تم بناؤها نقل إليها كرسي الخلافة من الهاشمية.

ب-الحالة الاقتصادية لمدينة بغداد أثناء الحكم الايلخاني 1258-1336[1]:

المقدمة:

ليس من السهل معالجة مثل هذا الموضوع لقلة ما كتب عنه خلال هذه الفترة. يطلق على هذه الفترة من تاريخ العراق اسم (الفترة المظلمة) Dark Period وهي في الحقيقة مظلمة لأن القليل يعرف عنها، ولم تجر الا محاولات قليلة لدراسة العراق خلال هذه الفترة. ويمتاز هذا العصر بقلة الكُتّاب المعاصرين، إذ هاجر معظمهم إلى سوريا أو مصر

---

(1) محمد رشيد الفيل، الحالة الاقتصادية لمدينة بغداد أثناء الحكم الايلخاني1258-1336، مجلة كلية الآداب(بغداد)، العدد السادس، نيسان1963، ص293-330.

تخلصاً من القتل أو خوفاً مما قد يصيبهم على أيدي الفاتحين الجُدد (المغول).

ولقد حاولنا قراءة جميع ما كتب عن هذا الموضوع في هذه الفترة ولكن لم نزل نعتقد أنه يعوزه الكثير لكي يصل إلى المستوى الذي نرجوه.

فتح العراق:

قرر مانجوخان **Mangu Khan** بعد تتويجه سنة **1251**م إرسال حملتين عسكريتين، تتجه الأولى لفتح الصين بقيادة أخاه قبلاي Kublai والثانية تتجه غرباً بقيادة هولاكو لفتح المنطقة بين آموداريا وحدود مصر[1]. ولم تكن هذه أول مرة يصل فيها المغول إلى العراق بل يذكر ابن كثير أن أول غارة على العراق كانت سنة **1220**م. حيث وصل المغول حتى أربيل[2]. وفي عام**1221**م وصلوا ضواحي بغداد. وفي هذه الفترة اعترف بدر الدين لؤلؤ سلطان الموصل بسلطانهم بل وساعدهم في حصار أربيل وبغداد[3]. وسار هولاكو بجيوشه الجرارة مكتسحاً أمامه كل من يعترض طريقه وقضى على حصون الإسماعليين والتفت لإكمال ما بدأه وأعني فتح العراق.

ولهولاكو أسبابه ودواعيه الخاصة التي دفعته إلى فتح بغداد عاصمة الخلافة العباسية. فهي مشهورة بعلومها وفنونها وصناعاتها

---

(1) الصدي في (تاريخ دول الإسلام)، ج2، ص267؛ المقريزي، السلوك، ج1، القسم الثاني، ص383؛

Howorth, History of Moqols. etc, PartIII, P.56.

(2) (البداية والنهاية)، ج13، ص86، 94.

(3) (ابن الفوطي)، الحوادث الجامعة، ص99؛ المقريزي، ج1، قسم2، ص410؛ ابن كثير، ص13، ص200.

وثرائها انتشرت أخباره كما أن ضعف المدينة وقد وصل أسماعه، ويروى ان ابن العلقمي وزير المعتصم العباسي شجع هولاكو كثيراً على فتح بغداد[1]. وكقائد عسكري اتخذ هولاكو كافة الاحتياطات اللازمة لفتح بغداد ووضع الخطة اللازمة لتنفيذ غايته.

كان الجناح الأيمن من الجيش المغولي مؤلفاً من قوات بايجو **Baiju**[2]. وتحركت هذه القوات من بلاد الروم وعبرت دجلة عند مدينة الموصل ووصلت إلى غرب بغداد حيث التقت بقوات بلغاي **Bulghai** وسوجاق **Sujak** وبوقاتيمور **Buka Timur** الذين قدموا من شهرزور إلى داقوق وعبروا نهر دجلة عند تكريت.

أما الجناح الأيسر من الجيش فكان تحت قيادة قتبوقا نويان **Kitu Buka Noyan** وقدسو **Kodsua** ونرهلكا **Nerhilka** الذي وصل بغداد عن طريق لورستان-بيات-تكريت.

أما هولاكو نفسه فكان لقيادة قلب الجيش ولقد أتى مع قواته عن طريق حلوان-خانقين-بغداد (طريق خراسان المشهور)[3]. وكان هذا الطريق يخترق مناطق جبلية وعرة يصعب اجتيازها ويشرف عليها حصن درتنك**Dertenk** الذي يعتبر مفتاح العراق العربي[4].

---

(1) السيوطي (تاريخ الخلفاء)، ص465؛ المستوفي (تاريخ جزيدا)، ص142؛ الذهبي (دول الإسلام)، ج2، ص122.

(2) الصفدي (الوفي بالوفيات)، ج1، ص184.

(3) ابن الفوطي، ص319-323؛ ابن الطقطقي (كتاب الفخري)، ص97؛
D'ohsson, "Histoire des Monglos Depuis Tchinguiz-Khan.. etc", Vol. PP.226-7; Howorth, "Op.Cit", Part III, PP.119-121.

(4) كان حصن درتنك تابعاً للعراق خلال الحكم العباسي وهو الآن تابع لإيران.

كان حصن درتنك تابعاً لحسام الدين عكا **Hisam al-Din-Aka**[1]، الذي استدعاه هولاكو محاولاً الاتفاق معه كما أعطاه بعض الحصون ليأمن جانبه ولكن حسام الدين رفض الاتفاق مع هولاكو واتصل بالخليفة العباسي وأخبره بخطة العدو وطلب من الخليفة ان يمده بجيش مدرب بالإضافة إلى قواته يتمكن من أن يوقف زحف هولاكو ولكن الخليفة صمّ أذنيه ولم يقبل هذا العرض بل ضربه عرض الحائط، فلما سمع هولاكو بما فعله حسام الدين عكا قبض عليه ودمر حصنه[2]. وهكذا أمن هلاكو طريقه وتحركت جيوشه لتنقض على بغداد. وما أن وصلت أنباء تقدم قوات المغول للاستيلاء على بغداد حتى نفر سكان منطقة الدجيل والإسحاقي ونهر عيسى ونهر الملك والتجاوا بمدينة بغداد ويروى أن الفارين دفعوا أسورة ذهبية أو بضعة دنانير لعبور نهر دجلة إلى بغداد حيث سكنوا في المدارس والرباطات والجوامع والشوارع[3]. ولا شك بأن هذا الازدحام الفجائي كان له أثره على الحالة الاقتصادية لمدينة بغداد.

أما الحالة في بغداد فكانت سيئة للغاية. ففي سنة **654**هـ/ **1256**م حدث فيضان عظيم أدى إلى هدم كثير من البيوت كما فاض القُبين والدجيل ونهر الملك ونهر عيسى وأدى إلى غرق كثير من الأراضي الزراعية[4]. وفي عام **1257**م حدثت معركة في بغداد بين السنة والشيعة وقد رافقها أعمال النهب والسلب والشغب[5]. وكان

---

(1) العزاوي (تاريخ العراق بن احتلالين)، ج1، ص164-165.

(2) D'ohsson, "Op.Cit", Vol.4, P.222.

(3) ابن الطقطقي، ص246-7، 300، ابن الفوطي، ص322.

(4) ابن الفوطي، ص318-319.

(5) Nicholson, "A Literary History of the Arabs", PP.455-6.

الخليفة نفسه ضعيفاً يقضي معظم أوقاته متفرجاً على الرقاصين والطبالين[1]. ولقد تمكن ابن العلقمي (وزير الخليفة المستعصم) من اقناع الخليفة بتخفيض عدد قوات الجيش وباستطاعة الخليفة ان يشتري الهدايا ويرسلها إلى هولاكو بالأموال التي يوفرها.

وهكذا خفض الخليفة قواته من 100,000 إلى 20,000 جندي وأضاف ابن الفوطي بأن الخليفة أهمل عطاء جنده فاضطرهم إلى الاستعطاء في الأسواق والجوامع[2]. ولا شك بأن كل هذا سهل مهمة هولاكو للاستيلاء على مدينة بغداد.

معركة بغداد سنة 1258م:

كان الدوادار (قائد جيوش الخليفة العباسي) قد خيم بين بعقوبة وباجسرا على طريق خراسان[3]. ولكنه عندما بلغه أن قوات المغول قد وصلت شمال بغداد عبر دجلة هو وجيوشه لمقابلة العدو.

وبناء على ذلك أصدر الخليفة أوامره بأن يأخذ مرشد الخصي بقية الجند وان يسير بهم على طريق خراسان لمقابلة هولاكو عند خانقين. ويذكر ابن الفوطي[4] بأن الأمراء لم يقبلوا ان يخرجوا إلى الحرب بقيادة خصي فخالفوا أوامر الخليفة.

---

(1) ان دل هذا على شيء فإنما يدل على ضعف الخليفة وتماهله في واجباته وتخاذله، فيروى ان الخليفة عندما سمع بمجيء هولاكو قال: ماذا يريد مني؟ كل ما أطلب هو أن يبقي لي بغداد وليأخذ هو كل شيء.

(2) ابن الفوطي، ص320-321.

(3) اسم الحقيقي مجاهد الدين ايبك.

(4) (الحوادث الجامعة)، ص319، 320، 321.

فالتقى الداودار وجيوشه بجيوش المغول على بعد فرسخ إلى الشمال من قنطرة باب البصرة في 9 محرم سنة 656هـ (14 كانون الثاني سنة1258م)[1]. ويذكر ابن الطقطقي ان عدد قوات الدوادار كانوا 30000 جندي بينما ابن كثير قدر عدد الجنود بـ10,000 جندي فقط[2]. وكانت جيوش المغول التي بقيادة بايجو أكثر من هذا العدد.

ولقد اندحر المغول أول الأمر أو مارسوا حيلهم وذلك بتظاهرهم بالانكسار فتراجعوا تتبعتهم قوات الخليفة حتى أدركهم الظلام[3]. ولقد عبروا نهر بشير (أحد فروع الدجيل) ومكثوا هناك حتى الصباح[4]. وأثناء الليل طغت مياه نهر بشير على منطقة المعركة[5]. وفي الصباح الباكر هاجم المغول قوات الخليفة بقسوة وشراسة فاضطرت إلى الانسحاب، وأثناء انسحابهم واجهتهم مياه نهر بشير فلم تتمكن خيولهم من الحركة بسبب الأوحال فألقى بعض الجنود أنفسهم في المياه وعاموا ولكن القوات المغولية تبعتهم وأخذت تستأصلهم وعاش القليل ليقص أنباء المعركة الخاسرة[6]. وبعد اندحار جنود الخليفة وانسحابهم، أخذت قوات هولاكو أماكنها لحصار مدينة بغداد. فاستقر قسم من الجيش

---

(1) أطلق ابن عبد الحق على هذه القنطرة اسم (القنطرة الجديدة) الواقعة على قناة الصراة ولقد جددت عدة مرات. (مراصد الإطلاع)، ج1، ص463-4.

(2) (نفس المصدر)، ص300.

(3) ابن الطقطقي، ص300.

(4) Howorth, "Op.Cit", Part III, P.122; D'ohsson, "Op.Cit", Vol.4, P.231.

(5) ابن الفوطي، ص324.

(6) ابن الفوطي، ص324، يذكر Howorth, P.122, PaerIII، وغيره بأن ابن العلقمي أرسل قسماً من اتباعه لتحويل مياه القناة، ولكن أرجح بأن المياه فاضت بصورة طبيعية لأن هذا الموسم هو موسم سقوط الأمطار في العراق.

بالقرب من البيمارستان العضدي[1]، عند الجسر الأعلى واستقر قسم آخر إلى الجنوب عند الجسر الأسفل مقابل قصر التاج[2]، أما هولاكو فقد ترك متاعه في خانقين وفي 12 محرم سنة 656هـ (19كانون الثاني سنة 1258) تحرك هولاكو نحو بغداد على طريق خراسان بقوات يبلغ تعدادها 200,000 جندي مع قوات الكرخ والموصل[3]. واستقر به وبقواته المقام في شرق بغداد مقابل برع العجمي وباب الحلبة حيث تركز الهجوم[4]. أما الجناح الأيمن من الجيش بقيادة بلغاي **Bulglai** وكولي **Couli** فاستقروا خارج السور شمال المدينة أمام باب سوق السلطان[5]

---

(1) ابن العبري (تاريخ مختصر الدول)، ص471 بنيت هذه المستشفى على انقاض قصر الخلد وانتهى من بنائها سنة 981م؛

Le strange, "Baghdad during the Abbsid Caliphate", PP.103-104, 105, 319.

(2) ابن الطقطقي، ص300. كان قصر التاج أحد قصور دار الخلافة في بغداد الشرقية. وضع أسس القصر المعتضد وأكمله المكتفي وعرف أخيراً باسم دار الشاطئية. وبعد خرابه بناه المضيء ثم جدده المستنصر. ابن عبد الحق، ج2، ص194.

(3) ابن الفوطي، ص325، كل من العزاوي، ج1، ص173 أعطوا 11 محرم 656هـ (18 كانون الثاني سنة 1258) كتاريخ لقدوم هولاكو. ابن كثير، ج13، ص200؛

Nicholson, "Op.Cit", P.445.

(4) كان باب الحلبة يلي باب الظفر وهو باب الطلسم في القرن العشرين. بدر طه (محنة الإسلام الكبرى)، ص96؛

Le strange, "Op.Cit", PP.291, 293.

(5) يقع باب سوق السلطان عند باب المعظم.

D'ohsson, "Op.Cit", Vol.4, P.233; Howorth, Op.Cit, Part.III, P.122.

في حين ان الجناح الأيسر تحت قيادة إيخانويان **Ilka Noyan** فقد استقر عند باب كلواذي في النهاية الجنوبية لشرقي بغداد[1].

ولقد جمع المغول الطابوق الموجود خارج السور وبنوا حائطين احدها في الجزء الشرقي من بغداد والآخر في الجزء الغربي كما بنوا قواعد للمنجيقات التي ترمي الحجارة أو الخرق المبللة بالنفط. وبما أنه لم يكن هنالك صخور بالقرب من مدينة بغداد لكي تستعمل في المنجنيقات فقد جمع المغول الطابوق وجذوع النخل وأرسلوا بعض القوات لجلب الصخور من جبل حمرين وجلولاء[2]. كما أمر الخليفة المستعصم بإصلاح سور بغداد[3].

ولقد بدأت الحرب في 22 محرم سنة 656هـ(29كانون الثاني) سنة 1258)[4]. وكان الهجوم مركزاً على برج العجمي واستمرت المنجنيقات تدك السور لمدة ستة أيام. وخلال الحصار أرسل هولاكو الرسائل إلى القضاة والتجار والعلماء الذين ليسوا في حالة حرب[5].

---

(1) كان باب كلواذي يسمى باب البصليه والذي أطلق عليه المستوفي باب الخلج **Khuluj** وكان إلى الجنوب من بغداد وفي بداية القرن العشرين كان الباب الشرقي يقع مكان باب كلواذي. ابن عبد الحق، ج1، ص509.

(2) ابن الطقطقي، ص300؛ الصفدي، ج2، ص281؛ العزاوي، ج1، ص174؛

Howorth, "Op.Cit", Part III, P.126.

ربما جلبوا الصخور من جبل حمرين عن طريق دجلة ومن جلولاء عن طريق ديالى.

(3) **Howorth, "Op.Cit", Part III, P.128.**

(4) ابن العبري (تاريخ مختصر الدول)، ص474. لم يتفق الكتاب على بداية المعركة فأشار ابن الطقطقي (ص300) إلى أن 4 محرم (11شباط) هو يوم بداية المعركة بينما المقريزي (الجزء الأول القسم الثاني ص409) فقد سجل يوم 30 كانون الثاني. بينما الصفدي (ج2، ص281) والعزاوي (ج1، ص173) و **(Part III, P.123)** **Howorth** اتفقوا مع ابن العبري على أن يوم بداية المعركة كان يوم 22 محرم.

(5) العزاوي، ج ، ص174؛ **D' ohsson, "Op.Cit", Vol.4, P.243.**

وفي 28 محرم 656هـ (4شباط 1258) تهدم برج العجمي فدخلت قوات المغول ولقد ذعر البغداديون عندما رأوا أعلام المغول تخفق على هذا البرج[1].

ولقد استعد الغزاة لمنع هروب أحد عن صديق دجلة وذلك ببناء جسر خشبي إلى الجنوب من بغداد. ويروى ابن الفوطي ان كثيراً من سكان بغداد قبض عليهم وأعدموا عند هذا الجسر عند محاولتهم الهرب[2]. ولقد خرج المستعصم يحف به الأمراء من الأسرة العباسية ورؤساء البلاط العباسي فقطعت رؤوس الجميع ما عدا المستعصم الذي قتل رفساً حسب تعاليم الياسا التي وضعها جنكيز خان[3].

هجم المغول على المدينة وأعملوا السيف بالسكان بضعة أيام[4]. حتى قدر البعض ان عدد القتلى بلغوا حوالي 1,800,000 نسمة[1].

احتوت هذه الرسائل على أمان أعطي من قبل هولاكو للذين لم يشتركوا بالحرب ولا شك بأن هذه خطة فريدة لكسر معنويات أهل بغداد وصرفهم عن الدفاع عن مدينتهم.

(1) Howirth, "Op.Cit", Part III, P.123.

أشار ابن الطقطقي (ص300) بأن يوم 19 محرم (29 كانون الثاني) هو يوم سقوط برج العجمي بينما ابن العبري (ص474) والصدفي (ج2، ص281) أشار إلى أن 26 محرم هو التاريخ الصحيح بينما اكتفى ابن كثير (ج13، ص203) بذكر آخر محرم هو يوم سقوط برج العجمي.

(2) ص326.

(3) العمري (غاية المرام)، ص183، مخطوط اليافعي (مرآة الجنان)، ج4، ص139. السيوطي (تاريخ الخلفاء)، ص472 وتشير أحدى بنود الياسا إلى تحريم سفك الدماء الملكية.

(4) السيوطي، ص497؛ المقريزي، ج1، قسم 2، ص410؛ ابن الفوطي، ص359. استناداً إلى الذهبي (دول الإسلام)، ص123؛ Nicholson, P446 ان المذبحة استمرت 34 يوماً. بينما ابن العبري (ص475) وD'ohsson ج4، ص240 أشارا إلى أن مذبحة بغداد استمرت اسبوعاً وأني اتفق معه في الرأي لأن مذبحة من

ولم يسلم الا من اختفى في الآبار والمجاري المائية القذرة[2]. وأما التجار الذين كانت لهم علاقات تجارية مع المغول فقد أعطوا صكوك أمان (يارليغات) واصطحبوا حرساً مغولياً لحمايتهم[3]. إلى جانب المذبحة فإن المغول عبروا جامع الخليفة. ومما زاد الخراب فظاعة هو تدمير معظم الشوارع والبيوت[4]. ولعل أعظم خسارة لحقت ببغداد بل والعالم أجمع هو تخريبهم للمكتبات وفقدان آلاف الكتب[5]. ويروي ابن

غير مقاومة تدوم أربعين يوماً لا بد أن تؤدي إلى قتل ملايين الناس بل وأني أميل إلى أن المذبحة لم تدم أكثر من يوم أو يومين وخاصة إذا ما علمنا ان هولاكو حاول المحافظة على بغداد.

(1) الذهبي، ص123؛ اليافعي، ج4، ص137، العمري، ص183، مخطوط Nicholson، ص446.

اختلف الكتاب في عدد القتلى فالسيوطي (ص472) وجد الكفاية في القول بأن عدد القتلى يزيدون على 1,000,000 نسمة بينما ابن كثير، ج13، ص22 لم يكن متأكداً من عدد القتلى فقال أما 800,000 أو 1,800,000 أما ابن خلدون (كتاب العبر)، ج5، ص543 فقد أشار إلى ان عدد القتلى كانوا 1,300,000 أما D'ohsson (ج4، ص240) فقد أشار إلى أن عدد القتلى كانوا 800,000. والعزاوي (ج1، ص4) أشار إلى أن عدد القتلى كانوا 800,000 ولكن بعد ذلك يتفق مع رقم آخر هو 80,000 نقله عن تاريخ مصلح الدين اللاري. ولكن الذي يظهر ان الكتاب كانوا يخشون من إعطاء رقم كبير عن عدد القتلى لأن بغداد سنة 1258 ليست بغداد هرون الرشيد التي بلغ عدد سكانها أكثر من مليوني نسمة. ولكن مع ذلك فأن سكان المقاطعات الواقعة حول بغداد لجأوا إليها هذا من غير شك أدى إلى زيادة للسكان ولكن مع ذلك فأن 1,800,000 نسمة من القتلى عدد مبالغ فيه والواقع ان الكثير من التخريب نسب إلى المغول وهم منه براء.

(2) السيوطي، ص472.

(3) ابن الفوطي، ص329.

(4) ابن الفوطي، ص320؛ Le strange, "Op.Cit", P.343

(5) القلقشندي (صبح الأعشى)، ج1، ص466.

خلدون[1] بان الكتب القيت في نهر دجلة. ولما غادر هولاكو بغداد أصدر أوامره بإصلاح مسجد الخلفاء وقبر موسى الكاظم[2] ويبدو ان هولاكو حاول المحافظة على بغداد دون أن يصيبها تخريب ولهذا أصدر أوامره بتعمير أسواقها والمناطق الخربة فيها[3].

الدولة الالخانية (1258م-1336):

لما أزال هولاكو الخلافة العباسية من العراق وتأسست دولة أخرى هي الدولة الالخانية التي حكمت العراق من السلطانية ومن ثم من تبريز. ولقد عين هولاكو ابن العلقمي وزيراً وفخر الدين مديراً للإدارة وعلي بهادر لمراقبة التجار والصناع. كما أرسل إيخانويان Ilka Noyan وقره بوقا Kara Nuka مع 3000 جندي لإعادة نظام الأسواق وتجديدها وإقامة البيوت المهدمة[4] ولقد حاول الالخانيون جهدهم لإعادة ثروة العراق إلى سالفها ونجحوا إلى حد كبير. ولقد عين هولاكو مدراءً للولايات وأمرهم بتعميرها وعاقب بصرامة كل من أهمل واجباته[5]. ولعل أحسن فترة شهدتها العراق خلال الحكم الالخاني هي فترة حكم غازان خان الذي شجع الزراعة والصناعة والتجارة وأمّن المواصلات وقضى على قطاع الطرق وعاقب بصرامة كل من خالف

---

(1) ج5، ص543.

(2) Le strabge, "Oo.Cit", P.343.

(3) يقول المقريزي، ج1، قسم2، ص410 بأنه على الرغم من فظاعة ما حدث ببغداد إلا أنه لم يصل الحد الذي وصله في المدن الأخرى لأن هولاكو أراد الاحتفاظ بمدينة بغداد سليمة.

(4) ابن العبري، ص475؛ العزاوي (تاريخ العراق بين احتلالين)، ج1، ص202؛ Howorth, "Op.Cit", Part III. PP.131-2.

(5) ابن الفوطي (نفس المصدر) ص238-239.

أوامره وقبض على السلطة بيد من حديد، ولهذا ازدهر العراق نوعاً ما في وقته ولكن عوامل الهدم كانت أقوى من عامل البناء فتردى اقتصاد العراق بالتدريج وقل السكان واهملت الزراعة ولم يلتفت الحكام إلى مشاريع الري كما كثرت الثورات بعد الدولة الالخانية وتعددت القوات التي سيطرت عليه.

الحالة الاقتصادية لبغداد أثناء حكم الدولة الالخانية 1366-1258:

1-الري:

اشتهر العراق بصورة عامة والسواد[1] بصورة خاصة بخصبه ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تنظيم استعمال مياه دجلة والفرات ووجود نظام دقيق للري وخصوبة التربة وتجدد هذه الخصوبة كل عام في يجلبه نهر دجلة والفرات من رواسب.

ولقد وصل السواد أوجه في أوقات الهدوء والأمن والسلام ووجود حكومة قوية تسيطر بيد من حديد على أنحاء العراق كافة. ولقد ورث العباسيون نظام ريّ شامل فأضافوا عليه وزادوا في بعض الأحيان إذ حفروا عدة قنوات وأقاموا السدود. وكان تنظيف القنوات ضرورة ملحة- كما هو الحال في الوقت الحاضر- إذ ان نهري دجلة والفرات يحملان مواد عالقة تقدر به **750** وحدة في كل **100,00** وهي خمسة أمثال ما يحمله نهر النيل. هذا يعطي دليلاً واضحاً وملموساً على ان تدمير نظام الري مرجعه إلى حد كبير إلى الترسبات التي يحملها دجلة والفرات أثناء الفيضان.

---

(1) السواد اسم أطلقه العرب على السهل الرسوبي.

وكان لدى العباسيين ديواناً سموه ديوان الأقرحة للإشراف على الري والقنوات. يقول أبو يوسف قاضي قضاة الرشيد ان واجبات الحكومة حفر القنوات وتنظيفها باستمرار ولكن بعد القرن التاسع الميلادي ابتدأت تلك الثروة بالزوال، إذ ضعفت الحكومة فأهملت مشاريع الري مما أدى إلى كثرة الترسبات في مجاريها، تلك الترسبات التي تراكمت سنة بعد أخرى حتى سدتها وتهدمت السداد وغيرت الأنهار مجاريها . ولكن مع ذلك فقد بقيت بعض الفنوات خلال الحكم الألخاني كنهر عيسى والدجيل ولكنها لاقت نفس مصير القنوات الأخرى.

يتكون نظام الري في منطقة بغداد من مجموعة من القنوات هي:

أ-القورج:

يأخذ القورج من دجلة بالقرب من علث وكان طوله حوالي 80 كم. ومنذ زمن الرشيد أصبح القورج يهدد مدينة بغداد بالغرق لذلك أمر الرشيد بسد مدخل القناة. وفي خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر كان القورج من أسباب الأضرار التي لحقت ببغداد من الفيضانات المتكررة.

ويروي ابن عبد الحق[1] والقزويني[2] ان الحكام عملوا ما بوسعهم لسد مدخل القناة ولكن مع ذلك كان دوماً بسبب الأضرار لمدينة بغداد في كل سنة، ولم يأت ذكر القورج بعد القرن الرابع عشر مما يدل على انه امتلأ بالرواسب.

ب-الدجيل:

يبلغ طول الدجيل 100كم. يأخذ الدجيل من دجلة مقابل القادسية إلى الجنوب من سامراء ثم يسير موازياً لنهر دجلة حتى تصل

(1) مراصد الإطلاع، ج1، ص458.

(2) كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، ص183-184.

ذنائبه في ضواحي بغداد لتروي قسمها الغربي ويروي ابن عبد الحق[1] ان هذه القناة كانت تصب في خندق طاهر وعندما مر ابن بطوطه بالعراق وصف الدجيل حيث قال:

"الدجيل قناة تأخذ من دجلة وتروي عدداً كبيراً من القرى"[2]. ولقد أدركت هذه القناة الفترة العثمانية في العراق.

ج-نهر عيسى:

عبارة عن قناة يستفاد منها في الملاحة والري. وهي أحدى أربع قنوات تصل بين نهر الفرات ونهر دجلة. وهي تبدأ عند خط طول سح ت 50 68' وعرض لب ك 20 32'[3] إلى الجنوب من الأنبار[4]. وعندما تصل القناة مدينة المحول يتفرع منها القنوات التي كانت تأخذ للمدينة المدورة (التي بناها المنصور)[5]، وكانت تمر بتسعة أسواق وعند كل سوق جسر لم يبق منها في القرن الثالث عشر سوى جسرين هما قنطرة الزياتين وقنطرة البستان وأخيراً تصب في دجلة أسفل قصر عيسى بن موسى في مدينة بغداد[6]. ولقد استمر كقناة صالحة للملاحظة وللري خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر[7].

---

(1) نفس المصدر، ج2، ص62.

(2) رحلات في آسيا وأفريقيا1325-1354، ص102.

(3) Ibn Serapion "Desrciption of Mesoptamia and Baghdad. Written about the Year 900 A.D..", PP.14-15.

(4) أبو الفداء (تقويم البلدان)، ص52.

(5) الاصطخري (كتاب الأقاليم)، ص84.

(6) ابن سرابيون، ص14-15.

(7) ياقوت (معجم البلدان)، ج4ب، ص842؛ القزويني، ص182-183.

ولقد أشار أبو الفداء في كتاب تقويم البلدان إلى نهر عيسى حيث أشار إلى أنه يأخذ من الفرات عند خط طول 68 وعرض 32 إلى الجنوب من الأنبار عند مدينة الفلوجة[1]، ويضيف أبو الفداء قائلاً انه خلال الصيف تنقطع المياه عن نهر عيسى وتسقي المزارع والبساتين على الجانبين بالواسطة. هذا يعني ان الترسبات قد تراكمت في مدخل القناة مما أدى إلى عدم وصول مياه فصل الصيف إلى القناة لانخفاض مستوى مياه النهر من ناحية، وتراكم الترسبات في مدخل نهر عيسى. ونستخلص مما كتبه ابن الوردي والقلقشندي عن نهر عيسى ان الترسبات قد تراكمت في مدخل نهر عيسى حتى أصبحت القناة جافة في القرن السادس عشر[2].

ذكرنا القنوات التي تروي ضواحي بغداد أما التي تروي بغداد نفسها فقد اندثر معظمها ولم يبق سوى القنوات التالية:

أ- نهر الصراة: ويأخذ من نهر عيسى قبل مدينة المحول ويسير موازياً لنهر عيسى، وبعد ان يروي المزارع والبساتين الموجودة على جانبيه يصب في دجلة عند باب البصرة[3]. ويتفرع الصراة نفسه بعد فرسخ من مأخذه، الفرع الأيسر يسمى خندق طاهر الذي يسير إلى شمال غرب بغداد ويصب في دجلة عند الفرضة[1].

---

(1) ص52.

(2) ابن الوردي (خريدة العجائب)، ص38؛ القلقشندي، صبح الأعشا، ج4، ص399.

(3) القزويني (نفس المصدر)، ص182؛ ابن عبد الحق، المصدر نفسه، ج1، ص399.

(1) ابن سعيد المغربي (جغرافية ابن سعيد)، ص74 مخطوط ابن الجوزي (مناقب بغداد)، ص8.

ب- أشار سائح ألماني مجهول أتى بغداد سنة 1350م إلى خندق يحيط ببغداد كان مملوءاً بالمياه القذرة[1]. والذي يبدو ان هذا الخندق هو خندق طاهر.

وهكذا يظهر لنا من عرض مشاريع الري الموجودة في بغداد ان معظم الترع التي تروي بغداد ومنطقتها قد امتلأت بالرواسب. ولا شك بأن هذا أثر على الزراعة وبدوره أثر على الرخاء الذي شهدته في أوائل العصر العباسي.

2-الزراعة:

كانت الزراعة ولم تزل العمود الفقري للاقتصاد الوطني. وكان خصب العراق مطمع أنظار الفاتحين جميعاً. ولكن العراق فقد ثروته بعد العصر العباسي الأول. وفي خلال الحكم الالخاني حاول المغول جهدهم لاستعادة ثروة العراق ورخاه ولهذا شجعوا الزراعة وعالجوا الضرائب ومشكلة الملكية العقارية وتوزيع الحبوب. ولقد شاع اقطاع القرى إلى القواد والموظفين...الخ.

أ-الملكية العقارية:

في نهاية الحكم العباسي نجد الملكية العقارية كما يلي:

1- المقاطعات الخاصة بالخلفاء والأمراء وأعضاء الأسرة المالكة.

2- اراضي منحت تحت شروط خاصة.

---

(1) Röhricht and Neisner, "Ein Niederrheinscher Bericht über Den Orient", Zeitschrift für deutche phiologie, Vol.19, P.59.

(1) أراضي غير مصلحة مُنحت من قبل الخلفاء على شرط إصلاحها ومن ثم زراعتها.

(2) اراضي ممنوحة للموظفين المدنيين والعسكريين لقاء رواتبهم.

3- الملكية الخاصة.

4- أراضي الوقف.

5- الأراضي المشاعة (الأميرية).

وعندما استولى المغول على بغداد استمر وضع الملكية العقارية على حالة إذ استمروا على اقطاع القرى إلى القواد، أما الأراضي الوقف فقد وضعت تحت إشراف صدر الوقوف للإشراف عليها وصرف المال اللازم لاستصلاحها[1]. وأهم مشكلة جابهت الايلخانيين فيما يخص الملكية العقارية هي زيادة الأراضي البور كنتيجة لتخريب نظام الري واهمال الزراعة نتيجة لزيادة الضريبة العقارية.

ولقد نظم المغول الاقطاعات إذ استحدثوا ديواناً خاصاً سموه ديوان المقاطعات[1]. كما استحدثوا ديواناً خاصاً لتصفية الأراضي الأميرية أما الأراضي المملوكة للأفراد فقد تركت بيد أصحابها إلا تلك التي أهملت لمدة طويلة فمن حق أي فرد أن يقوم بزراعتها[2]. وفي عام

---

(1) ابن الفوطي (نفس المصدر)، ص478. يروي القلقشندي (ج4، ص331-332) ان المغول تركوا أراضي الوقف تحت إشراف المتولين السابقين وان التخريب الذي أصاب الأراضي إنما مرجعه المتولين أنفسهم.

(1) ابن الفوطي في 478-479.

(2) رشيد الدين (جامع التواريخ)، ص513-516؛

Howorth, "Op.Cit", Part III, P.510.

1303 أصدر غازان خان قانون أوجد بموجبه الاقطاعات العسكرية حيث قرر بأن الأراضي الخاصة بالعائلة المالكة أو أراضي الحكومة أو الأراضي المخصصة للخدمات العامة المزروعة أو غير المزروعة يجب أن توزع على الجنود عوضاً عن رواتبهم[1]. بالإضافة إلى ذلك أعطى الجنود الحبوب والثيران ويشترط عدم بيع هذه الاقطاعات أو ان تعطى أو تحول إلى صديق أو أقارب لتسوية مشاكل الزيجات ويعاقب بالموت كل من خالف ذلك[2]. فإذا هاجر أو مات صاحب الأرض تعطى المقاطعة إلى أحد أولاده وان لم يكن عنده أولاد تعطى لغلامه (خادمه) وإذا لم يكن عنده غلام فتعطى إلى شخص كفوء[3]. وتعطى ملكية الأراضي لمدة (3) سنوات فإذا وجد أنه لم يتمكن من القيام بالتزاماته تؤخذ منه وأن وجدت مزدهرة مزروعة فإن ملكية هذه الاقطاعية تجدد لثلاث سنوات أخرى[4]. ولقد استمر هذا النظام للملكية العقارية خلال الفترات التالية.

3-ضرائب الأراضي والمحاصيل الزراعية:

لقد حافظ الالخانيون على النظام الإسلامي في نظام الضرائب فالأراضي العشرية استمرت على إعطاء العشر والأراضي الخراجية تدفع الخراج الذي كان يتراوح بين $\frac{١}{١٠}$ إلى $\frac{١}{٢}$.

وكان الخراج يقوم على أساس النسبة للمحصول. أما طريقة جمع هذه الضرائب فكان يتبع نظام الالتزام (الضمان) الذي كان متبعاً خلال

(1) رشيد الدين (تاريخ مبارك غازاني)، ص307.

(2) Belin, "Op.Cit", P.219.

(3) رشيد الدين (نفس المصدر)، ص208.

(4) Belin, "Op.Cit", P.221.

الفترة العباسية[1]. وكانت الضريبة العقارية تدفع أما نقداً أو عيناً. وفي عام 1297 اشتكى الزراع عند السلطان غازان لأن جمال الدين الدستجرواني أجبرهم على دفع الضريبة العقارية بالذهب فأصدر غازان خان أوامره بأن الضريبة تدفع نقداً أو عيناً كما كانت قبل الفتح).

ولقد كان حمد الله المستوفي عام 1335 مسؤولاً عن دائرة الضرائب ويروى ان بعض التقديرات بقيت كما كانت أيام عمر بن الخطاب (رض) وكانت تعرف باسم الخراج الرتيب. كما أجريت بعض التقديرات الجديدة وسميت باسم الخراج الحديث. كما يشير إلى ان ثلث المحصول الصيفي والشتوي يدفع إلى الخزينة[2].

أما أهم المحاصيل الزراعية المزروعة في منطقة بغداد كانت: القمح وكان يشغل الأراضي المخصصة للمحاصيل الشتوية والشعير، أما من المحاصيل الصيفية فيزرع القطن والذرة أما من الفواكه فيزرع الحمضيات والرمان وكانت بغداد مشهورة بالرمان الدراجي الذي ذكره المستوفي. كذلك اشتهرت بزراعة الكروم إذ يروي المستوفي بأن عنب بغداد مشهور وبصورة خاصة العنب المراقي الذي لا يوجد مثله[1]. كذلك ذكر ابن سعيد بأن بغداد اشتهرت بالعنب الرازقي[2]. كما اشتهرت بغداد ببساتين النخيل إذ اثنى المستوفي على تمور بغداد وبصورة خاصة على نوعين من أنواع التمور هما المكتوم والخستاوي[3].

---

(1) ابن الطقطقي، ص164- 198.

(2) نفس المصدر، ص41، 48.

(1) ص41.

(2) ص74 مخطوط.

(3) ص41.

ولكن الذي يبدو ان معظم بساتين النخيل قد ماتت نتيجة لعدم وصول المياه إليها لانسداد القنوات وكذلك لكثرة الحروب والثورات الداخلية في المنطقة.

أما من المخضرات فقد ذكرت أنواع كثيرة موجودة في منطقة بغداد كالفاصوليا والبلاقلاء، الفجل، البصل، الثوم، الباذنجان والبطيخ..الخ. إلى جانب ذلك فأن بغداد اشتهرت بمراعيها فقد أثنى المستوفي على المراعي الموجودة حوالي بغداد[1].

4-الصناعة:

كما ذكرنا آنفاً أن العراق بلد زراعي قبل كل شيء وتأتي الصناعة بالدرجة الثانية كما وتعتمد بعض الصناعات على المنتجات الزراعية.

لقد اهتم المغول بالصناعة والفنون فلقد كان هولاكو مولعاً بالتعمير ومشجعاً للصناعة ولقد عين علي بهادر لضبط الصناع والفنانين[2].

واستناداً إلى رشيد الدين ان المغول شجعوا جميع الصناعات كالنجارة والصبغ والنقش على المعادن وصناعة المجوهرات والنحاس كما شجعوا الصناعات الدقيقة كعمل الزجاج[1]. ولقد عمل غازان خان جهده لتنظيم الصناعة والإنتاج[2]. ولقد سن قانوناً بأن كل صناعة

---

(1) ص41.

(2) رشيد الدين، ص72.

وجاء في كتاب (العراق بين احتلالين) عين على بهادر للشحنة وارتاقان واوزان (الارتاقية والاوزانية تعني النظر من الشحنة وأرباب الصناعات).

(1) ص172 (النسخة الفارسية). Howorth "Op.Cit", Part III, P.493

(2) كان غازان خان نفسه فناناً ولقد أجاد في جميع أبواب الفن والصناعة. وكان هو يرشد الصناع.

يجب أن تكون ضمن نقابة مستقلة في كل مدينة ولا يستلم العمال رواتب مقننة بل تعطي لهم الرواتب تبعاً لإنتاجهم كما عين رئيساً لكل من هذه النقابات.

المصنع الملكي في بغداد:

لقد انشأ المغول مصنعاً في ونظموه وتم عليه الإشراف بكل عناية. وكما عين شخصاً حكومياً مسؤولاً عن المصنع[1]. ولتشجيع الصناعة أعفى المغول بعض الصناعات من الضرائب كالقطن المغزول[2]. ولقد انتج هذه المصنع مختلف أنواع الصناعات كالأقمشة. وكان الالخانيون مهتمون بصورة خاصة بصناعة الأسلحة. وكان في كل مدينة كثير من الصناع كرسوا أوقاتهم في صناعة الأسلحة كالأقواس والنبال والسيوف ويتقاضى هؤلاء الصناع الرواتب وكان عليهم ان ينهوا عدداً معيناً من الأسلحة.

ولقد حمل المغول معهم المؤثرات الصينية الفنية والصناعة لأنهم كانوا معجبين بالصناعة والفن الصيني[1] واستناداً إلى آرنولد **Arnold** أن هولاكو جلب معه فنانين صينيين[2].

أما أهم الصناعات فهي:

أ-صناعة النسيج:

---

(1) **Howorth, "Op.Cit", Part III, P.561.**

عندما زار الألمان غازان المصنع الملكي في بغداد قدم له علي شاه (مدير المصنع) قبعة مطرزة ومحلاة بالحجارة الكريمة.

(2) ألغى أبو سعيد سن 1333 (734هـ) الضريبة المفروضة على غزل القطن والصوف. العزاوي، ج1، ص513.

(1) **Dimand, "A hand book of Muhammadan art", P.28.**

(2) **Arnold, "The Islamic book from the VII-XVIII ccuturies", P.69.**

لقد اشتهر العراق بنسج الأقمشة من الحرير والقطن والصوف والكتان وكذلك نسج الحصران المصنوعة من سعف النخيل ولقد عمل المغول كل ما بوسعهم لتشجيع نسج الأقمشة بأعفائها من الضرائب وتنظيم النقابات وإنشاء المصنع الملكي في بغداد. وأهم ما اشتهرت به بغداد من المنسوجات ثياب الواشي وكانت تصنع من الحرير، وعندما استولى هولاكو على بغداد أخذ قسطاً من الجزية ثياب الواشي[1].

وعندما تعرض **Morco Polo** إلى بغداد ذكر أنوعاً من الأنسجة الحريرية الموشاة بالذهب كما ذكر النخ والمخمل وكثيراً من المنسوجات الأخرى الجميلة والملأة بنقوش الحيوانات والطيور[2]. ويقول **Howorth** بأن كمية الذهب قد انخفضت كثيراً خلال الحكم الالخاني لاستعمالها في الأنسجة الهندية[3]. أما غازان خان فقد شجع ونظم صناعة النسيج ولقد انتج المصنع الملكي في بغداد مختلف أنواع المنسوجات، ولقد أثنى ابن بطوطة على المنسوجات المصنوعة في بغداد كالكمخا وهي ثياب حريرية[1]. كما ذكر النويري ثياب السقلاطون المصنوعة في بغداد[2].

اما نسج السجاد فقد استمرت شهرة بغداد ذائعة بنسجها خلال الحكم الالخاني فلقد أشار **Marco Polo** إلى صناعة المحمل المصنوع في بغداد[3]. كذلك اشتهرت بغداد بالنقش على المعادن وترصيعها

---

(1) Marce Polo, "Op.Cit", Vol.I, P.65.
(2) Marco Polo, "Op.Cit", Vol.I, P.65.
(3) Howorth, "Op/Cit", Vol.III, P.525.

(1) ج1، ص229-230.
(2) ج1، ص369.
(3) ج1، ص369.

وتوجد في الحاضر في المتحف البريطاني محبره للكتابة مصنوعة من البرنز ومرصعة بالذهب والفضة تحمل اسم الصانع محمد بن سنكر البغدادي وتاريخ صنعها سنة 1281م[1].

كذلك اشتهرت بغداد بصناعة الورق حيث أشار ابن سعيد المغربي إلى الورق المصنوع في بغداد[2]. كما أشار ابن عبد الحق إلى دار القز حيث كان الورق يصنع في الدكاكين[3]. كما أشار المقريزي[4] والقلقشندي[5] إلى أن الورق البغدادي كان سميكاً ولكنه ناعماً ومن حجوم مختلفة.

كما اشتهرت بغداد بصناعة الزجاج حيث يشير رشيد الدين إلى أن الايلخانيين شجعوا صناعة الزجاج[6]. أما مواد البناء فكانت متوفرة في بغداد فيشير المستوفي إلى أن بيوت بغداد كانت تبنى بالطابوق المحروق[1]. وكانوا يزينون بناياتهم بالطابون ويرسمون على الجدران صور الحيوانات وكذلك يكتبون الخط النسخي[2].

ضرب النقود:

كانت النقود المتداولة تصنع أما من الذهب أو الفضة أو النحاس. وكانت النقود المغولية تشبه النقود العباسية، إلا ان أسماء السلطان

---

(1) Christic, "Op.Cit", P.119; See Arnold, Legacy of Islam.

(2) ص74 المخطوط.

(3) ج2، ص309.

(4) ج1، قسم2، ص497.

(5) ج2، ص476، ج6، ص190.

(6) ص172.

(1) ص41.

(2) القلقشندي (نفس المصدر)، ج4، ص330.

والملك كانت تكتب على النقود. وكان يكتب على النقود بخط نسخي أو كوفي، كما رُسم على النقود المغولية صور حيوانات أو إنسان. وفي نهاية القرن 13 حاول صدر الدين إصدار نقود ورقية أطلق عليها چاو (Chao) ولقد منع التداول بالنقود المعدنية. وكان في بغداد مركز لضرب النقود[1].

وأما عمل الخمور فيظهر ان الايلخانيين شجعوا صناعته إذ نفهم مما كتبه ابن الفوطي انه كان موجود في بغداد معمل للخمرة تعود إلى الحكومة[2]، وكان التشجيع على صنع الخمرة أو عدمها يتوقف على الحاكم. فإذا كان الحاكم تقياً ورعاً منع صناعة الخمرة وإذا كان العكس فإنه يشجعه. ويروى أنه في عام1321 سُكبت جميع الخمرة المصنوعة ومُنع صُنعه في المستقبل من قبل السلطان أبو سعيد[3].

كما شجع الالخانيون نسخ الكتب وتجليدها ولقد كتبت عدة مصاحف في بغداد سنة 1306-1307[1]. واشتهر عبد الرحيم الساعاتي باستنساخ القرآن وأشهرها النسخة الموجودة في ليبزج كتبت في بغداد وقد توفى سنة 719هـ(1319م)[2].

كذلك شجع المغول النجارة[3] للحصول على الأدوات الخشبية التي يحتاجونها كالمنجنيقات ولقد ورد ما يفيد بتصليح اسطول في بغداد مما

---

(1) Howorth, "Op.Cit", PartIII, P.370; العزاوي، ج1، ص389

(2) ابن الفوطي، ص401.

(3) العزاوي، ج1، ص474.

(1) Dim and "Op.Cit", P.71.

(2) العزاوي، ج3، ص321.

(3) رشيد الدين، ص172.

يدل على وجود معمل لبناء السفن أو على الأقل لإصلاحها[1]. كما اشتهر صناع بغداد بالنقش على الخشب[2].

5-طرق المواصلات:

يتمتع العراق بموقع جغرافي ستراتيجي عظيم في منطقة التقاء طرق المواصلات المختلفة بين آسيا من ناحية وأوربا وأفريقيا من ناحية أخرى. والتقدم والتطور الاقتصادي لأي قطر يتحتم وجود طرق المواصلات الصالحة. وكانت طرق المواصلات المهمة تمر ببغداد عاصمة الخلافة العباسية. وأهم طرق المواصلات التي استعملت في العصور الوسطى هي الطرق المائية. فنهر دجلة صالح للملاحة[3]، وفي أثناء الفيضانات كانت السفرة النهرية بين الموصل وبغداد تتم خلال 3 أو 4 أيام، أما في الأوقات الأخرى فتتم السفرة خلال 15 يوماً. كما ان التجارة بين بغداد والبصرة منتعشة كنتيجة لبطئ التيار وقلة الانحدار واتساع الوادي ويروي ابن سعيد[1] وسائح الماني مجهول الاسم ان البواخر القادمة من الهند كانت تصعد إلى بغداد في الشتاء والربيع[2].

ولم يكن مجرى نهر دجلة في القرون الوسطى كما هو عليه في الوقت الحاضر، إذ كان النهر ينحرف بعد الكوت الحالية ليمر بواسط

---

(1) Browne, "A history of Persian Literature under Tartar Dominion", P.30.

(2) Al- Feel, "The historical geography of Iraq between Monglian and ottoman Conquests", P.218.

(3) Ionides, The Regine of the Rivers Euphrates & Tigris", PP.144, 150.

(1) ص74 مخطوط.

(2) Op. Cit", Vol19, P.59.

وبعد مسافة قليلة يصب من البطائح التي كانت تمتد حتى شمال البصرة. ويروي المستوفي بأن نهر دجلة جنوب واسط كان ضحلاً، لوجود خمسة فروع تأخذ منه حتى يبقى عموده قليل المياه يصعب على القوارب اجتيازه[1].

ويروي أبو الفداء ان بعض أجزاء البطائح كانت ضحلة لدرجة ان البواخر كانت تسحب بالمرادي[2]. ويظهر ان طريق البطائح لم يكن مأموناً لأن كثيراً من الخارجين على القانون التجاؤا اليها. ولهذا جهز سلطان كيغاتو حملة سنة **1293** وقتل وقبض على كثير من الخارجين على القانون والملتجئين بمنطقة البطائح ليؤمن طرق النقل كما قام خلفه غازان خان بتجهيز حملة قادها عبر جوفى والبطائح وقضى على كل من يحاول عرقلة طرق النقل من منطقة البطائح[3]. وكانت هناك رحلات منتظمة بين بغداد والبصرة. ويبدو ان الرحلات من البصرة إلى بغداد صعبة لإنها ضد التيار وضد الرياح السائدة (رياح الشمال) وكانت الرحلة تتم بين **35-05** يوماً.

إلى جانب الملاحة النهرية في نهر دجلة كانت تتم رحلات منتظمة في نهر الفرات، كانت الاكلاك ووسائل النقل النهرية الأخرى تأتي من بير Bir (بيره جك) أو الرقة إلى الفلوجة حيث تتم السفرة بين **15-18** يوماً فيما إذا كانت مياه النهر مرتفعة، أما إذا كانت واطئة فكانت السفرة تتم بين **40-50** يوماً. ومن الفلوجة إلى بغداد عن طريق نهر عيسى ثم إلى دجلة عند الفرضة السفلى (الميناء الأسفل) في الكرخ.

---

(1) ص207.

(2) ص122-123.

(3) ابن الفوطي، ص476، ص477، ص497.

ولقد استمر نهر عيسى صالحاً للملاحة خلال الفترة الالخانية ولكن في سنة1331 يروي أبو الفداء بأن هذا النهر لم يعد صالحاً للملاحة على الأقل في فصل الصيف مما يدل على أن مدخل القناة قد تراكمت فيه الترسبات[1]. أما وسائط النقل المائي فكانت الأكلاك، القفف، الشختاير، المشاحيف، المهيلات السفن...الخ.

النقل البري:

تقع بغداد عند ملتقى الطرق التي تربط أجزاء العالم القديم فكانت القوافل التجارية والخدمات البريدية تخرج من بغداد شرقاً أو غرباً. ولكن يبدو ان غزوات المغول بل وقبل ذلك الحروب الصليبية أثرت كثيراً على النقل البري وطرق المواصلات فاضطرت بعض القوافل إلى ان تسلك طريقاً آخر –عبر الأناضول-.

ولقد عمل الالخانيون جهدهم للمحافظة على طرق المواصلات وضمان سلامتها وتنظيم البريد. فلقد أوجد غازان خان خدمات بريدية خاصة للسعاة الحكومية ووضعت محطات على طول الطرق وعلى كل مسافة (3) فراسخ كما وضعت خيولاً في هذه المحطات ليستفيد منها سعاة الحكومة فيبرزون ختماً ذهبياً يبين إنهم سعاة حكوميين فيعطون ما يحتاجون، كما عين ضباطاً لمراقبة الطرق. ولقد سمح السلطان أبو سعيد للتجار الفنيقيين بالبقاء (3) أيام في مراكز البريد[1]. ولقد عمل المغول جهدهم للمحافظة على سلامة هذه الطرق بفرض عقوبات صارمة وتمكنوا إلى حد بعيد من تحقيق ما يصبون إليه. كما عقدوا معاهدات مع بعض القبائل لتأمين طرق النقل. إذ يروى أنه عندما سمع

---

(1) ص52.

(1) Howorth, "Op.Cit", Part III, P.632.

خدابنده بأن القبائل العربية قد هاجمت الحجاج إلى مكة والقوافل التجارية إلى سورية أتخذ الإجراءات الآتية:

1- حماية الطرق.

2- معاقبة قطاع الطرق.

3- تجهيز الفرسان عند الحاجة والمساعدة في غزواته[1].

أما وسائط النقل البري فكانت الجمال، الخيول، البغال، الحمير والتي كانت تستورد من اليمن أو مصر. وكانت الموارد التجارية تنقل بقوافل كبيرة تضم بعض الأحيان 4000 جمل[2].

طرق المواصلات: كانت بغداد النقطة المركزية التي تتفرع منها طرق المواصلات المختلفة، إلى المناطق المختلفة. وكانت هنالك خمسة خطوط رئيسية تخرج من بغداد متجهة نحو البصرة، كوفة، انبار، تكريت، حلوان. وكنتيجة للغزوات المتكررة وعدم الاستقرار في الداخل واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح واكتشاف أمريكا واخيراً افتتاح قناة السويس أثر على انتقال المواصلات إلى الأناضول. ولقد حلت السلطانية عاصمة الالخانية ومن ثم تبريز محل بغداد كقاعدة لحكم الالخانيين. وكانت الطرق البرية كما يلي:

أ-بغداد-حلوان:

بغداد-بعقوبة (أو إلى بهرز حيث العبور بواسطة عبارة) – هارونية-جلولاء-خانقين-قصر شيرين-حلوان ثم يستمر هذا الطريق متتبعاً طريق خراسان المشهور حتى الصين[1].

---

(1) الفيل، ص252.

(2) الفيل، ص254.

ب-بغداد-كوفة:

يبدأ الطريق من الكرخ-فراشة-قناة النيل-الحلة-الكوفة[2]. ومن الكوفة يوجد طريق يسلك الحافة الجنوبية للبطائح حتى البصرة وطريق آخر إلى مكة.

3-بغداد-بصرة:

بغداد-مدائن-فم الصلح-واسط-الحُلب-وادي القراع-المشيرب ثم إلى البصرة[3].

4-بغداد-انبار:

بغداد-عقرقوف-انبار[1]. ثم حلت بعد ذلك الفلوجة محل الانبار. ومن الانبار إلى دمشق أو إلى الرقة.

5-بغداد-موصل:

بغداد-معظم-خالص ثم تعبر جبل حمرين – زانكاباد-كُفري-طوز خورماتو-داقوق-كركوك-التون كبري-الزاب الأسفل- الزاب الأعلى-الموصل. أو بغداد-قادسية-حديثة-موصل حيث يتبع الحافة اليسرى لنهر دجلة[2].

6-التجارة:

يقع العراق عند ملتقى الطرق بين آسيا من ناحية وأوربا وأفريقيا من ناحية أخرى وكنتيجة لهذا الموقع الممتاز فإن العراق قد ربح الكثير

---

(1) المستوفي، ص162.
(2) المستوفي، ص162.
(3) ابن بطوطة، ج1، ص136.
(1) أبو الفداء، ص52؛ المستوفي، ص100.
(2) الفيل، ص64، 66، 265.

مـن تجـارة الترانسـيت. ولقـد كـان اهتمـام العباسـيين عظيمـاً بالتجـارة، ولهذا حفروا القنوات وأصلحوا الطرق حتـى ان الرشـيد فكـر بحفـر قنـاة السويس قبل فردناند ولسبس بأكثر من ألف سنة. فامتدت تجارتهم إلى الصين شرقاً والأطلسي غرباً كما وصلوا شمالاً إلى روسيا والقبجاق[1] وجنوباً حتـى الناتـال في أفريقيـا، وممـا لا شـك فيـه بإن الغـزوات الأولى التي شـنها المغـول علـى العـراق أثـرت كثيراً علـى التجـارة لانعدام الأمـن، ولكن مـا أن اسـتقر المقـام بالمغول حتـى عملـوا جهدهم لتشـجيع التجـارة وتنميتها. وقدموا كل التسهيلات للتجار وكانت علاقاتهم التجاريـة طيبـة مع مختلف الدول.

كـان التجـار بالنسـبة للمغـول هـم العوامـل البنـاءة والـذين يحملـون النـوادر والأشـياء الثمينـة للملوك[1]. وكانوا يكونـون مجتمعـاً ماليـاً قويـاً حتى أن الحكومة الالخانية اضطرت في بعض الأحيان إلى الاقتراض مـن التجـار[2]. وعملـوا كسـفراء بـين العـراق والأقطـار الأخـرى فمـثلاً مجـد الـدين السـلامي كـان سـفيراً للالخـانيين عنـد مماليـك مصـر[3]. ولهـذا ضريت على التجار ضرائب استثنائية لعلمها بغناهم[4].

أما الضـرائب الـتي كانـت تفـرض علـى المصـنوعات المسـتوردة فقـد بقيت كما كانت أيام الحكم العباسـي دون أي تغيير. وأن حصـل أي تغيير فكـان ذلـك أجـراء محلـي مـن قبـل الحكـام المحليين أنفسـهم. كمـا عمـل

---

(1) المقريزي، ج1، قسم، ص633.

(1) ابن كثير (نفس المصدر)، ج13، ص119.

(2) ابن الفوطي، ص430.

(3) المقريزي، ج2، ص446؛ ابن الفوطي، ص259.

(4) العزاوي، ج1، ص317؛ ابن الفوطي، ص430.

المغول على جعل الضرائب واطئة ففي سنة 676هـ(676م) أصدر السلطان اباقا خان أمراً بتخفيض الضرائب[1]. وكل من حاول زيادتها عوقب بقسوة وصرامة. ففي عام 1297م أعدم السلطان غازان خان صدر الدين لأنه رفع الضرائب[2].

ويقوم جمع الضرائب على أساس الالتزام والضمان. وفي عام 1302 ألغى غازان خان نظام الالتزام وعين موظفين حكوميين للقيام بهذا الواجب[3] وتشجيعاً للتجارة الغى أبو سعيد الضرائب على جميع المواد المستوردة[1]. وكان في بغداد دار لجمع الضرائب. وكانت التجارة نشيطة في الداخل والخارج.

1-التجارة الخارجية:

امتدت تجارة العراق من كوريا (سيلا) واليابان (واق واق) شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً. ومن موزمبيق (سوفالا) والناتال جنوباً حتى أواسط أوربا شمالاً، ولدينا أدلة كثيرة على إنهم وصلوا حتى شمال أوربا[2].

وقد نشطت التجارة كثيراً مع الصين أثناء الحكم الألخاني، ولقد شجع غازان خان التجارة مع الصين ونظمها فكانت السفن العراقية تصل إلى الصين والسفن الصينية تصل إلى العراق[3].

---

(1) ابن الفوطي، ص375.
(2) العزاوي، ج1، ص377.
(3) ابن الفوطي، ص395-396.
(1) المقريزي، ج2، قسم 1، ص211.
(2) الفيل (نفس المصدر)، 336-337.
(3) Beazley, "Op.Cit", Vol.II, P.444 (footnote).

وكانت المستوردات الرئيسية من الصين هي الخزف، القصع الخزفية، المسك، الثياب الحريرية، اللاذ (قماش حريري أحمر)، الديباج (قماش حريري) العود، الدارسين، الورق، الطواويس، البراذين، الأقفال، الراوند، أدوات فضية وذهبية وعقاقير طبية[1]. ويصدر إلى الصين من المنتجات العراقية التمور والزبيب ومواد شتى مستوردة من مناطق أخرى[2].

أما التجارة مع الهند فكانت نشيطة خلال القرن/13 وما بعد على الرغم من التطورات المختلفة التي حدثت في الهند. فلقد استورد العراق من الهند مختلف البضائع حتى النباتات[1]. وكانت كثير من البضائع الهندية تشاهد في أسواق بغداد[2]. واستناداً إلى سائح الماني مجهول الاسم قدم إلى بغداد في القرن/14 انه شاهد البواخر الهندية قد قدمت إلى بغداد عن طريق نهر دجلة عندما كانت مياه النهر مرتفعة[3]. وكان يحمل إلى الهند التمور والخمور، والخيول والمجوهرات[4].

أما التجارة مع وسط آسيا فكانت نشيطة وتسلك طريق خراسان المشهور الذي يبدأ من بغداد حتى سمرقند ومن هناك يتفرع إلى فرعين أحدهما يذهب إلى خوارزم والآخر إلى الصين وكان يحمل من دول آسيا الوسطى الفواكه، الأبسطة، والورق، أقمشة متنوعة، الأسلحة والمواد الخام.

---

(1) القلقشندي، ج2، ص115؛ Howorth, Op.Cit, Vol.III, P.486

(2) الفيل، ص309.

(1) Howorth, "Op.Cit", Vol.III, PP.493.

(2) Beazely, "Op.Cit", Vol.II, P.444, footnote.

(3) Op.Cit., Vol.19, P.59.

(4) الفيل، ص315.

أما التجارة مع أفريقيا فقد استمرت منتعشة خلال الحكم الالخاني فيروى ان منتجات زنجبار كانت تشاهد في أسواق بغداد[1]. ولكن يظهر ان النشاط التجاري مع أفريقيا قد انقطع لأسباب كثيرة منها العداء ما بين الايلخانيين ومماليك مصر ثم تلا ذلك دخول قوى تجارية جديدة إلى المحيط الهندي وأعني بها البرتغال والهولنديين ومن ثم الإنكليز وكذلك نشاط القراصنة في المحيط الهندي ذلك النشاط الذي بدأ منذ القرن/12.

ب-التجارة الداخلية:

الانهار الصالحة للملاحة وشبكة طرق المواصلات البرية التي تربط بغداد بباقي أجزاء العراق والجزيرة[1] ساعد على النشاط الداخلي للتجارة. وكانت بغداد تعتمد على ما يردها من شمال العراق كالقمح أو من الجنوب كالرز والتمور والذرة.

وكان لموقع بغداد الممتاز أثره الأكبر على نجاحها في التجارة. إذا بنيت على نهر دجلة وربطت مع نهر الفرات بنهر عيسى الصالح للملاحة وهكذا تحكمت بملاحة النهرين، كما كانت نقطة التقاء الطرق البرية الآتية من مختلف الأقطار. ولم يؤثر الفتح المغولي على مركزها التجاري، فكان هناك سوق القزازين وسوق الموسلين وسوق القمح، وكان أكبرها قاطبة السوق الواقع في الشمال الغربي عند باب الموصل[2].

---

(1) Beazley, "Op.Cit", Vol.19, P.59.

(1) يطلق اسم الجزيرة على القسم الشمالي من العراق.

(2) Fraser, "Op.Cit", PP.273-274.

ولقد زار بغداد الرحلة ماركوبولو بعد الفتح المغولي بسنوات قليلة فوجد كثيراً من التجار في أسواقها[1]. وفي مطلع القرن/14م زار بغداد الرحالة العربي الكبير ابن بطوطة حيث وجد أسواق كثيرة في بغداد الشرقية وكان أكبرها سوق الثلاثاء[2]. وكان في بغداد جسران للمارة.

وأخيراً فإن بغداد كانت خلال الحكم الالخاني تمثل عاصمة العراق العربي ومقر الوزير[1].

ج- الحياة الاقتصادية في بغداد كما تعكسها الآثار الإسلامية في العصر العثماني[2]:

لعب الأتراك العثمانيون دوراً هاماً في التاريخ الإسلامي وفي التاريخ الإنساني عامة، ودام حكمهم عدة قرون بسطوا خلالها سلطانهم على كثير من الأقاليم العربية، وقد كان للعامل الديني الأثر الكبير في استقامة الأمر لهم، وتمكن سلاطينهم، فأمسكوا بزمام الأمر، ويبدو أن القدرة الاقتصادية- بشرية ومادية- هيأت الفرصة للسلاطين كي يتسلموا مركز القيادة في مختلف الولايات، لأن القدرة العسكرية رهن بالقوة الاقتصادية.. ومن هذه الولايات التي خضعت للحكم العثماني

---

(1) Op.Cit, Vol.I, P.63.

(2) نفس المصدر، ص99-100.

(1) تمييزاً له عن العراق العجمي في إيران.

(2) صلاح حسين العبيدي، الحياة الاقتصادية في بغداد كما تعكسها الآثار الإسلامية في العصر العثماني، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية (بغداد)، العدد الثالث عشر، 1404هـ/1984م، ص256-266. ولد مؤلفنا في بغداد عام1933، وحصل على ماجستير آثار من القاهرة عام1956، وعلى دكتوراه في الآثار الإسلامية من جامعة القاهرة عام1973. له بحوث عديدة في هذا المجال، ومنها البحث الذي ندرجه هنا. ينظر: المطبعي، موسوعة أعلام وعلماء العراق، الجزء الأول، ص396.

آنذاك ولاية بغداد، الذي جعلنا مدار بحثنا عليها لأن الولايات العربية كثيرة ومتعددة، مما يتعذر على الباحث تناول الحالة الاقتصادية فيها بهذا البحث، لذا اقتصر كلامنا عليها حيث حكمها العثمانيون أكثر من ثلاثة قرون[1].

وبغداد عاصمة الدولة العباسية، ظلت مركز العلم والثقافة والمدنية طوال العصور المختلفة، فلا غرابة أن تحتفظ بدورها الحضاري خلال الحكم العثماني وذلك بفضل الجهود التي كان أهالي بغداد يبذلونها وسعيهم المستمر بين حين وآخر في في إبراز هذا الدور رغم التجاوزات التي كان يمارسها بعض الولاة على مختلف مرافق الحياة. وحتى لا يكون البحث عابراً غير موثق، فقد آثرت أن أشفع الكلام بالحجة وأؤيد الخبر بالدليل ليأتي البحث موثوقاً والكلام مسنداً، وتعتبر الآثار العربية الإسلامية إحدى مصادر هذه الدراسة، ولابد أن نعطيها حقها من الاهتمام، ويدخل ضمن هذا المصدر دراسة المخلفات الأثرية المختلفة التي تشمل العمارة بكل أنواعها وأشكالها، وكذلك التحف المنقولة من نسيج وأخشاب ومعادن وزجاج وخزف وغيرها، ومن خلال هذه الآثار نستطيع أن نستنبط الكثير من الحقائق عن النشاط الاقتصادي الذي كانت عليه ولاية بغداد آنذاك.

ولعل أبرز ما يلفت نظر الباحث في هذا المجال هو اهتمام أهالي بغداد بالناحية الدينية، يؤيد ذلك إقبالهم على تشييد المساجد والجوامع والتكايا والربط والمدارس، وكذلك قيام العثمانيين بإنشاء الخانات والأسواق والسدود والقصور، بالإضافة إلى صيانة ما ورثه العثمانيون

---

(1) كذا في الأصل، والحقيقة أنهم حكموها أكثر من أربعة قرون (المحقق).

منها، وأن قسماً كبيراً من هذه المنشآت لم يزل قائماً إلى وقتنا الحاضر وتعرف بأسماء الذين أمروا بتشييدها أو ترميمها .

والمساجد والجوامع التي تعود إلى العصر العثماني كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال جامع المرادية، وقد دعي بهذا الاسم نسبة إلى مراد باشا والي بغداد (974/982هـ/1566-157)[1] في عهد السلطان سليم الثاني العثماني، وجامع الوزير، وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى الوزير حسن باشا والي بغداد بين سنة (1008/1012هـ/1600-1604)[2].

ومن الجوامع البغدادية التي تعود إلى الفترة العثمانية جامع الخاصكي الذي أمر بتشييده عام (1069هـ/1658م) محمد باشا الخاصكي والي بغداد، فدعي باسمه[3].

ومنها جامع السليماني، ويسمى جامع السراي أو جامع جديد حسن باشا ويقال أن السلطان سليمان عمّر هذا الجامع[4]، ومنها جامع الأحمدية في الميدان سمي بذلك نسبة إلى بانيه أحمد باشا كتخذا سليمان باشا الصغير، ويذكر أن أحمد باشا استحضر لبناء جامعه أشهر أساتذة عصره من الفعلة والمهندسين وصرف على العمارة مبالغ عظيمة، ووقف عليه الأوقاف الجسيمة[5].

---

(1) عيسى سلمان، نجله العزي، هناء عبد الخالق، نجاة يونس، العمارات العربية الإسلامية في العراق (دار الرشيد للنشر، 1982، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية).

(2) مصطفى جواد، أحمد سوسة، دليل خارطة بغداد، المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً، مطبوعات المجمع العلمي العراقي (1378-1958م)، ص233.

(3) مصطفى جواد، أحمد سوسة، المصدر نفسه، ص234.

(4) المصدر نفسه، ص234.

(5) مصطفى جواد وأحمد سوسة، ص234-235.

وإلى جانب هذه الجوامع هناك جامع آخر يعرف بجامع العاقولي وتذكر المصادر التاريخية أن الوالي محمد باشا، أحد أمراء الدولة العثمانية أمر ببناء الجامع، وذلك سنة (1059هـ/1683م)[1].

أولى العثمانيون أهمية كبيرة إلى المباني المدنية، نذكر منها سراي بغداد، حيث كان مقراً لولاة بغداد في العهد العثماني[1].

وعندما تولى الولاية سليمان باشا الكبير قام بكثير من الأعمال العمرانية في بغداد، فهدم أبنية السراي وعمرها عمارة لائقة، وذلك سنة (1217هـ/1802م)[2].

وفي أثناء حكم الوالي نامق باشا (1268-1269هـ/1851-1853م) تم تشييد العديد من المباني في بغداد منها القشلة، وهي ثكنة للجنود المشاة[3]. كما قام هذا الوالي بتجديد بناية السراي، كما شيد العثمانيون بناية القلعة وبناية الكرنتينة اي المحجر الصحي، كما شيدوا مستشفى المجيدية[4].

ويمكن القول بأنه كان للعثمانيين أثر واضح على الحركة العمرانية في بغداد، ونستطيع أن نتلمس بصمات الحكم على العديد من المباني العمرانية الدينية منها والمدنية.

---

(1) عيسى سلمان، المصدر السابق، ص248.

(1) يوسف شريف، تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور (منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، 1982)، ص532.

(2) المصدر نفسه، ص569.

(3) المصدر نفسه، ص570.

(4) المصدر نفسه، ص576.

ومما لا شك فيه أن تشييد مثل هذه المؤسسات يتطلب توفير المال اللازم لإنجازها، وتجهيز وتوفير المواد الأولية لبنائها، ومع أن المصادر التاريخية لم تسعفنا بالمعلومات التفصيلية ولا بأية معلومات أخرى عن مقدار ما صرف من مال ومواد على مثل هذه المنشآت، إلا أن الناظر إلى ما بقي من هذه المنشآت يستطيع أن يعطي فكرة مهما كان مقدار اقتراب الواقع يومئذ لكنه يستطيع أن يخمن ما صرف من المبالغ الطائلة للبناء وما يرافق البناء من احتياجات إلى مواد أخرى وصناعات متنوعة، كالسقوف الخشبية والشبابيك والأبواب والمنابر والمقصورات وأثاث أخرى ووسائل إضاءة وتغليف جدران الأبنية بألواح القاشاني.

وكانت هناك منشآت أخرى شيدت من قبل المحسنين ووجوه الناس ومن يملك الإمكانية في التشييد والبناء والصرف، وهذه المنشآت يطلق عليها اسم (منشآت الوقف).

وقد كان الوازع الديني هو الذي دفع بالسلاطين والولاة والمقتدرين من الناس إلى بناء دور العبادة ودور العلم المختلفة التي شيدت لخير الناس ونفعهم مثل المساجد والمدارس والخانات وغيرها، وكان هذا الوازع الديني سبباً في اتباع حبس العقارات والأراضي حتى ينتفعوا بغلتها من الصرف على صيانة تلك العمائر وعلى معاش من يقوم على خدمتها وصيانتها مما كان له أكبر الأثر في الاحتفاظ بعدد كبير من آثارها، إذ بدون هذه الحبوش الأخيرة لا يمكن أن تستمر تلك الوقوفات لتؤدي واجبها ووظائفها على الوجه الأكمل، ولدينا شواهد كثيرة تؤكد الخدمات الجليلة التي أدتها مؤسسة الأوقاف خلال الحكم العثماني.

ومن المصادر الأساسية التي أمدتها بالمعلومات المهمة المتعلقة بالوقوف هي حجج الوقفيات التي قدمت للباحثين دراسة نافعة

ومعلومات قيمة عن تاريخ العمارة العربية وغيرها لما تضمنته من أوصاف تفصيلية دقيقة لكثير من تلك العمائر وأوجه الصرف عليها من صيانة ومرتبات إلى غير ذلك مما كان يستعمله أسلافنا ونحتاج إليه اليوم في أبحاثنا[1].

وتكشف الآثار العمرانية البغدادية التي تعود إلى الفترة العثمانية عن حقيقة هامة عن الدور الذي اضطلعت به مؤسسة الأوقاف في هذا المجال، فمن المنشآت الثقافية المدرسة التي قامت بإنشائها السيدة عائشة خاتون بنت السيد علي الكبير نقيب الأشراف ببغداد سنة (1227هـ/ 1811م)[2]، وفعلت مثل ذلك نازندة خاتون زوجة والي بغداد علي باشا عندما قامت بتشييد مدرسة أكملت عمارتها والجامع في سنة (1263هـ/ 1846م)[3]

كما اهتمت نائلة خاتون بالعمارة ويتجلى ذلك في إنشائها سنة (1291هـ/ 1874م) مدرسة تجاه جامع الحيدرخانة ببغداد[4].

وفي بغداد بنى أحمد باشا الكهية جامعاً سمي بجامع الأحمدية يقع بقرب الجامع الكبير في ساحة الميدان، قرب جامع المرادية، وصرف على عمارة الجامع مبالغ عظيمة[5].

---

(1) شافعي، فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية (عصر الولاة)، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ج1، ص310.

(2) عماد عبد السلام، عماد، أثر المرأة في إنشاء المؤسسات التعليمية إبان العهود الإسلامية، مجلة تعليم الجماهير، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، العدد الرابع عشر، السنة السادسة يناير/كانون الثاني، 1979، ص56.

(3) المصدر نفسه، ص56.

(4) المصدر نفسه.

(5) يوسف شريف، المصدر السابق، ص554.

ويمكن أن نضيف السيدة فاطمة خاتون إلى مجموعة السيدات المحسنات في اتجاههن نحو تشييد المدارس والجوامع، إذ قامت في سنة (1185هـ/ 1771م) بتشييد جامع النعمانية في بغداد ووقفت عليه مسقفات كثيرة وأراضي وبساتين[1].

وإذا شئنا أن نلتفت إلى أكثر ما يرتبط بالحياة الاقتصادية فإن الأسواق التجارية تعطي المؤشر الحقيقي لهذه الحياة في بغداد في العهد العثماني، لأن وجود الأسواق المزدهرة اقتصادياً وتجارياً وصناعياً يعني ازدهار الحياة المالية من جميع وجوهها، آنذاك. فلقد وجدت أسواق عديدة في مختلف المجالات، وبعضها أسواق متخصصة في معروضاتها أو بضائعها وقسم كبير من هذه الأسواق تدل أسماؤها على نوع البضاعة المتداولة منها، بحيث اكتسبت هذه التسمية، ولم تزل بعض هذه الأسواق ومسمياتها موجودة إلى وقتنا الحاضر. إن هذا التخصص الدقيق في الأسواق يدل دلالة واضحة على وفرة المادة المصنوعة التي كانت تنتجها المصانع العامة على المستوى الحكومي والفردي، وهذه الوفرة والتخصص يعكس لنا مقدار النشاط الاقتصادي الذي كانت عليه الصناعات المحلية آنذاك، ويؤيد في الوقت نفسه كثرة المواد الأولية التي تدخل في هذه الصناعات، وفي هذه الأسواق كان يجتمع التجار وأهل الريف والوافدون من الأقطار البعيدة. للتزود بما تنتجه بغداد وما يصل إليها من نفائس البضائع والمصنوعات.

ومن أسواق بغداد المشهورة سوق الغزل، وسوق التوتنجية، وسوق الصباغين، وسوق الخياطين، وسوق القز، وسوق السراجين وسوق اليورغانجية، وسوق الاسكجية وغيرها.

---

(1) عماد عبد السلام، أثر المرأة، ص55.

ويذكر الرحالة سموئيل الذي زار بغداد أثناء الحكم العثماني لها أنه كان في بغداد أعداد كبيرة من الأسواق المتخصصة مكتظة بالدكاكين فيها أنواع البضاعات كلها[1].

وقد التفت البغداديون خلال الحكم العثماني إلى مجال آخر كان في غاية الأهمية بسبب مردوده الاقتصادي وهو انشاؤهم الخانات في داخل الولاية وعلى الطرق الخارجية لحماية التجارة وتأمين سلامتها من الأخطار، وتقديم الخدمات إلى التجار والمسافرين وضمان وسائل نقل التجارة والبضائع وأدامتها والمحافظة عليها، وليس من المستبعد أن تكون هذه الخانات مكاناً لعقد صفقات تجارية وتبادل البضائع بين التجار، وبفضل هذه الخانات شهد الريف البغدادي انتعاشاً اقتصادياً، حيث كان سكان القرى المجاورة لتلك الخانات يعرضون على التجار والمسافرين ما كانت تنتجه مزارعهم من حاصلات وفي المقابل يحصلون من التجار ما يحتاجونه إليه من البضائع فيكون نوع من مبادلة السلع. ويمكن ان نستدل من أقوال الرحالة الذين زاروا بغداد خلال الحكم العثماني على الأهمية التي كانت عليها تلك الخانات، فقد ذكر مثلاً أنه كان في بغداد بعد فتح السلطان مراد الرابع لها عشرة خانات ينال فيها المسافرون قسطاً من الراحة وأن التجارة كانت فيها رائجة[2].

ويفيدنا رحالة آخر شاهد بغداد سنة 1816م، فذكر أنه كان في بغداد ثلاثون خاناً[3].

---

(1) مصطفى جواد، أحمد سوسة، المصدر السابق، ص210.

(2) بغداد، نشر نقابة المهندسين العراقية، ص66.

(3) رحلتي إلى العراق سنة1816، ج1، ص197.

ولو ربطنا بين ما ذكر في المصادر من كثرة الخانات وما بقي من آثار شاخصة لها حتى الآن لاكتشفنا ما كان للخان من أهمية اقتصادية تفسر لنا سبب كثرتها وانتشارها بحيث تتمكن من تأدية الخدمات وتقديمها إلى التجار في المجال الاقتصادي والتجاري، ومن هذه الخانات البغدادية الشاخصة إلى يومنا هذا خان يعرف بالتركية باسم خان الأورتة أي خان النص لوقوعه في منتصف الطريق بين بغداد وبعقوبة، وقد ذكر أن الوزير عمر باشا هو الذي أمر بإنشائه سنة **1110**هـ، وخان آخر يعرف باسم خان العطش، وينسب تاريخ بنائه إلى الوالي سليمان باشا الكبير الذي حكم ولاية بغداد سنة **1194**هـ/**1817**م. وخان آخر يعرف باسم خان المشاهدة الذي يقع ضمن محافظة بغداد حالياً.

أما في داخل بغداد فتوجد عدد من الخانات مثل خان الذهب وخان البريسم وخان الكتان وخان الحياك، وتعكس لنا هذه الخانات مؤشراً اقتصادياً واضحاً لما كان عليه الوضع الاقتصادي من ازدهار.

ومن صور النشاط الاقتصادي الذي كانت عليه ولاية بغداد خلال الحكم العثماني المجال التجاري، وهو الاتجار بالمواد التي تهم قطاعاً كبيراً من المجتمع البغدادي وذات مردود اقتصادي، ومن الإشارات التي جاء على ذكرها (فيدريكو) أحد تجار البندقية عندما زار بغداد سنة **1163**هـ، تناول من جملة ما تناوله موضوع التجارة في المدينة فذكر أنه رأى (**25**) سفينة محملة بالتوابل وسائر البضائع الثمينة قادمة من الهند[1].

ومن الأعمال التجارية التي كان البغداديون يمارسونها أثناء الحكم العثماني، تجارة الخيل والماشية، فقد كان في بغداد سوق كبيرة لبيع

---

(1) بغداد، المصدر السابق، ص66.

الأغنام والماشية، وقد شاهد الرحالة جاكسون صفقة بيع كبيرة للأغنام والماشية بما يقدر بحوالي (لك) ونصف (لك) قرشاً[1].

وهنا تجارة أخرى ببغداد اختصت ببيع الخيول، ويذكر الرحالة فريزر أنه كان في بغداد سنة 1834 سوق كبير يعرف بسوق الميدان اختص ببيع الخيول[2].

كما كانت تجارة النحاس معروفة آنذاك، حيث كان العراق يصدر كميات كبيرة من النحاس التي كانت تشحن من بغداد إلى البصرة في سفن شراعية، ويكون النحاس على شكل صفائح صغيرة مستديرة يبلغ عرضها زهاء ست بوصات وسمكها نحو بوصتين وهو من نفس النوع الذي يجري صنعه في إنكلترا، ويذكر جاكسون عن هذه التجارة فيقول لم يكن أحد قبلاً يمارسها قد ازدادت بسرعة فغدت تجري واسع لأن بعض السفن التي تبحر من البصرة تكون محملة كلها أحياناً بالنحاس وحده[3].

وإلى جانب ما تقدم وجدت مجالات متعددة ساهمت في تسيير عجلة الحياة الاقتصادية في ولاية بغداد أثناء الحكم العثماني وهي الحرف والصناعات التي اشتهر بها البغداديون منذ أقدم العصور، وقد تميزت بغداد في هذه المرحلة بمختلف النشاط الصناعي برغم أن الغزو المغولي قد أضر بالصناعة نتيجة التخريب الذي أصاب المراكز

---

(1) جاكسون: مشاهدات بريطاني عن العراق سنة 1797، تعريب-سليم طه التكريتي. الناشر مطبعة الأسواق التجارية، بغداد، ص76.

(2) فريزر، جيمس بيلي، رحلة فريزر، نقلها إلى العربية جعفر الخياط، مطبعة المعارف، بغداد، 1964، ص78.

(3) مشاهدات بريطاني عن العراق سنة 1797، للرحالة الإنكليزي المعروف جاكسون، ترجمة خالد فاروق عمر، الدار العربية للموسوعات، بيروت-لبنان، ط1، 1421هـ، ص85.

الصناعية، ومع ذلك استطاعت الصناعات البغدادية أن تستعيد نشاطها ومركزها السابق خلال الحكم العثماني، ويبدو ذلك من اتساع الأسواق وتعددها بحيث أصبحت كل حرفة تتميز عن غيرها بسوق خاص تعرف به، ومن أمثال هذه الحرف المتميزة صناعة النسيج وهو يشكل حاجة أساسية وضرورية في حياة المجتمع، حتى أن إنتاجه كان على مستويين حكومي، وأهلي، فساهم الولاة والسلاطين في تشجيع هذه الصناعة وانتعاشها الأمر الذي استلزم اخضاع هذه الصناعة للإشراف الحكومي، فكان بيع المواد الخام التي تباع إلى المصانع الأهلية من خيوط وأصباغ وذهب وفضة تدخل في صناعة النسيج خاضعاً لرقابة الحكومة، ولم تقف هذه الرقابة عند هذا الحد بل كانت الحكومة تراقب ايضاً ما تخرجه هذه المصانع الأهلية من أقمشة وكان مندوبها يفحص منتجات الأنوال فما كان منها مستوفياً للشروط المطلوبة أجاز تداوله وتمغه بالتمغة الرسمية وما كان منها غير حائز للمواصفات المطلوبة صادره وأوقف بيعه.

وإذا تعرضنا إلى المحلات المشهورة في هذه الصناعات فتأتي (دار القز) في طليعة هذه المحلات، وقد اختصت هذه المحلة بإنتاج نسيج القز يصنع منه أنواع من الثياب يقال لها القز ومن المعروف أن (دار القز) كانت من محلات بغداد المشهورة خلال العصر العباسي.

والصناعة الثانية التي تدخل في هذه الأنماط الصناعية والتي اشتهر العراق بها هي صناعة السجاجيد، ولما كان العراق معروفاً بصنع السجاجيد فقد كان هذا العامل حافزاً لدفع السلاطين العثمانيين أن يستعينوا بالمهرة من العمال العراقيين في هذا المجال، فقام وزير السلطان العثماني سليمان بنقل نساجين من البصرة إلى تركيا لصنع

السجاجيد واختص هؤلاء بعدئذ بإنجاز السجاجيد إلى السلطان فقط، وهذا يؤكد لنا على أهمية هذا الموضوع وجودته وسعة انتشاره، وتفوق العراق في هذا الميدان.

والخزف من الصناعات التي عرفت واشتهرت في العراق وبوجه خاص مدينة بغداد، منذ أقدم العصور لذلك لفتت هذه الصناعات اهتمام الولاة ببغداد فأقبلوا على تنميتها وإنتاج الأنواع التي يرغب فيها الناس ويقبلون عليها، بالإضافة إلى هذا كله، فإن هذه الصناعة دخلت العمارة لتغطية واجهات الأبنية كالمساجد والمدارس وجدران البيوت. وقد أكد الرحالة الذين شاهدوا بغداد ومروا بها بأن هذه الصناعة كانت معروفة جداً، فيذكر فريزر الذي زار بغداد عام **1834**م أنه شاهد عدداً من المنائر والقباب المغطاة بالآجر المصقول الملون في الغالب باللون الأخضر والأبيض والأصفر والأسود الموشى بالفسيفساء (الموازيك)[1]، ولم تزل كثير من الأبنية القائمة إلى اليوم تشهد بوجود هذه الصناعة وانتشارها.

وهناك صناعة أخرى عرفت في العراق واشتهرت قبل العصر العثماني هي صناعة المعادن، فقد ازدهرت هذه الصناعة بسبب توافر عدة عوامل تساعد على ازدهارها مثل توفر المواد الأولية ومهارة الصانعين وتشجيع الحكام لهذه الصناعة وإعجابهم بها فصنعوا الكثير من منتوجات المعادن مثل التحفيات أو ما كان يستخدم في المدارس والمساجد والبيوت كالشماعد والثريات ووسائل الإضاءة الأخرى وغيرها.

وقد شاهد فريزر أثناء رحلته إلى بغداد نماذج من المصنوعات المعدنية معروضة في أسواق بغداد، مثل الخناجر المطعمة بالفضة والمسدسات المدلاة من المحزم[2].

---

(1) فريزر، المصدر السابق، ص82.

(2) فريزر، المصدر نفسه، ص88.

وبالنظر لما تتمتع به الدولة من مركز خطير في العالم، فقد التفتت إلى أهم صناعة تحتاجها الدولة وهي صناعة الأسلحة بنوعيها الخفيفة والثقيلة، وهذا النوع من الصناعة تحتاج إلى ثروة طائلة لكي تضمن الدولة إنتاجها وتوفيرها مما يؤكد بأن الدولة كانت تخصص في ميزانيتها المبالغ لهذه الصناعة.

ومما يؤكد أهمية هذه الصناعة وجود مصانع للأسلحة في بغداد أثناء الحكم العثماني، فقد ذكر فريزر أنه كان في بغداد دار خاصة للأسلحة تسمى (دار الأسلحة)[1]، مهمتها توفير ما تحتاجه الدولة من المعدات الحربية المختلفة.

وشهدت بغداد أيضاً انتشاراً واسعاً في صناعة أخرى هي صناعة الأخشاب التي استخدمت في أغراض مختلفة ومتنوعة، فكانت تدخل في مجالات الأبنية والأثاث، إذ كانت تستخدم أبواباً وسقوفاً وشبابيك وغيرها، هذا إلى جانب ما كانت تفرضه ضرورات الدفاع والحماية العسكرية في توفير الخشب، وذلك لبناء السفن الحربية والتجارية، وهي تكلف مبالغ كبيرة.

وكانت الصناعة الجلدية من الصناعات التي عرفت في بغداد خلال العصر العثماني، وكانت تدخل في أغراض متعددة، حتى أن سوقاً ببغداد يعرف بسوق السراجين لم يزل قائماً إلى اليوم، قد اختص بهذا الصناعة وفنونها فمن ذلك صناعة الأحزمة والحقائب وسروج الخيل وغيرها ويذكر الرحالة جاكسون الذي زار بغداد عام1797م عن وجود

(1) فريزر، المصدر السابق، ص152.

معامل متعددة لإنتاج المواد ذات الاستعمال المباشر كالملابس ومواد السراجة[1] وغيرها.

ولابد لنا ونحن نعدد هذه الصناعات ومراكزها المشهورة أن نتطرق إلى وسائل التعامل والتبادل التجاري، وكيف كان يتم، لقد ضرب العثمانيون أنواعاً متعددة من النقود مثل الأقجة. والقرش والبارة والدينار والدرهم، وكانت هناك دور ضرب خاصة لإنتاج هذه العملات التي تستخدم كوسيلة للتعامل التجاري، ومن الأماكن التي ضرب فيها النقود ببغداد الأعظمية إذ نصبت دار للضرب في عام1025هـ كانت تضرب فيها العملات، كما كان في بغداد عام **1834**م دار خاصة لسك النقود أطلق عليها (السكة خانة).

كما عرفوا وسائل تجارية أخرى تعد اليوم من الوسائل المتقدمة هي وسيلة استخدام الصكوك بدلاً من النقود، وبالأخص في مسألة سفر التاجر أو المسافر، إذ كانت تسحب صكوك على ذمة تاجر آخر في بغداد، وكانت لها قوة النقد أو العملة وهذا يوفر تسهيلاً تجارياً في التعامل بالإضافة إلى الأمان المتوفر لحامله إذ يضمن لنفسه عدم السلب على أيدي قطاع الطرق أو اللصوص بالنسبة للمسافرين، ويتبع ذلك كله عملية أخرى تعرف اليوم باسم تصفية الحسابات.

وأمدتنا وثيقة عثمانية، عن بغداد بطائفة من المعلومات التاريخية القيمة والطريفة عن مقدار الرسوم والضرائب وأنواعها التي كانت تستوفي من أصحاب المزارع والأراضي والأغنام وغيرها خلال حكم دولتي آق قوينلي والصفويين لها.

---

(1) مشاهدات بريطاني عن العراق سنة 1797، ترجمة خالد فاروق عمر، ص84.

ومع أن الوثيقة التي وجهها السلطان سليمان القانوني إلى والي ولاية بغداد وقاضيها في 4 رمضان943هـ/شباط1537م جاءت في صيغة الغاء أو تخفيض لجانب كبيرة من الضرائب التي اعتبرت في نظر السلطان من الضرائب المثقلة لكاهل المواطنين إلا أنها أفادت من جانب آخر في التعريف بضخامة العملية الإنتاجية التي كانت بغداد تؤديها وتقوم بها سواء في داخل الولاية أو أطرافها وكيفية تنظيم الحياة الاقتصادية والإشراف عليها .

وقد عددت لنا الوثيقة طائفة من الضرائب والرسوم الجائرة مثل (جهار ماهة) و(رسم استيفاء) التي كانت تستوفي من المحصولات التي تبلغ قيمتها الفي اقجة مبلغ قدره مائتان وثماني عشرة اقجة بالإضافة إلى مائة وأربعين مناً من الشعير، كما كانت تستوفي من مجموع الحاصلات ثلاثة طغارات من كل مائة طغار من التركة تحت اسم (صدية) كما كانت تستوفي من المواطنين ضريبة أو رسم باسم (بيشكش) مقدارها عشرين ألف أقجة والفي منّ من الدهن بالإضافة إلى اثنين وعشرين اقجة عن كل رأس من الجاموس وما مقداره خمس اقجات باسم (ميرانة) فضلاً عن استيفاء عشر عن هذا المبلغ. كما نصت الوثيقة على منع الكارخين من استيفاء أي شيء من الرعية وعليهم أن يزرعوا أرضاً تخصص لهم من قبل الإمارة بمساحة تكفي للزراعة بمقدار طغار واحد لكل كارخ يتصرف بمحصولها لنفسه.

أما الضرائب التي كانت تستوفي من الفلاحين وتؤخذ من الغلال فهي (عليق) و(زكاردستة) إلى جانب الضرائب التي كانت تستوفي على رؤوس الأغنام والشياة ومقدارها شاة واحدة من كل ثلثمائة شاة باسم

(جوبان بكي). كما كانوا يتسوفون ثلاث اقجات عن كل قطيع ظلماً ومن كل ثلاثمائة غنم ما يسمى بـ(كرو) بالإضافة إلى أن المباشرين يأخذون شاة أخرى.

كما عالجت الوثيقة الضرائب الخاصة بالبناء، حيث ركزت على العرصات الخالية من البناء وذلك بعدم استيفاء أي ضريبة من الأشخاص الذين يرغبون في عمارتها ولمدة سنة واحدة على أن تستوفي منهم بعد ذلك خمس مجرد كما نصت الوثيقة على أعفاء من يعمرون الخربات (من الضريبة) وعدم استيفاء أي شيء منهم لمدة سنة واحدة على أن يستوفي منهم خمس مجرد فقط دون مطالبتهم بأية زيادة وذلك لكي تعمر الخربات وتزدهر.

يظهر مما تقدم أنه على الرغم مما حل ببغداد من كوارث ونكبات نتيجة الغزو الأجنبي بقي البغداديون على أصالتهم واعتزازهم بمدينتهم العظيمة فبذلوا ما بوسعهم من جهد في الإبقاء على تراثهم الذي أشاد به المؤرخون، ولا شك أن دور البغداديين في الحياة الاقتصادية والعمرانية والصناعية والفنية خلال الحكم العثماني كان واضحاً ويمكن للباحث أن يلمح ذلك من خلال الشواهد التاريخية والأدلة الأثرية التي جئنا على ذكرها.

د-التطور الحضري لمدينة بغداد1900-1960[1]:

بغداد في مطلع القرن العشرين:

كانت بغداد منذ العهد العباسي حتى عهد واليها مدحت باشا (1869-1872) محدودة بالسور على جانبيها الشرقي والغربي. إلا أن هدم الوالي سور بغداد-لانتفاء أهميته الدفاعية والرغبة في التوسع العمراني، إضافة إلى استغلاله الطابوق في المشاريع العمرانية الجديدة- كان له الأثر الأكبر في تقرير مصير المدينة ونمط توسعها المستقبلي، وبالأخص بعد، ردم الخندق الناتج عن إزالته. كانت الخطوات الأولى بالانطلاق خارج حدود المدينة القديمة في تشييد بعض الأبنية إلى الشمال منها قرب باب المعظم: كثكنة الخيالة، قصر المجيدية، خان المسافرين، وغيرها، إضافة إلى مجموعة المقابر خارج حدود السور مباشرة جنوبي المدينة. أما أبواب بغداد الأربعة فأنها لم تهدم بهدم السور وإنما أبقيت على وضعها، غير أن باب الطلسم استخدم كمخزن للذخيرة ثم نسفه الأتراك [العثمانيون] قبل إنسحابهم من بغداد مباشرة. أما الباب الشرقي وباب المعظم فقد هدما بعد ذلك بعقود، والباب الوحيد الباقي إلى يومنا هذا هو الباب الوسطاني.

كان الانتقال بين جانبي الكرخ والرصافة يتم عن طريق جسر عائم يمتد بين مجموع المقاهي في جانب الكرخ وجامع الاصفية في جانب الرصافة، وهو موقع جسر الشهداء حالياً. وإضافة إلى الجسر

---

(1) سعاد مهدي (مركز بحوث البناء)، التخطيط الحضري لمدينة بغداد1900-1960، مجلة آفاق عربية، العدد8، السنة الثالثة عشر، آب1988، ص38-45.

كانت هناك خدمات لنقل الناس بين الجانبين بواسطة القفاف التي كانت تستخدم أيضاً لأغراض النقل النهري الآخر.

إن مسارات الحركة في المدينة كانت عبارة عن شبكة من الأزقة الضيقة الملتوية التي ترتبط بينها الأسواق المسقفة أو المفتوحة. أما وسائل النقل البرية فكانت تتمثل في السير على الأقدام أو استخدام الدواب، وأحياناً بعض العربات، إذ كان عدد السيارات في المدينة آنذاك يعد على أصابع اليد الواحدة. إلا أن المدينة كانت قد شهدت ابتداءً من عام **1870**[1] مدُّ خط (الگاري) – عربة (ترام) تجرها الخيول-ما بين الكرخ والكاظمية.

كانت خدمات الكهرباء معدومة في بغداد مع أن بعض بلدان أوربا كانت قد بدأت باستخدام الكهرباء في الأبنية العامة والسكنية منذ عقود. أما الماء فكان مصدره الرئيس الآبار في البيت، أو(السقا) المتجول، أو النهر حيث يتم ملء الأواني والجرار مباشرةً، إذ أن إسالة الماء كانت متواضعة وتقتصر على محلة السراي حيث مقر الحكم (كانت هناك مضخة في شريعة الصنائع قرب القلعة)، وبطبيعة الحال لم تكن هناك خدمات المجاري لتصريف المياه.

تبعاً لـ(گودوين)[2] كانت المدن الواقعة تحت الحكم العثماني-وبالأخص في الأجزاء الشرقية بعيداً عن التأثير الغربي-تتميز بالخصائص التالية:

---

(1) Fethi, ihsan: Urbsn Conserbation in Iraq, Vol.1.
(2) Goodwin: Goafrey: A History of ottoman Architecture: Thames & Hudson, 1971, P.450-453.

1- كونها مشيدة عموماً على سفوح التلال أو الأراضي المنحدرة قدر الإمكان لضمان توفير الإضاءة والتهوية والمناظر الجيدة لجميع الأبنية.

2- وجود تقاليد وأعراف اجتماعية محلية تساعد على التحكم بمواقع الأبنية وارتفاعاتها.

3- وحدة الطراز المستخدم في الأبنية لكون الكثير من العناصر المعمارية تعتمد على مواد ذات أبعاد قياسية موُحّدة (كأطوال الأخشاب مثلاً)، مع ذلك يلاحظ وجود تنوّع كبير في التفاصيل.

4- كونها مقسمة حول مراكز معينة، كالمراكز الدينية والتجارية وغيرها، مع انتشار المناطق السكنية حولها وبينها بصيغة محلات.

5- تراص الأبنية وتقاربها حيث كانت فكرة الأبنية المرتفعة المنفصلة تلقى رفضاً قاطعاً.

6- عدم وجود محاولات لتقسيم المدينة إلى أحياء طبقية، بل العكس، كثيراً ما كانت منازل الموسرين والفقراء تجاوز بعضها البعض.

7- ان نموها لم يكن بشكل عشوائي، لكنه أيضاً لم يكن وفق تخطيط مسبق مدروس، وكانت هذه المسألة تعتمد على اجتهاد (الأسطوات) والبنائين.

8- استخدام السوق منسّق في تخطيط المدينة.

9- وجود بعض التأثيرات الغربية اللاحقة مثل فكرة تخطيط (المدن النموذجية Madel Towns) وفتح الشوارع والجادات العريضة

المشجرة، وفكرة الساحة العامة مهماً كان مقياسها. فقد أدخل بعض الولاة فكرة (الميدان)، إلا أنها لم تكن أكثر من ساحات لاستراحة القوافل أو ساحات للرياضة في أحسن الأحوال، إضافة إلى أن الفكرة لم تكن موفقة في أغلب الأحيان لكون الأبنية المحيطة بالساحة قليلة الارتفاع إلى درجة لا تتناسب مع الساحات الشاسعة المفتوحة.

10- بناء العديد من أبراج الساعات في أرجاء الإمبراطورية.

بمقارنة الملامح والخصائص الحضرية لمدينة بغداد في أوائل القرن العشرين مع الخصائص العامة للمدن العثمانية نجد أنها تتفق معها كثيراً مع أنها، وغيرها من المدن العراقية، كانت موجودة أصلاً قبل الاحتلال العثماني بزمن بعيد. لقد انشئت بغداد على أرض مستوية إلا أنها عوضت المزايا التي تتمتع بها المدن المشيدة على سفوح التلال بطريقة أخرى.

ففي المناطق السكنية يلاحظ وجود الشناشيل المطلة على الأزقة الضيقة وقد نُفّذت بأسلوب يحقق للناظر منها أكبر مجال ممكن للرؤية حتى لو تطلب ذلك تنفيذها بشكل فوري، وهي فائدة أخرى تضاف إلى تقويم أعوجاج ضلع المطلة على الزقاق. وبالنسبة للتحكم بمواقع الأبنية وارتفاعاتها فقد ((كان سكان بغداد يعيشون ضمن نظام اجتماعي يتحكم في سلوكهم. كما كانت هناك محددات اجتماعية ومتعارف عليها تتعدى مجرد مسألة الجيرة الحسنة، وهي ما تسمى بالأعراف التي تتمتع بتأثير يفوق تأثير أية قوانين للبناء))[1].

---

(1) المصدر السابق، ص100.

بالإضافة إلى تحديد ارتفاع الأبنية كان هناك توحيد من نوع آخر يتعلق بمواصفات الأبنية في المدينة، وذلك من حيث الأفكار التصميمية والمعالجات البصرية لها والتقنيات والمواد الإنشائية المستخدمة فيها. وبالرغم من تكرار والأفكار ذاتها والمواد ذاتها، إلا أنه يلاحظ وجود تنوع هائل في التفاصيل.

من ناحية أخرى، كانت بغداد تمتلك مراكز دينية تجارية، وكل منها يستقطب حوله الفعاليات المتعلقة به، وكانت المناطق السكنية تمتد بينها بصيغة محلات تقطنها فئات معينة أو مجموعة من الأسر المهاجرة من المناطق المجاورة، أو محلات يسكنها أناس يشتركون بحرفة معينة وغيرها.

أما عن التأثيرات الغربية التي دخلت بغداد، فقد أوجد الوالي عبد الوهاب باشا (1904-1905) جادة مستقيمة من مقر الحكومة إلى رأس القرية[1] (من المعتقد أنه الطريق الماريسوق السراي وسوق السراجين وشارع النهر حالياً).

وتذكر بعض المصادر التأريخية بأن أول شارع في بغداد هو شارع النهر الذي فتحه الوالي ناظم وباشا عام1910، الذي لا يستحق ان يسمى شارعاً لضيقه وكثرة التواءاته[2]. كما تذكر بأن أول شارع حقيقي في بغداد هو جادة خليل باشا (شارع الرشيد الحالي) فتحت في عام1916 والتي يحتمل ان تكون فكرتها ظهرت أول مرة في عهد مدحت

(1) الورد، باقر أمين، بغداد خلفاؤها، ولاتها، ملوكها، رؤساؤها، 1984، ص261.
(2) الوردي، د.علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الرابع، 1974، ص302.

باشا[1] كما سيأتي ذكرها فيما بعد. أما أول ساحة عامة فكانت الميدان قرب باب المعظم، تلتها حديقة البلدية التي افتتحها مدحت باشا في عهد ولايته. أما أبراج الساعات، فأن أولها هو برج ساعة القشلة التي شيدها مدحت باشا لإيقاظ الجنود[2]، تلاه ظهور أبراج أخرى للساعات في أماكن أخرى.

شهدت أواخر القرن التاسع عشر تدهوراً واضحاً في أوضاع الدولة العثمانية، كما شهدت بالمقابل تزايد النفوذ الألماني وتغلغله بشكل عام، ويمكن تلخيص علاقة المانيا بالدولة العثمانية بالاستشارات العسكرية والهندسية وبعض المصالح الاقتصادية.

إن أهم أثرين للألمان في تكوين بغداد آنذاك كانا سكة حديد بغداد وجادة خليل باشا المشار إليها آنفاً. ففي عام 1888 حصلت شركة (سكة حديد الأناضول) الألمانية على امتياز من الحكومة التركية لإنشاء خط للسكك الحديد يمتد من حيدر باشا (مقابل استانبول على الجانب الآسيوي) حتى أنقرة[3]. وقد كان الهدف الأصلي من المشروع هو مد سكة حديد من حيدر باشا إلى البصرة، إلا انه في آيار من عام 1911، وبعد مفاوضات مع البريطانيين، تناول الألمان عن حقهم بمد السكة بين بغداد والبصرة واكتفوا بإنهاء الخط في بغداد.

---

(1) فتحي، د. إحسان، شارع الرشيد حكاية معمارية مثيرة، مقال في مجلة الرواق، العدد 14-1983، ص16.

(2) العزي، نجلة إسماعيل، سراي بغداد والقشلة، مقال في مجلة سومر، الجزء الأول والثاني-المجلد الرابع والثلاثون-1978، ص255.

(3) **Jastrow, Morris, The War and the Baghdad Railway: J.B. Lippincott Co.1917.**

في تموز من عام1911 وصل الألماني (مياستر باشا) باشا-كما كانوا يسمّونه- إلى بغداد ليتسلم منصبه مديراً للأشغال فيها، وافتتح مكاتبه في دار كاظم باشا على الضفة الغربية لنهر دجلة في منطقة الكرخ (التي أصبحت دار السفارة البريطانية فيما بعد)[1]. تقع هذه الدار في طرف بغداد الجنوبي قرب السور ولا تبعد كثيراً عن الموقع المقترح لمحطة السكك الحديد على الضفة ذاتها إلى الجنوب. وفي صباح يوم 27 تموز 1912 جرى احتفال رسمي ببدء العمل في المشروع بحضور الوالي جمال باشا وقناصل الدول الممثلة في بغداد وحشد من كبار شخصيات المدينة وحوالي أربعين مهندساً معظمهم من الألمان. وقد كان من المقرر أن يتم مد الخط إلى تركيا ليلتقي بالخط القادم من شمالها. إلا أن اندلاع الحرب العالمية الأولى أدى إلى توقف العمل في الخط عند مدينة سامراء في عام1914.

من آثار مشروع سكة حديد بغداد على المدينة إنشاء مجمع المحطة الرئيسة الذي يحتل أرضاً واسعة في الجنوب الغربي من المدينة يمكن تحديده اليوم بنهر دجلة شرقاً، شارع 14 تموز غرباً، شارع جمال عبد الناصر شمالاً وشارع حيفا جنوباً. كان هذا المجمع في عهد إنشائه يقع خارج حدود المدينة بحيث كان القطار يخرج من المحطة ويسير بموازاة السور الغربي باتجاه الشمال نحو سامراء، وقد اسهم بناء هذا المجمع على الضفة الغربية للنهر في تطور هذا الجانب وتوسع المدينة بهذا الاتجاه في سنوات لاحقة حتى بدأت تظهر فيه -في عهود لاحقة-

(1) Longrigg, Stephan Hamsley, Iraq: 1900-1950, Oxford University Press, 1956.

منشآت حديثة مهمة بعد أن كان مقتصراً على عدد في المحلات السكنية وبعض المراقد.

وبالنسبة لجادة خليل باشا، فأن بعض المؤرخين يشيرون إلى أن الوالي خليل باشا، بعد انتصاره على الجيش البريطاني في حصار الكوت عام1915، قرر-عملاً بنصيحة بعض الاستشاريين العسكريين الألمان- فتح أول شارع في بغداد، على أن يمتد هذا الشارع من باب المعظم في الطرف الشمالي للمدينة حتى الباب الشرقي في الطرف الجنوبي لها بموازاة نهر دجلة. أما الدوافع الكامنة وراء فتح هذا الشارع فهي المتطلبات العسكرية والاعتبارات الاقتصادية والدوافع الشخصية. فقد وجد الوالي أن هناك حاجة ماسة إلى وجود شارع عريض يخترق المدينة لتسهيل حركة تنقل الجيش بمدافعه ومعداته الثقيلة من الجبهة وإليها، حيث المعارك مع القوات البريطانية ناشبة. ومن الناحية الاقتصادية استخدم الوالي ظروف الحرب العالمية الأولى -وبالأخص الحرب ضد الجيش البريطاني- ذريعة لتأجيل دفع مبالغ التعويض للعقارات والمنازل التي تم تهديمها لغرض فتح الشارع. أما الدوافع الشخصية، فقد كانت الموضة الشائعة آنذاك هي التنافس والتباهي بفتح الشوارع من قبل الولاة. بحجة الاعمار، إلا أن الحقيقة كانت الرغبة في تخليد ذكراهم بإطلاق اسمائهم عليها[1].

بدأ العمل في شق الشارع في آيار من عام 1916 من قبل المهندسين الألمان وذلك بتهديم عدد من الدور والأبنية الأخرى. قبل فتح الشارع (كان هناك طريق واسع يربط ما بين باب المعظم والميدان في

---

(1) مصدر سابق ذكره (الوردي، 1974).

شمال المدينة.. كذلك كان هناك طريق يمر بالقرب من جامع السيد سلطان علي (في جنوبها) ويصل حتى المقيمية البريطانية مروراً بحدائقها التي يمكن من خلالها الوصول إلى الباب الشرقي عبر أرضٍ مفتوحة[1].

لذلك، فإن ما تم في الحقيقة هو فتح شارع يصل ما بين الميدان والمقيمية البريطانية في منطقة السنك. وقد تم فتح الشارع يوم **23** تموز من عام **1916**. ((ومما يلفت النظر أن الشارع ظل حتى يوم سقوط بغداد بأيدي البريطانيين –أي بعد أكثر من سبعة أشهر– وهو مليء بالحفر يعلوه التراب، فلم يهتم المسؤولون بتسوية أرضه أو تبليطه. وكانت الدور مهدمة على الجانبين وأصحابها لا يزالون يسكنون فيها وقد علقوا بعض العباءات والستائر لحجب أنظار المارة عنهم. وقد نظم الرصافي قصيدة في وصف حالة الشارع...))[2].

بغداد في عهد الاحتلال البريطاني:

عند احتلال القوات البريطانية مدينة بغداد كانت في حالة يرثى لها، وقد جاء هذا الأمر خيبة أمل مريرة لهم بعد كل ما تناهى إليهم من حكايات ألف ليلة وليلة، وما رأوه عن بعد أثناء تقدمهم نحو المدينة من قباب ومآذن وبساتين للنخيل والبرتقال.

كان العديد من الأبنية العامة والبيوت مهدمة وأعمدة الدخان تتصاعد في أماكن عدة والشوارع والأزقة أبعد ما تكون عن النظافة.

---

(1) Coke, Richard, Baghdad: The city of peace, Thornton Butterwirth Ltd, 1927.

(2) مصدر سابق، (الوردي، 1974)، ص304.

بعد احتلال المدينة مباشرة بدأت حملة واسعة لتنظيفها وإعادة تنظيمها، وقد بدأت القوات البريطانية بإجراء مسح شامل لبغداد لإعداد خارطة جديدة لها كان يتم تحديثها باستمرار، وتم تقسيم بغداد مجدداً إلى عدد من المحلات؛ كما تم إدخال نظام جديد لترقيم المحلات والأزقة والدور. وقد كان من الاهتمامات الرئيسة للسلطة المحتلة الشوارع بتسويتها وتبليطها، ومنها جادة خليل باشا التي أصبحت تعرف باسم (الشارع الجديد)، وهو أول شارع ظهرت فيه الإضاءة الكهربائية في بغداد.

بالنسبة لخدمات الماء، تم تغيير الموقع القديم لمضخات سحب الماء من النهر من محلة السراي إلى موقع آخر إلى شمالها (منطقة العيواضية الحالية) مع إنشاء محطة مركزية لتغذية المنطقة. وبالنسبة لخدمات مجاري تصريف المياه فقد أدخل نظام التصريف المكشوف الذي ساعد على تحسين الوضع بعض الشيء رغم بدائيته.

كان الانتقال بين جانبي الكرخ والرصافة يتم عن طريق جسر بغداد العائم القديم الذي أعادت القوات البريطانية إقامته بعد أن خرّبه الأتراك [العثمانيون] لدى انسحابهم.

كما قامت القوات البريطانية في عام 1918 بفتح جسر (مود) العائم أيضاً في موقع جسر الأحرار الحالي، إضافة إلى الجسر العائم إلى الشمال الذي يربط الأعظمية بالكاظمية.

في عام 1919 شكلت لجنة للإشراف على إعداد (مخطط إنمائي شامل لمدينة بغداد قام بإعداده المعماري الإنكليزي جي. أم. ويلسن مستنداً إلى مبدأ أساسي هو عدم إمكانية تنفيذ المشاريع العمرانية

الجديدة وفق المتطلبات الحديثة داخل حدود المدينة القديمة، لذلك فقد ضمت إليها الأراضي الواقعة بينها وبين كل من الكاظمية والأعظمية ونهر ديالى. ولسوء الحظ لم يتحقق هذا المشروع، شأنه شأن العديد من المشاريع الأخرى..)[1]. إلا أن مشكلة عدم توفير المساكن الملائمة لإيواء الموظفين المدنين البريطانيين حدا بالسلطات إلى تنفيذ مشروعين سكنيين في ضواحي الجانب الشرقي من المدينة هما العلوية والهندية، وكانت الأخيرة عبارة عن (معسكر) بريطاني كبير يضم واحداً من أكبر المطارات في العالم، إلا أن مظهره كان أشبه بأحدى الضواحي الصناعية حول مدينة شكاغو[2]. أما الكرادة الشرقية فكانت (النسخة الحديثة لكلواذي العصور الوسطى وكانت في حقيقتها إمتداداً لبغداد بمحاذاة شاطئ النهر[3].

هذا عن جنوب المدينة. أما شمالها فقد أنشأ الملك فيصل الأول مزرعة شيدت فيها بنايتا الجناح والبلاط الملكيين. وفي أوائل العشرينيات وضع مخطط أساسي للمنطقة القريبة من مشهد الإمام (أبو حنيفة) من جهة الجنوب استعداداً لتنفيذ أول جامعة حديثة في العراق هي جامعة آل البيت، وقد تم وضع مخطط لموقع الجامعة، إلا أن ما تم تنفيذه لم يكن أكثر من بناية لكلية واحدة هي الكلية الدينية. وبالرغم من عدم تنفيذ مشروع جامعة آل البيت بأكمله، إلا أن منطقة الأعظمية والمنطقة القريبة من باب المعظم أصبحنا في العشرينيات

---

(1) المصدر سابق (Coke,1927)، ص304.

(2) المصدر السابق، 310.

(3) المصدر السابق.

والثلاثينات مركزاً للتربية والتعليم بعد تشييد عدد من المدارس والكليات مع أقسامها الداخلية.

في الثلاثينيات، تطورت منطقة الوزيرية (مقابل المزرعة الملكية) بعد أن تم وضع مخطط لها جرى بموجبه تقسيم الأراضي السكنية وتوزيعها، كما شهدت الفترة ذاتها تطور منطقة بين المجيدية والمزرعة الملكية على ضفاف دجلة. وهكذا أخذت الصلات تتوثق ما بين الأعظمية وبغداد حتى أصبحت الأعظمية فيما بعد من ضواحيها الحديثة الكبرى.

وإذا كان الجانب الشرقي من المدينة قد شهد ظهور ضواحٍ وأحياء سكنية، جديد متعددة، فإن جانبها الغربي شهد تطورات من نوع آخر تمثلت بسلسلة من المشاريع المهمة المختلفة، منها تطوير موقع محطة بغداد للسكك الحديد التي أصبحت تعرف بمحطة غربي بغداد، وإلى الشمال الغربي منها تم تشييد الميناء الجوي على أرض واسعة في عام**1931** باعتبار أن هذا الموقع كان حينذاك يقع خارج المدينة وبعيداً عن العمران. وعند تأسيس دار الإذاعة العراقية في عام**1936** اتخذت لها موقعاً في الصالحية قرب محطة غربي بغداد، كما تحولت المنطقة المحيطة بدار كاظم باشا (السفارة البريطانية) إلى محلة سكنية.

ومن المشاريع المهمة الأخرى في الكرخ مشروع محطة بغداد المركزية **1947-1951** وما رافقه من مقترحات للتطوير الحضري تمثل في تغييرات جذرية لمنطقة الصالحية تماشياً مع مقياس المحطة الجديدة وتصميمها، إلا أن المخطط المقترح لم ينفذ مما أثر على بناية المحطة وعلاقتها بسياقها الحضري. وقد شهدت الأربعينيات أيضاً تطور منطقة كرادة مريم في الجانب الغربي من بغداد. إضافة إلى أن

جانب الكرخ قد ضم مزرعة الحارثية الملكية التي شيد فيها قصرا الزهور والرحاب في الثلاثينيات. وتقع على بعد بضعة كيلومترات غربي الميناء الجوي.

كانت المحلات السكنية الجديدة في الثلاثينيات والأربعينيات تحمل تغييراً جذرياً في نمط السكن لما كان مألوفاً في السابق. فالمنازل -وهي الخلايا التي تكون بمجموعها نسيج الأحياء السكنية- أصبحت من النوع المغلق ذي الفناء الداخلي المسقف وهي منفصلة ومستقلة عن بعضها البعض تحيط بها حدائق واسعة تطل على شوارع عريضة لمرور السيارات. هذا النسيج المفكك حل محل نسيج المحلة القديمة المتماسك حيث المنازل المتراصة- بل المتصلة ببعضها البعض- التي لا تتخللها سوى الأزقة الضيقة لمرور السابلة، وأحياناً الدواب والعربات. في البداية، كان نمط التخطيط الشبكي (غير المنتظم) مقتصراً على المحلات السكنية الجديدة للأغنياء والموسرين بسبب أسلوب تقسيم الأراضي ومساحات القطع -إلا أنه بمرور الزمن أصبح هذا النمط أكثر انتشاراً وأكثر انتظاماً وصرامةً عندما اعتمد أسلوباً عاماً في تخطيط الأراضي المخصصة للمناطق السكنية الجديدة.

شهد عهد الاحتلال البريطاني، ومن ثم العهد الملكي، استخدام السيارات والعربات بشكل أكثر كثافة من السابق، لذلك برزت الحاجة إلى بعض المعالجات الحضرية الجديدة تكيفاً مع هذا الوضع، مثل شق الشوارع العريضة متعددة المسارات واستحداث عدد من ساحات الاستدارة الدائرية والأهليلجية، وقد نصبت في بعضها التماثيل كتمثال (مود) قرب السفارة البريطانية وتمثال الملك فيصل الأول في الساحة المسماة حالياً ساحة جمال عبد الناصر، وتمثال عبد المحسن السعدون

من جهة الشمال. وبعد أن تحولت مسارات الحركة الرئيسة في بغداد من الأزقة الضيقة الملتوية المظللة إلى الشوارع العريضة المستقيمة المفتوحة تلبية لمتطلبات استخدام السيارات والعربات، برزت الحاجة إلى توفير مسارات حركة مناسبة للمشاة، فظهر مفهوم الرواق المُعمّد على جانبي الشارع الذي تؤشر بداياته في (الشارع الجديد)، ثم ظهر في الشوارع الأخرى.

ويذكر أن فكرة الأروقة هذه نقلها البريطانيون من بلادهم إلى مستعمراتهم في جنوب آسيا –ومنها الهند- حيث لقيت استحساناً كبيراً لملاءمتها ظروف المناخ القاسي في المنطقة، ثم نقلوها من هناك إلى بغداد .

إضافة إلى ما تقدم، ظهر عدد كبير من الحدائق والمتنزهات العامة مثل (پارك السعدون) في العلوية وحديثة الأمير غازي (حديقة الأمة حالياً)، وحديقة باب المعظم المخصصة للطلاب. وغيرها . وفي أواخر الثلاثينيات تم تشييد جسرين في بغداد هما جسر الملك غازي والملك فيصل (الشهداء والأحرار).

وفيما يخص أبواب بغداد القديمة –أو ما تبقى منها- شهدت الثلاثينيات إزالة بابين آخرين بشكل نهائي، هما باب المعظم في عام**1932** والباب الشرقي في عام **1937**، وكان البابان المذكوران قد تعرضا إلى محاولات من قبل السلطات المحتلة لتغيير أسميهما بتحويل (الباب الشرقي) إلى (الباب الجنوبي) **South Gate** و(باب المعظم) إلى (الباب الشمالي) **North Gate**، إلا أن الملاحظ بأن التسميات العربية الأصلية بقيت على حالها باللغة العربية، في حين استخدمت التسميات الجديدة باللغة الإنكليزية على الرغم من التناقض الواضح بين الاثنين.

بالإضافة إلى شبكة الشوارع والساحات الجديدة التي ظهرت في المدينة فإن تطور شبكة خطوط السكك الحديد بشكل عام كان له دوره أيضاً في تغيير وجه المدينة. لقد تم إنشاء عدد من محطات السكك الحديد في مناطق مختلفة من بغداد وكلها كانت تقع في مناطق على الحدود الخارجية للمدينة آنذاك بحيث كانت خطوط السكك تلف حول المدينة، إلا أن نمو خطوط السكك وتوسعها خلق عدداً من المشاكل الخاصة بهذه المحطات مما أدى إلى إلغاء بعضها وتغيير مواقع البعض الآخر.

قبل الانتقال إلى المرحلة التالية لابد من الإشارة إلى أن محاولة أخرى جرت خلال هذه الفترة لوضع مخطط أساسي بغداد، وذلك عام **1936** من قبل جهة استشارية ألمانية هي (أف. بركس وبرونوفاينر) بتكليف من الحكومة العراقية، إلا أن هذا المخطط لم ينفذ.

عقد الخمسينيات:

بعد تأسيس مجلس الإعمار في **1950** وتخصيص نسبة كبيرة من عائدات النفط إلى مشاريعة دخلت بغداد مرحلة جديدة من تاريخها تضمنت مشاريع ذات مقاييس ضخمة، كالمخططات الأساسية للمدينة والمشاريع الإسكانية الكبيرة، إضافة إلى المشاريع العمرانية المختلفة. وبما أن مجلس الاعمار اعتمد في إعداد هذه المشاريع على الجهات الاستشارية الأجنبية، فقد لعب نمط التخطيط الحضري لمدن الغرب دوراً أساسياً في التصاميم المقدمة.

في كانون الأول من عام **1954** تم تكليف مكتب (مينوبريو، سبنسلي وماكفارلين) من المملكة المتحدة بإعداد مخطط أساسي وكان برنامج المتطلبات يتألف من شبكة للطرق الرئيسة، ومقترح لاستخدامات

الأراضـي، ومقترحـات لأبنيـة عامـة جديـدة، إضـافة إلى تقـديم التصـاميم المعمارية للمركز الحكومي والمدني، وأبنيـة أخـرى في مركـز المدينـة، وقـد تـم تقديم المخطط الأساسي للمدينة، أما المشاريع الأخرى فقد ألغيت بعد ثورة عام1958 تماشياً مع ظروف المرحلة وما تتطلبه من إعادة النظر في خطط الاعمار السابقة. وقد اتسم هذا المخطط بكونه شبه شعاعي قطـره حوالي ثمانية عشر كيلومتراً يحيطه حزام، يفي بعمـق حوالي كيلومترين للحد مـن توسـع المدينـة نحـو الخـارج، كمـا كـان هنـاك اقتراح لإنشـاء خمسـة جسـور جديدة تـربط مـا بـين جـانبي المدينـة، إضـافة إلى اقتراحـات أخـرى خاصـة بشـبكة الشـوارع وإعـادة تنظـيم خطـوط السـكك الحديـد وتوسـيع المطـار وغيرها. وتم تخصـيص منطقـة صـناعية جنـوبي المدينـة قـرب الـدورة علـى الرغم من أنها منطقة صالحة للزراعة.

مـن المآخـذ علـى التصـميم المقـدم مـن قبـل (مينوپريـو) التقـدير الخاطئ للزيادة المستقبلية في عدد السكان واغفال مسألة الحفاظ علـى الأبنيـة التاريخيـة والتراثيـة إذ تم اقـتراح إزالـة عـدد كـبير منـها. وإعطـاء السيارات أهمية كبيرة مع إهمال المشـاة، إضـافة إلى تجاهـل النـهر وعـدم استثماره بالشكل الصحيح. لقد جوبه هذا المخطط بالـرفض مـن جانـب مجلس الاعمـار الـذي قـام في عـام 1958 بتكليـف مكتـب (دوكسـياديس وشـركاه) مـن اليونـان بتقـديم مخطـط أساسـي جديـد لبغـداد مـع الأخـذ بنظر الاعتبار المخطط السابق، إلا أنه تم إنهاء العقد الخاص بهذا العمل بعد تقديمه.

يختلف المخطط المقدم مـن قبـل (دوكسـياديس) اختلافـاً تامـاً عـن سـابقه. إنـه مسـتطيل بأبعـاد 31×18 كليـومتراً، ويأخـذ بنظـر الاعتبـار مسـألة اسـتغلال النـهر، ومـن أبـرز سماتـه كـون الشـكل المسـتطيل المقترح

مكوناً من شبكة تخطيطية متسامتة صارمة تتجاهل الخصائص الطبيعية والتاريخية للمدينة، إضافة إلى كونه شكلاً اعتباطياً مقحماً بشكل قسري على المدينة الأصلية شأنه شأن مخططات (دوكسياديس) المقترحة لأية مدينة في العالم بشكل عام بغض النظر عن موقعها يحمل التصميم أيضاً اقتراحاً بشق ثلاث قنوات: إحداهما قناة الجيش التي تم تنفيذها في أوائل الستينيات. أن المنطقة المشمولة في مشروع التطوير هنا أكثر مساحة من تلك المقترحة في المخطط السابق، كما أن تقديرات زيادة عدد السكان واحتمالات التوسع أكثر دقة. لقد اقترح (دوكسياديس) أيضاً إنشاء عدد من القطاعات السكنية، بعضها تم تصميمه بالتفصيل كمنطقة الحي العربي قرب المنصور (التي تم تقسيم الأراضي فيها وبيعها في زمن أسبق) وإسكان غربي بغداد، إضافة إلى تخطيط منطقة اليرموك وإسكان شرقي بغداد وتخطيط مدينة الثورة (مدينة الصدر الحالية). صممت هذه كلها ونفذت كضواح سكنية بعيدة عن مركز المدينة وحتى عن أطرافها حينذاك. وبمرور السنين امتلأت المسافات ما بين هذه الضواحي والمدينة القديمة بالمزيد من الأحياء السكنية والمشاريع المختلفة.

إضافة إلى التوسع الكبير المفاجئ لبغداد في هذا العقد، يمكن القول أن من أبرز التطورات في التكوين الحضري للمدينة هنا هو بداية تغير شكل خط السماء بظهور الأبنية متعددة الطوابق، ومنها الأبنية البرجية الموشورية التي كسرت هيمنة الاتجاه الأفقي للمنظر العام للمدينة.

كخلاصة، يمكن القول بأن فترة النصف الأول من القرن العشرين مثلت مرحلة تغير جذري في التكوين الحضري لبغداد، بل قد تكون الفترة التي شهدت التغير الأكبر والأسرع في تاريخ المدينة حتى سبعينيات

هذا القرن [القرن العشرين] عندما دخلت المدينة مرحلة جديدة من التغير والتطور الكبير. بغداد الأمس كانت الرقعة المحصورة ما بين جسري 17 تموز والجمهورية الحاليين باتجاه الشمال-الجنوب، وشارع محمد القاسم وشارع حيفا (تقريباً) باتجاه الشرق-الغرب. والتي تعتبر اليوم القلب التاريخي لبغداد الحديثة الكبرى ذات المساحة الشاسعة والامتدادات الأفقية مترامية الأطراف في الاتجاهات الأربعة.

لا يسع المرء الآن وهو يتأمل العلاقة المتوترة ما بين الموروث والحاضر، ما بين السيارة والإنسان، ما بين المنفعة والجمال، ما بين الكتل والفراغ، ما بين البناء والطبيعة، ما بين خطي الأفق والسماء... لا يسعه إلا أن يتساءل: ترى ما الذي ستكون عليه بغداد الغد المتامية أبداً؟

الفهرس